محمد المجذوب

أضواء على حقائق

منشورات
نادي المدينة المنورة الأدبي

الطبعة الأولى
١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠ م

أضواء على حقائق مغفلة

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

هذه الفصول كتبت في ظروف متقاربة وفي شؤون متعددة ، ولكنها على تعددها يجمعها إطار واحد ، إذ تتحد في المنطلق والمصب جميعا .

معظم هذه الفصول قدّم إلى مؤتمرات إسلامية تبحث في أمور التعليم والدعوة والإعلام والمناهج التربوية ، ومهمة المسجد والجامعة في تكوين المجتمع الأفضل ، وفي العناية المثلى بلغة القرآن .. وقد ضمّ إليها بحث في تاريخ النصرانية ومصادرها ووقائعها ألقي محاضرة في قاعة الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة ..

وقد تناولتُ هذه الموضوعات من زاويتي الخاصة . وفي ظني أنها من الصراحة بحيث تستحق أن تُقرأ وأن تناقش ، لتنتهي الى ماتستحقه من قبول أو رفض أو تعديل .

لقد قلت في هذه الكلمات ما أعتقد أنه الحق والواجب وبقي على القارىء المثقف المنصف أن يقول فيها ما يعتقد أنه الحق والواجب كذلك ، وهذا أهم ما تتطلبه أمتنا في مرحلتنا الراهنة من ضروب التعاون بين المفكرين ، لتحقيق مايعوزها من رؤية سليمة ، وتقرير صحيح أصيل .

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

المدينة المنورة ــ أول شوال ١٣٩٩ هـ

محمد المجذوب



رسالة الجامعة السعودية
نحو لغة القرآن العظيم في المملكة والأوطان الإسلامية



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الأكرم . الذي علّم بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم . والصلاة والسلام على رسوله الصادق الأمين ، المبعوث رحمة للعالمين ، الذي شرفه بخاتم رسالاته المنزلة بلسان عربي مبين ، وعلى آله وصحبه والتابعين بإحسان الى يوم الدين .

القرآن والعرب

المبدأ الذي لاينبغي الاختلاف عليه هو أن العرب في استمرار وجودهم كأمة متميزة بخصائصها وقيمها ولغتها ، مدينون الى القرآن العظيم .. إذ هو الذي صان لهم كيانهم ، على الرغم من كل العقبات التي اعترضت مسيرتهم التاريخية حتى الساعة .

لقد بعث محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنزل عليه القرآن خاتم كتب الله ، والعرب قبائل متمايزة لاتدين واحدة لأخرى ، وقد تفرقت بها المنازل ، فلا تلتقي الا على غزو أو ثأر ، أو حلف لهما .. وبذلك تشقق لسانها حتى كان يستحيل لغات مستقلة ، لولا أثارة من روابط احتفظت بها الأسواق والمواسم إلى حد غير قابل للاستمرار ، فبنزول القرآن ، واندماج العرب في الاسلام تمت لهذه الوحدات المتفرقة شروط التوحد ، إذ وجدت نفسها مشدودة الى وحدة البيان بالتزامها سبيل الوحي ، الذي لا سبيل الى فهمه وتحقيق وحدته إلا عن طريق هذه اللغة التي شرفها الله بالرسالة الخاتمة .

واستهوت بلاغة الكتاب الحكيم نفوس العرب ، الذين استولى عليهم سحر الكلمة ، إذ واجههم بما لم يألفوه في سوامق بيانهم من روائع المعاني ،

وبدائع الصياغات ، فاستهانوا بأساليبهم بجانب أسلوبه الأعلى ، واستخفوا خطراتهم الفكرية بإزاء علومه الشاملة .. فاذا هم يقبلون عليه حفاظا ودرسا ، ويتنافسون في استيحائه نثرا ونظما وسلوكا .. وبذلك تفتتت حواجز الفروق اللغوية والاجتماعية بين هاتيك الفرق ، ثم مالبثت أن انتهت الى الانسجام الذي جعل منها خير أمة أخرجت للناس . ومن هنا كان عظم فضل القرآن على العرب والعربية إذ نقل لهجاتهم من قيود الوحدات المحلية ، الى آفاق اللغات العالمية وأحال كياناتهم القبلية وحدة اجتماعية متكاملة ، لها أقوى ما لأعظم الامم من وشائج القربى والاستمرار .

أثر اللغة في مصاير الامم :

كان مستحيلا على تلك القبائل ذات الخصائص المستقلة سياسيا واقتصاديا ودينيا أيضا ، أن تحتفظ ببقائها في عزلة عن مسيرة الركب البشري ، اذ يستحيل البقاء لأسباب هذه العزلة ، في عالم متغير ، تتطور فيه كل يوم أساليب المواصلات وتضيق مساحات الارض ، حتى تقترب كل مجموعة سكانية من الاخرى ، بحيث تصبح أخيراً وكأنها منطقة واحدة ضيقة ، لا سبيل معها لواحدة إلى مقاطعة الاخرى .

فالصحارى التي صدت من قبل جحافل الاسكندر عن غزو الجزيرة ، لم تعد شيئا مذكورا أمام البوينغ وسفن الفضاء ، ومراكز الارسال الفضائية ، وعشرات الوسائل الاخرى المحطمة لحواجز الفرقة البشرية والعزلة القبلية .. وهذا يعني أنه يستحيل في ظل مثل هذه التطورات أن تظل القبائل العربية محصنة ضد الذوبان في الاجناس الاكثر قوة .. لأن اللغة التي هي ملاك هذه الحصانة ستكون خاضعة لقوانين التغير ، حتى تتركز عوامل الفصل ما بين حدود اللهجات بصورة نهائية ، فتكون كل لهجة أمة متمايزة ، كالذي حدث للغة السامية ، إذ أدى بها تنائي المنازل وتباعد الزمن ، الى الانفصام فالتعدد ، حتى

كانت اللغة لغات ، وحتى بات الناطق بالعبرية لايفقه من العربية شيئا ، وكذلك الآرامي والحبشي والبابلي وسائر الفروع المتحدرات من الاصل الواحد.

ولو نحن رحنا تتقصى مسارب التطور اللغوي وما استتبع من الانفصام القومي ، لرأينا ذلك القانون هو الحاكم الحاسم في تمايز الشعوب ، وتكـون الامم ، وهل كان الناس في أصولهم البعيدة سوى أمة واحدة ، ذات لغة واحدة، فجرفتها سيول التطور حتى صارت أمماً ولغات تتعدى الإحصاء .. وأقـرب الامثلة على ذلك الأمم التي يلفها حزام الشرق الاقصى ، ومثلها المتفرعات مـن الأصـل اللاتيني في أوروبة حيث تمخضت الأمة فنتجت أمما ، لا يفهم بعضها عن بعض الا بترجمان .. ولا جرم أن العرب هم الامة المتميزة التي استعصت على هذا القانون ، فاحتفظت بوحدتها وخصائصها وتصوراتها ، على الرغم من عشرات العوامل التي اعترضتها وكانت حرية بتمزيق الامم مهما بلغت مقوماتها من المناعة .. وانما مرد ذلك الامتياز الى القرآن الذي بحفظه لغة الامة حفظ وجودها ، فاستعلت على الذوبان في غيرها من الامم واللغات .. وهي ميزة لم تتح للاتين ولا لسواهم ، إذ لم يكن لهم الكتاب المقدس الذي يجمع الأشتات على الوحدة ، فتمزقت أمتهم أمما على الرغم من وحدة الدين وتقارب المصالح فيما بين أجزائها .. على حين قيض القرآن لهذه اللغة مجالا للنمو البشري ماكان ليتصور لولا أثره ، إذ اجتذبت لغته شعوبا ، دخلت العروبة بمجـرد اعتناقها الإسلام ، فنسيت لغتها الأم على الزمن ، مؤثرة عليها لغة الكتاب الذي آثرت هدايته ولغته على كل شيء آخر .

العربية والإسلام :

ومن هنا كان التلازم قائما الى الأبد بين العربية والاسلام ، حتى ليعتبر المسلم الأعجمي هذه العربية لغته الاولى ، فيحاول اتقانها ، ويعتز بإجادتها ، لانها اللغة التي تكلم بها الله في آخر رسالاته المقدسة .. وقد يتساهل في لغته القومية دون غضاضة ، ولكنه لايسمح لنفسه بالتسـاهل في العربيـة لغة أدبه ودينه

وشريعته •• وبسبب ذلك تماسكت لغـة القرآن فاحتفظت بحيويتها وطلاقتها في أقطار غير عربية ، في حين جمدت حتى الخمود في الأقطار العربية نفسها أثناء الفترة التي سبقت عصر النهضة الحديثة •

فبالقرآن إذاً صار العرب أمة مميزة ، وبالقرآن دخلوا أبواب التاريخ ، لا عالة يتكففون ، كما يحلو لبعض الملاحدة المعاصرين أن يزعموا ، بل كما يدخل فريق الاسعاف الصحي مجالات الوباء ، او كما تقتحم وحدات الاطفاء مناطق الحريق ، تحمل الى المنكوبين أسباب العافية والامن •

وعلى هذا فمن أوليات الوفاء لهذا الكتاب العزيز أن يعرف العرب حقه، فيصونوا لغته ، ويلتزموا منهجه في حياتهم كلها ، ليظلوا الطاقة البناءة في كيان هذه الانسانية المهددة كأمسها بالخراب والشقاء ••

خصائص العربية في التفوق :

ولأمر عظيم شاءه الله تبارك وتعالى كان للعربية خصائصها المتفوقة ، التي تجعلها أصلح اللغات للاستجابة الى حاجات الحضارة •• فكأن السنن الكونيـة جمعاء كانت متجمعة تحت بصر أهلها الاولين ، فلم يعجزهم أن يضعوا لكل ظاهرة رمزها الميز المرن ، الذي يتابع تحرك الحياة فلا يتخلف عنه ولا يضيق به •• فبالنحت والاشتقاق ، والاصطلاح والتعريب والمجاز ، تمددت هذه اللغة من نطاقها الصحراوي المحدود الى منطلق العالمية ، فلم تعيَ بعلم ، ولم تعجز بازاء فن ، ولم تستغلق أمام فلسفة •• وبذلك تركت بصماتها بارزة غالبة على مقومات الحضارة كلها ، فلا علم يزهو به هذا العصر الا وللعربية فيه الأثر الدال على جلالها ، الذي يتضاءل بجانب ضوئه كل جلال ، سواء في ذلك خطرات الوجدان وماعملته اليدان ، أو ماتكشف للانسان الحديث من أسرار الكون•

ولا مندوحة عن القطع بأن الذي وهب للعربية خصائص القابلية للنماء ، إنما هيأها بذلك لاحتواء المعاني الكلية التي ادخرها للرسالة الخاتمة ، فكانت لها القوة الدافعة لاستيعابها كل معطيات الحضارة دون استثناء •

الإسـلام مفجّـر المواهب :

وقد اتضح لكل ذي عينين أن الإسلام هو الذي فجـر طاقات العرب ، فانصرفوا الى الاهتمام بالكون علوا وسفلا ، وانطلقوا يبحثـون ويكتشفون ويصححون مناهج السابقين ، تحقيقا للوعد الالهي بالاستخلاف في الارض ، وتوجيه الفكر البشري الى الحق ، والانسجام مع قوانين الكون ، الذي أنبأهم كتاب ربهم أنه مخلوق لمصلحتهم مسخر لمنفعتهم •• ليقيموا في أكنافه ملكوت العلم الذي ميز به بنو آدم ••• ومن هنا جاء التحرك الجديد لمواهب الانسان، اذ أخذت طريقها للانطلاق وراء الحقائق الكونية في منجاة من قيود الكهنوت، الذي أقام نفسه وصيا على العقل البشري ، طوال حقب التاريخ السابق للبعثـة النبوية ، واستجابت لغة القرآن للدوافع الجديدة اذ برزت عبقريتها في الانتفاع بكل ما انتهى اليه البحث والكشف والاقتباس ، فلم تضق ذرعا بأي مفهوم ولم تقصر يداً عن أي معلوم •• بل أمدت الفكر الاسلامي بكل ما أعانه على النماء، في جو من التعاون المتكامل بين مختلف روافد الثقافة الدافقة •• وهكذا تسنمت العربية عرش التفوق العالمي ، حتى باتت لغة العلم والادب ، يشـرف بمعرفتها أساطين الفكر على اختلاف مشاربهم وأديانهم وجنسياتهم •• وحتى راح القسس ينعون لغة اللاتين لما واجهوه من إقبال شباب أوروبة على العربية ، وتنافسهم في اتقانها ، ايمانا منهم بأنها لغة الجنس الممتاز •• تماما كما يفعل اليوم الكثيرون من الناشئين على فتات الغرب ، إذ يرفعون عقائرهم بإكبار لغاته ، وإصغار لغتهم، حتى يكادوا ينكرون عليها كل فضيلة •• وان براهين ذلك الماضي لماثلة في الكثير من صنائع الغرب وعلومه ، شاهدة على هذه الحقيقة بالمصطلحات العربية الناطقة بعظمتها ، المؤكدة أنها على أتم الاستعداد لاستئناف مسيرتها الصاعدة فيخدمة الحضارة ، اذا وجدت من أبنائها العناية التي تشق لها أسباب النهوض •

العربيـة وأعداؤها :

ولقد فطن أعداء هذه الامة الى الرباط الوثيق بين العربية والاسلام ••

فلما يئسوا من امكان التغلب على دين الله في مواجهة مكشوفة عمدوا لتحقيق مآربهم الى تفكيك العربية • ففي المناطق التي غلبوا عليها من وطن الاسلام لجؤوا إلى تعطيل الدراسة العربية أو تعويقها ، فألغوها نهائيا من أوساط الحكم، وأحلوا مكانها لغاتهم ، ثم التفتوا الى الحرف العربي فنفوه من ميدان التعامل، وأقروا محله الحرف اللاتيني في كل قطر تمكنوا من إخضاعه لإرادتهم في هذا الميدان •• فبعد أن كان الحرف العربي هو أداة التسجيل لثقافات الشعوب الاسلامية جميعا ، تقلص عن معظم أقطارها ، كما حدث لأندونيسيا وتركية ، والدول الناطقة بالفرنسية والانجليزية من أفريقية • ولاتزال الجزائر تتخبط في بحران من الاضطراب بين الحرف العربي والحرف اللاتيني بل بين العربية نفسها والفرنسية ، التي لاتزال تأوي الى أنصار كبار وكثار من أبناء المسلمين ، الذين يرفضون العودة الى لغة القرآن في الجزائر والمغرب ، ويتشبثون بتلابيب اللغة الغازية ، على اعتبار أنها بنظرهم الاداة الوحيدة لاستمرار اتصالهم بالحضارة •

ومما يدعو الى الكثير من الاسى أن دعاة الاجنبية في الشمال الافريقي من موريتانية إلى تونس يتناسون عامدين أو غافلين فضل لغة القرآن في صون شعوبهم من الذوبان أمام موجة الغزو ، التي بلغت من الشراسة أقصى مايتصوره الخيال ، وكان عليهم لو أنصفوا أنفسهم وهويتهم أن يجاهدوا ليل نهار لتثبيت سلطان العربية في كل مجال ، حتى تسترد قدرتها على تحقيق حاجاتهم الحضارية جميعا ، فيتاح لهم أن يتحرروا من اللغة التي تتجسد فيها ذكريات الهوان والرزايا والمجازر التي عاشوا في غمرتها الحقب الطوال •••

بعض مؤامراتهم :

وبديهي أن أولئك المستغربين ، الذين يتشبثون بلغة المستعمر ، ويؤثرونها على لغة أمتهم ، انما يفعلون ذلك بدافع من مركب النقص الذي يعانونه بسبب جهلهم للغة الضاد ، ثم لسبب أهم وهو انطباعهم بأسلوب التفكير الدخيل الذي تفرضه تلك اللغة الغربية ، ذلك لأن اللغة ليست أداة تخاطب

وتعبير فقط ، بل هي الى هذا عملية تصور نفسي ومنهج تفكير عقلي ، فنشوء النفس في ظل لغة ما صائر بها الى التفاعل مع مؤثراتها الخاصة ، حتى لاتكاد تتذوق سواها إلا في كثير من التكلف •• ومادام القوم قد عاشوا لغة أعدائهم حتى خالطت جوارحهم ، وطبعت مشاعرهم ، دون أن يتزودوا من بيان العربية بما يحصنهم من الذوبان في غيرها ، فعسير عليهم ان لم يكن مستحيلا أن يتخلصوا من إيحائها ، لان ذلك يكلفهم ما لا طاقة لهم به •

وقد شجع انحراف هؤلاء أخيرا حكومتي الصومال وماليزية ، فاذا هما تقتحمان العقبة وتنبذان الحرف العربي ، في الوقت الذي لاتنفكان تتحدثان فيه عن الاسلام بكل مناسبة ، وتحضران المؤتمرات الاسلامية ، دون أن تريا في ذلك أي تناقض مع هذا الجفاء الخطير لآخر العلائق الاخوية بين بلادهما ولغة القرآن •• ولم تكن الهجمة على العربية مقصورة على جبهة دون أخرى •• بل كانت من الإحكام ، بحيث ألفت سلسلة متصلة الحلقات ، لا تسكت قذائفها من جانب حتى تنطلق من جوانب •• وليست الدعوة الى أقلمة اللغة في البلاد العربية نفسها باستعمال العامية مكان الفصحى في نطاق الادب ، إلا وجها من هذه المعارك التي لم تخمد •• وهكذا القول في الدعوة الى تيسير القواعد بمسخها، وتغيير المألوف على القرون من مصطلحاتها ، إنما هو واحد من عشرات الذرائع لقطع صلة الاجيال العربية بماضيها المشرق ، كي تجد نفسها أخيرا كفقاع القاع، لايربطها بأصولها رباط من تفكير أو تصور أو منهاج••ومثل هذا أو ذاك ماتثيره عصائب المضللين من المتنكرين لقيم العربية ، من حملات تستهدف تشويه الادب العربي ، والتهوين من شأنه بإزاء الآداب الاجنبية ، التي لاينفكون يضخمونها بمختلف وسائل التضخيم والتعظيم ••

وظلم ذوي القربى :

ومن المحزن المزعج أن تسري عدوى الاستخفاف بالعربية الى أوساط دارسيها ومدرسيها •• حتى نرى أوفر الناس علما بها أكثرهم تهاونا بإعزازها

.. حتى لايسمحون لأنفسهم باستعمالها خارج حدود الكتابة أو الخطابة .. وفي ماعدا ذلك فهم أكبر مروجي السوقية ، حتى في حلبات الدرس ، حيث يتوقع منهم التزام جانبها ، لا يكادون يلجؤون إليها الا بعد تنبيه قد يصل إلى حدود الشكوى .. ولا أكشف سترا اذا قلت أن طلابا من مسلمي الاعاجم يفدون إلى البلاد العربية لاكتساب ملكة اللغة ، فيفاجؤون بخيبة لاذعة ، إذ يجدون أنفسهم بإزاء مدرسين لا يحترمون لغة قرآنهم ، بل كل منهم يلوذ بسوقيته فيفسر ويشرح ، ويقدم بها حتى دروس القواعد العربية .. ومهما أنس لا أنس يوم لقيت طالبا ثانويا من أبناء أحدهم ، فسألته عن صحة والده ، وعن اختباره ، فلم يفهم مني حرفا لاني كنت أكلمه بلغة العرب ...

ومن طريف الاحداث كذلك أن طالبا أعجميا وفد الى إحدى الجامعات العربية لاستكمال دراسته بلغة القرآن ، فاذا هو بمدرسين لايكادون يعرجون عليها ، ولايكاد يفهم منهم ، فراح يستوضح عن كل كلمة يعجز عن فهمها ، حتى تبين أخيرا أن اللغو الذي يسمعه ليس من العربية ، فاضطر الى تذكيرهم بأنه لم يهاجر من بلاده القصية ليتعلم غير اللغة التي تعينه على فهم كلام الله وكلام رسوله ... ومع أن تذكيره لم يذهب سدى الا أنه ظل مضطرا الى تكراره بين الحين والحين ، لأن لسان هؤلاء المدرسين قد طبع على العامية فلا يكاد يستطيع مفارقتها الى الفصحى .. ولعل شيئا من هذا قد حدث لطه حسين أثناء دراسته الازهرية فدفعه إلى القول بأن الازهريين لايحترمون لغة القرآن حتى في تدريسهم للقرآن .. وهو تعميم مسرف لاينطبق على الواقع كله ولله الحمد .

وتذكرني هذه المفارقات بطرفة أخرى ، ذلك أن مؤتمر وزراء التعليم العرب عقد في أحد مصايف لبنان الشمالي في مطالع أيام جامعة الدول العربية فراح كل منهم يرطن بسوقيته فلا يفهم أحد عن أحد .. حتى تذكروا أن لديهم لغة كريمة تستطيع إنقاذ الموقف .

العربية ووسائل الإعلام :

وحتى وسائل الاعلام من صحف واذاعة وتلفزة ، وهي التي كان بوسعها تدارك الكثير مما فات ، والقضاء على الكثير من الآفات ، قد أسهمت إلى حـد كبير في إيذاء العربية ، والترويج لأفكار أعدائها •• ولو تتبعنا برامج الاذاعة والتلفزة في معظم الربوع العربية لوجدنا نسبة ما تبثه باللغات السوقية يزيد كثيرا على مايقابله بالفصحى •• ونشير من ذلك بخاصة الى التمثيليات الشعبية التي تقدم باللهجات المحلية ، والى الأغاني التي يندر فيها الفصيح ، فضلا عما تحتويه من معان توافه تفسد الذوق العام وتسمم الضمير العربي ، حتى تجعله مستعدا للاستخفاف بكل القيم الفاضلة •

وكثيرون يذكرون مثلي تلك المقالة التي تصدرت ذات يوم إحدى كبريات المجلات الصادرة في بلاد العرب ، يتحدى بها كاتبها الشهـير لغة العرب ، إذ ينبذها بالعجز عن مجاراة التطور ، بدليل أنه لايستطيع أن يجد فيها اسما لكل جزء من سيارته الفارهة •• وما أحسب الرجل الا مدركا مقدار المغالطة في تهمته، لأن المفروض بمثله العلم بأن حيوية كل لغة نابعة من حيوية أهلها •• فـاذا جمدوا على أعتاب التخلف لم يطلب اليها أن تسبقهم الى الاعلى •• ولقد كان الاحرى به أن يعمل قلمه في إلهاب المشاعر لمسابقة الزمن في إعمال المواهب المعطلة المحبوسة في معتقلات التقليد ، لتستعيد مكانتها في موكب الحضارة ، ولتنقلب من محض مستهلك الى منتج ، يقدم للناس مصنوعاته الناجحة مغلفة بطابعه ، حاملة سماته ، مسماة بلغته •

ولعمر الله لا يرمي العربية بالعجز لسبب من ذلك إلا جاهل لا يفـرق بين الأصل والفرع ، ولا يحسن تجاوز الظواهر إلى ما وراءها ، أو مدخول النية لا يقصد الى غير التضليل •

العرب المقصرون لا العربية :

لقد أثبتت العربية قدرتها الخارقة على الاستجابة لكل طارىء مهما دق

وأمعن في الخفاء .. وحسبها حجة على ذلك اتساعها لكلمات الله التي تنفد دونها البحار ، ثم استجابتها لدواعي المدنية التي أظلت الانسانيـة في ميادين المعرفة السابقة للاسلام .. فاذا تعثر أهلها فيما بعد حتى وقفوا عند حدود الاجترار لما ورثوا ، كان ظلما أي ظلم أن تتهم العربية بالعقم .. لأن مثلهم ومثلها كشأن انسان يملك الملايين ولكنه لايستعمل منها سوى القروش ، على حين نرى فقيراً إلى جانبه لا يملك سوى القروش ، ولكنه بنشاطه وخبرته يحرك بها السوق .

فمن المسؤول عن تعطيل الملايين ، والى من يعود الفضل في تحريك القروش .. وتمكينها من التأثير الكبير .. أجل .. ان مظاهر القصور في لغتنا ليس إلا توكيدا للقصور في نشاطنا .

وأول سؤال يتبادر الى الذهن بإزاء هذا الواقع الكئيب هو : على من تقع تبعة هذا التخلف العقلي والعملي ؟.. وما السبيل الى تداركه وتحويله ؟..

وهنـا تتذكر التقويم الفكري الـذي صوره الكاتب الإسـلامي الكبير المرحوم مالك بن نبي بما مؤداه : إننا أمة خرجت من الحضـارة ... وبهرها تقدم عدوها ، فلم تفعل شيئا سوى الاعجاب بمصنوعاته ، ثم الخضوع لكل مؤثراته ...

ولا جرم أن الخلاص من هذا الوضع الشاذ يقتضي أن نستعيد الاحساس بذاتيتنا أولا ، فندرك واقعنا ثم نتعاون على تغيـيره بالارتفاع الى مستـوى المسؤولية ، ويومئذ فقط سنعرف أن الخطوة الأولى لتصحيح مسيرتنا تبدأ من دائرة الاكتفاء الذاتي ... الاكتفاء أولاً بمعطيات الرسالة التي مكنت لسلفنا الصالح من ناصية الارض ، إذ كونت من خامات الجاهلية المعطلة خير أمة أخرجت للنـاس تأمر بالمعروف ، الذي يضيء للإنسانية الحائرة مسالك النجاة ، وتنهى عن المنكر الذي يتمثل في كل زيغ يدفع بأصحابه الى الهاوية .. وبذلك يتاح لنا أن نتحرر من دوامة الضياع التي أغرقتنا بدعوات تتكشف كل يوم عن ضلال

جديد ••• وهناك فقط سنشعر أننا استعدنا مكاننا المفقود ••• فعدنا الى صفوف القادة ، بعد التيه الطويل في صحراء التبعية •

ثم الاكتفاء ثانيا بمقدرتنا على انتاج الحاجات التي تتطلبها دواعي الحضارة التي لاحياة لأمة بدونها وهي أحد الاهداف المنشودة من الرسالة الإلهية التي تقرر في أصولها الكبرى أن كل شيء في هذا الكون مسخر لمصلحة الانسان•

وكلا الأمرين على جلاله في متناول الإرادة ، لو استطعنا تحريرها من مركب النقص ، الذي ساقتنا اليه أحداث لم نكن بالخليين من تبعاتها •••

مخططات للتدمير :

ولكن ••• من الذي سيتولى قيادة الأمة الى الاكتفاء الذاتي في نطاق القيم والانتاج ؟!••

قبل أيام سمعت من بعض الاذاعات العالمية الخبر التالي « لقد تبين أن مئات الملايين من قروض حصل عليها أحد الاقطار العربية منذ سنوات ، لم يُستعمل منها للمصالح التي تم من أجلها الاقتراض سوى النزر اليسير ••• والتحقيق جار لمعرفة الاسباب •• وقد يكشف التحقيق عن أن ثمة تواطؤاً مع تجار السوق السوداء هو الذي قضى بتعطيل هذه المئات من الملايين عن القيام بمهمتها •• »•

هذا الخبر ذكرني بمثل له نشرته صحف ذلك البلد من قبل ، وخلاصته أن عشرات البعثات الدراسية التي وجهت الى الغرب ، قد خصص خمس بالمئة منها للعلوم العملية كالطب والهندسة والتكنولوجية ، ووزعت الأخريات كلها على العلوم النظرية والفنية وما يسمى بالعلوم الانسانية !••

وتقول هذه الصحف أن عشرات الآلاف من الطالبات لم تتسع لهن جامعات القطر ، فأحيل معظمهن الى معاهد لتخريج السكرتيرات !• وماندري كم من هؤلاء الفتيات قد ألحقن بمعاهد الرقص والفنون الترفيهية ••• ولا غرو فهناك معهد لرقص الباليه يحمل المتخرج فيه شهادة البكالوريوس •• ومعاهد للفنون

والموسيقا على هذا المستوى أيضا •• وقبل ذلك احتفت بعض الصحف العربية بفتى يماني حصل على دكتوراه في الغناء الصنعاني ••• الذي لم يعد لليمن من حاجة الى غيره لاستكمال بنيانها المتهدم !••

ما أحسب مفكرا يتردد في الحكم بأن تصرفا كهذا يتوقف عليه مصير الأمة لايمكن أن يحدث اعتباطا ودون تخطيط يقصد به الى استبقائها في هوة التخلف ••

ومع ذلك نتساءل : لماذا نظل حيث نحن نراوح مكاننا ، ولماذا تظل لغتنا مقصرة عن اللحاق بعالم الابداعات الذي لم ندخل أبوابه بعد ؟••

فمن الذي حال حتى اليوم بيننا وبين التقدم الصحيح ؟!

ومن الذي منعنا حتى الساعة من إقامة المصانع الكبرى ، ونحن الذين لانعلم سبيلا لتشغيل فوائض أموالنا إلا عن طريق أعدائنا ؟•• ولانعرف طريقا للانتفاع من خاماتنا ، المستوعبة لكل حاجات الصناعات ، الا تسليمها بأرخص الاثمان لأولئك الذين يبيعوننا إياها ، مع أسمائها الاعجمية الجديدة بأرفع الاثمان ؟••

من وراء هذا التصرف الاحمق ؟••

من وراء هذا التخطيط المدمر ؟!•

فوضى لا بد من تداركها :

كنت مكبا على كتابة هذا البحث عندما سمعت من الاذاعات أنباء الخطوات الجديدة التي شرعت بها هذه المملكة الغالية في طريق التصنيع ، الذي قررت أن تقيمه على أرقى الاصول التكنولوجية •• وقد عودتنا هذه المملكة آن للكلمة عندها مضمونها العملي المحتم •• ومعنى هذا أننا بازاء مرحلة تحولية هامة ، لامفر من أن تؤثر على الكثير من جوانب الحياة في هذا المجتمع ••• وهي إما أن تنطلق على عفويتها فلا تستقيم على الجادة ، فتجر الخير مع الشر ، وتعمل

في الهدم والبناء على غير هدى . وإما أن يرسم لها المخطط السليم ، فتكون مسيرتها على هديه ، بحيث تكون خيرا لا شر معه إن شاء الله .. ولكن .. من الذي سيضع للغد القريب هذا التخطيط النجيب ؟..

إن المرحلة التاريخية القادمة ستحمل في طواياها مصانع ومعامل وفيوضا من الانتاج الراقي ... فمن الذي سيضع لهذه المصانع نظمها الاجتماعية ؟.. ومن الذي سيمد منتجاتها بالمسميات العربية المحكمة ؟!.

ليسمح لي قراء هذا البحث أن أذكرهم بظاهرة يمرون بها كل يوم ، بل لعلهم منفعلون بها كما ينفعل بها جمهور الشعب ، دون تمييز بين جاهل وعالم .

السيارة التي نستخدمها في مختلف الحاجات وعلى مختلف الاحجام والاشكال كان معقولا أن تستعمل أسماؤها النوعية المميزة بين صنف وصنف، وكذلك من حقها أن نستعمل مسميات أجزائها كما وردت من مصانعها ، لأننا مضطرون أبداً الى استيراد هذه الاجزاء ، فلا سبيل الى طلبها من مصانعها بأسماء معربة كحجرة التبخير وشمعة الاشتعال ، والكابح ، وأنبوب التصريف والمكبس ومحور المحرك ... وما الى ذلك من عشرات الأسماء ، التي لايفهمها أحد غيرنا ... فطبيعي إذاً أن تظل أسماؤها الأعجمية على ألسنتنا وفي حوانيتنا، ريثما تقوم مصانعنا بإنتاجنا ، فنصنع لها الاسم الملائم ، ونصدرها للخارج مميزة به ...

ولكن هناك أشياء لايحسن بنا أن نستبقيها على أصولها الاعجمية ، لأنها من حاجات الجمهور كله لا المستوردين وحدهم ، ومع ذلك فنحن نقول ونسمع في مختلف المناسبات أسماء الكفر والبنشر والوايت والتكسي والباص والاتوبيس وما إلى ذلك من مسميات لسنا ملزمين باجترارها مع وجود أجمل منها ، وأدلّ على وظيفتها في الكلام العربي ، كالعجلات واصلاح العجلات ، والتنفيس والصهريج والشاحنة الكبيرة والشاحنة الصغيرة ، وسيارة الاجرة والحافلة ونصف الحافلة ... وهلم جرا ..

حتى في نطاق الحاجات اليومية والمحلية التي لا علاقة لها بالاستيراد يقلد بعضنا بعضا في تسميتها ، كالبتر والماصة والكنبة والطبلة وعشرات المسميات ، وأجمل منها وأدل وأخف : العمود والركيزة والمنضدة والأريكة والبيان ... ولكن من المسؤول عن وقف هذه الفوضى .. وما السبيل الى التنظيم الذي يضع الاستعمالات الصحيحة تحت تصرف الجمهور ؟...

الحكمة ضالّتنا :

أما بعثاتنا الموجهة الى الدراسات الادبية والفنية وما يسمونه بالعلوم الانسانية ... فهي هي التي تتولى تدمير حصوننا من الداخل إلا من رحم الله ... إن كل ماتعلمه هؤلاء ويتعلمونه لايعدو نطاق التقديس لكل مانبت في دنيا الغرب من نظريات يكذب بعضها بعضا ، ويسخر بعضها من بعض .. وهاهي ذي حصائد علومها نجنيها كفراً بقيمنا ، وطعنا في ديننا ، وشتماً لأسلافنا وتنكرا لرسالتنا ، واستهزاء بلغتنا وأدبنا .

ولاعجب فإن القيم الروحية ، والمثل العليا التي تصور علائق الانسان بالكون والحياة انما هي من الخواص التي لاتجتلب من الخارج ، إلا إذا أريد اقتلاع الأمة من جذورها وسلخها من مقوماتها ... بخلاف العلوم الرياضية التي لا سلطان لها على السلوك الروحي ، فهي حق مشاع لكل أمة ولكل فرد ، يأخذ منها المعوز ، ويعطي منها المليء .. فتظل أبدا بين الاخذ والعطاء دون غضاضة ولامنّ .. إنها حصيلة الجهد البشري كله،فالانتفاع بها حق الجنس كله.

أليس من الطرائف المضحكة المبكية أن ترى حامل دكتوراه في الخدمة الاجتماعية من أميركه مثلا ، لايكاد يعرف شيئا عن هذا المرفق الهام في أنظمة الاسلام ، وهو الذي يملأ حيزا كبيرا من فقه القرآن والسنة تحت عنوان الحسبة والحبوس الخيرية ونحوهما .. ولو هو قد درس بيئته المحلية على الطبيعة لواجهته بقايا الآثار الكثيرة لألوان الخدمات الاجتماعية ، والضمان

الاجتماعي ، والتكافل الاجتماعي ، مما لم يصل الى أقله تفكير كبار المفكرين الغربيين حتى اليوم !..

أوليس من الطرائف الغربية أيضا أن تلقى امرأً يحمل أعلى المؤهلات هناك وهنالك في التربية وعلم النفس ويكاد يعرف كل شيء عن ديوي وهربرت وموتتاني .. ثم لم يسمع شيئا عن ابن مسكويه والغزالي وابن جماعة وابن خلدون والقابسي في هذا المضمار !..

أفكار مستوردة :

وتجيء في أعقاب ذلك ثالثة الاثافي ، ممثلة في المناهج الدراسية على اختلاف مراحلها ، إذ لاتزيد على أن تشحن الاجيال بمركبات النقص ، بما تترجمه من نظريات ، كثيرا ما تكون قد هجرت في الغرب والشرق على السواء ، ولكنها فرضت على أبنائنا كأنها تنزيل من التنزيل ... ومن هنا تزدوج المحنة ، إذ على طالبنا أن يتجرع أخطاء الامم دون رحمة ، ثم عليه في الوقت نفسه أن يظل مؤمنا بأنه من أمة كتب عليها أن تتجرد من كل أثر للاستقلال الفكري...
وسأكتفي بمثل لعله يساعد على إيضاح فاعلية المناهج في شخصية الطالب العربي .

لما استحكمت الدعاية الى الاشتراكية كان لابد من انعكاس آثارها على مناهج الدراسة .. فبعد أن كانت كلاما يقال في الاندية الحزبية ، وفي نطاق بعض الصحف المعزولة ، إذا هي قوانين تفرض ويساق الناس للتصفيق لها ولدعاتها ، على أنهم رسل الانقاذ ، وعباقرة الفكر ... وماهي إلا خطوة إثر خطوة حتى كان لها الحصص الطوال في مواد الدراسة والتوجيه ... ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل سرعان ماولدت نظريات تؤكد أن الاشتراكية هي نظام الاسلام الأصيل مستوحى من القرآن والسنة . ثم جاءت المرحلة الآخرة لتقول : ان الاشتراكية وليدة القرمطية ، وأن القرمطية زبدة النظام الاسلامي في المال

والحكم •• ودون حيـــاء أو تحفظ أخذت هـــذه المفتريات سبيلها الى مناهج التعليم حتى في أعرق المعاهد الاسلامية ، وفي صحف تصدر عن أكبر المؤسسات الرسمية التي تحمل شعار الاسلام !••

وبقليل من التأمل يدرك المفكر مدى التحول النفسي الذي ستثمره هذه التطورات الخطيرة ••• لقد بدأت تلـــك الافكار كمحاولة للتعريف بخصائص الاشتراكية ، ولكنها انتهت الى أن تصبح عملية تغيير في مفهوم الإسلام نفسه حتى بتنا نسمع أصواتا ذات وزن أدبي وديني تعلن أن الاسلام هو الاشتراكية والاشتراكية هي الاسلام •

وهكذا الامر بالنسبة إلى سائر النظريات الواغلة علينا مـــن هنا وهناك وهنالك ••• وقـــد أحالت مناهجنا معرضا للتناقض ، الذي من حقـــه أن يمزق نفس الطالب بين مختلف الاتجاهات ••

ولامندوحة هنا عن التذكير بأننا لانريد بكلامنا هذا أن ندعو إلى وضع الحجر على الفكر الإسلامي ، بحيث نقطعه عن خبرات الأمم في هذا أو ذاك من التخصصات ، بل اننا لندعو الى الانتفاع بكل ذلك عملا بالحكمة القائلة : خذوا الحكمة من أي وعاء خرجت ، لأن (الكلمة الحكمة ضالة المؤمن) أنّى وجدها فهو أولى بها • ولكننا نريد أن تكون دراساتنا لتجارب الآخرين في مثل هذه القضايا محاولة لإغناء روافدها الاصيلة في تراثنـــا العريق • وبذلك نصـــون شخصيتنا المتميزة من الذوبان ، الذي يسوقنا إليه بكل وسائل الإغراء ، أولئك الخارجون على قيمنا من المبهورين بأضواء الأعداء •• وبذلك أيضا نعيد للغتنا المقدسة إشراقها وعزها ، إذ نستغني بمصطلحاتها الجميلة المبينة عن رموزاللغات الاخرى التي نلوكها دون أن نعرف الأصول البعيدة من مدلولاتها اللغوية ، التي كثيرا ما تعود الى لغة بائدة يريد أصحاب هذه النظريات الغربية استبقاءها في دائرة الحياة ••

السبيل الى التصحيح :

لقد حاولت في ما أسلفت من حديث أن أوجز واقع العربية وما يلحق بها من أخطار ، وما تتعرض له من مضار ، لابد لها إذا استمرت في سبيلها من أن تترك جراحا عميقة في قلبها قد يتعذر شفاؤها منها فيما بعد .

وقد بقي عليّ أن أدلي بما أحسبه وسائل صالحة لخدمة هذه اللغة الحبيبة ، وإعطائها ماتستحقه من الرعاية لغة شرفها الله بكلامه ، وأنزل بها خاتم رسالاته ، وجمع بها أشتات العرب في وحدة خالدة ، بعد أن كانت مزقا متباينة، فوطأ لها بكل أولئك طريق القيادة العالمية ...

وطبيعي أن يكون في مقدمة هذه الوسائل التنويه بدور الجامعات العربية والاسلامية في هذه السبيل ، لأنها مراكز التوجيه الكبرى للعقل والضمير واللسان ، فلديها من الامكانات مايتيح لها أن تصنع الاعاجيب ..

وأول ماتتطلع اليه من جهود هذه الجامعات هو اتخاذ العربية لغةالتدريس في سائر موادها وكلياتها خارج نطاق اللغات الاجنبية . وهو الأمر الذي عليه أكدت مقررات المؤتمرات العلمية العربية في مختلف المناسبات ، وسبق الى تنفيذه بعض الجامعات العربية بنجاح كبير . على أن بعض الجامعات الاخرى لاتزال تتردد في قبوله تحت ضغط المستغربين ، الذين خيل لهم جهلهم بلغة العرب أنها عاجزة عن مجاراة التطورات المستمرة .. في حين أثبتت جامعة دمشق التي سبقت الى تعريب هذه المادة منذ عهد الانتداب الفرنسي ، ان العربية أوسع صدرا مما يظنون إذ حققت شأوا بعيدا من النجاح يصلح أن يتخذ أسوة في سائر ديار العرب ..

وعلى قدر إيمان هذه الجامعات بحق العربية عليها سيكون اهتمامها باستعمالها في قاعات الدرس ، بحيث يكون التزام الفصحى قانونا لايتساهل بالخروج عليه .. فلا يسمح لمدرس أن يعمد الى لغته السوقية بأي حال ، حفاظا على كرامة الفصحى ، وتدريبا لألسنة الطلاب على آلفها ، وانقاذا لهم من

التشويش الذي يحدثه اختلاف لهجات المدرسين ولغاتهم المحلية ، ولا سيما اذا كانوا وافدين من أقطار عربية متعددة ..

وعلى الجامعات العربية أن توجه مثل هذه العناية الى لغة التخاطب بين الطلاب أنفسهم ، سواء في قاعة الدرس أو خارجها .. فلا تفتأ تذكرهم بواجبهم نحو لغتهم . ولا أجدى عليهم في هذا الصدد من الندوات التي توفر لهم جـو التعبير عن أفكارهم بالأساليب العربية السليمة .. ولا يبعـد عن ذلك إعلان الجامعة بين الحين والحين عن بعض الكتب النافعة ذات الصلة بموضوع اللغة والأدب والاخلاق ، ترغيبا لهم في مطالعتها ، والكتابة عنها وتلخيصها ، ومناقشة أفكارها أثناء بعض الندوات ..

دور الجامعات في خدمة البيان العربي :

وهنا أراني مضطرا الى وقفة قصيرة للتذكير بالواجب الكبير نحو الكتاب الذي رفع الله به ذكر العرب وفتح لهم أوسع ابواب التاريخ.

إن الله يصف معجزته الخالدة هذه بأنها المتفوقة أبدا على كل فكر وكل طريقة وكل فلسفة .. ذلك بأن (هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم) فلا أدب إلا وهو فوقه ، ولا علم الا وهو سابقه .. لأنه الأقوم والاهدى ...

ولقد عرف الصدر الاول من هذه الأمة عظمة القرآن ، فاتخذوه منهاج حياة يقوّمون به أخلاقهم ، ويؤدبون أبناءهم ، وينظمون دولتهم ، ويوجهون طاقاتهم .. فأعطاهم من مردود المجد والعزة والقيادة العالمية ، خلال أقل من قرن ، ما لم تبلغه أمة قط سابقاً ولا لاحقا خلال القرون... وقد استطاعت تعاليم هذا الكتاب المعجز أن تفتت الحواجز مابين الشعوب ، حتى ردتهم الى الأخوة التي نسوها في غمار الجهـل والمظالم ... فاذا هم أمـة واحدة ربها واحد وقائدها واحد ونظامها واحد ... ولغتها واحدة ، هي لغة هذا الكتاب العظيم ، آثرتها على ألسنتها الموروثة ، لأنها لغة نبيها ووسيلتها إلى فهم شريعته الحكيمة ...وهكذا

تسابق أولو المواهب من أقصى الصين الى غرب أوربة لإتقانها والانطباع ببيانها، فكانت ملايين المؤلفات التي وضعت بأقلام عربية لم تمت من قبل الى العرب بأدنى سبب .. ولو استمرت المسيرة في سبيلها السليم لالتقت القارات كلها على هذه الوحدة العجيبة . ولكن كواهل العرب تعبت من أعباء المجد ، فانصرفوا عن هدفهم الاعلى ، ليشاركوا الغافلين في ملاهيهم المتبرِّة .. ثم لم يلبثوا أن نسوا أنفسهم ورسالتهم ، فإذا هم محطمو القوى ، مسلوبو الاوطان، قد اصطلح عليهم كل شيء ، وسلط عليهم حتى من لايستطيع دفعا عن نفسه..

ونفتح أعيننا اليوم لنرى العالم الاسلامي ، وقد شرع يتمطى ، ليسترد بعض يقظته التي طال بها عهده .. ولكنه يجد نفسه أثناء ذلك محاطا بأكداس المطبوعات ، ومأخوذ السمع بآلاف الصيحات ، وكلها يدعوه الى غير سبيل القرآن .

انها أشبه شيء بالطريق الذي حدث به ابن مسعود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تحذيرا للمؤمنين من مغويات المفسدين ، فذكر أنه (ص) خط خطاً ثم قال : هذا سبيل الله مستقيما ، وخط عن يمينه وشماله ، ثم قال : هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو اليه .. ثم قرأ (وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله)[1].

فالمسلمون إذاً على مفترق طرق ، وخلالها طريق واحد هو المؤدي إلى النجاة والقوة والعزة ، طريق القرآن الذي ـ كما ورد في الأثر ـ هو المخرج من الفتنة (فيه نبأ ماقبلكم ، وخبر مابعدكم ، وحكم مابينكم .. من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ... من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا اليه هدى إلى صراط مستقيم ..)[2] .

(١) رواه احمد عن ابن مسعود (رضي)
(٢) انظر جمع الفوائد ج٢ ص ١٦٢ رقم ٦٧٠٤

وقد أسلفت فيما تقدم أن اللغة لاتقتصر على التخاطب والتعبير ، وانما هي عملية تصور ومنهج تفكير •• ومادام القرآن هو قمة البيان العربي وحارسه على امتداد الزمن ، فهو إذاً مكون التصور ، ومنظم الفكر ، ومهذب التعبير •• ومن هنا كانت هيمنته على أدب العرب بعد الإسلام ، بحيث ترك طابعه على اتتاجهم كله الى أحقاب مديدة •• وإذا اتفق أولو العلم على هذه الحقيقة لم يختلفوا على أن للجامعات العربية دورها الهام في ربط الجيل العربي بعروة هذا الكتاب المرهف للطاقات ، الحافظ لذاتية الامة ، الجامع بين ماضيها وحاضرها ومستقبلها • ولتحقيق هذا الواجب العظيم ، لابد من توافر قدر مشترك من الاهتمام به في كل كلية مهما يكن تخصصها ، وذلك بإعطائه عددا من الحصص الأسبوعية لدراسة نصوص منه دراسة بيانية ، تساعد الطالب على تذوق بلاغته بعد التبصير بمعانيها • وبذلك تسد الفجوة القائمة بين الدراسات العلمية والنظرية ، حتى يتخرج كل طالب مزودا بقدر لاغنى عنه من الذوق البياني •

وعندما نتذكر أن خريجي الجامعات هم أصحاب المناصب الادارية والقيادات الفكرية والاذاعية في كل بلد أدركنا أي خدمة تقدمها الجامعات لصالح العربية ، عن طريق هؤلاء الذين أكسبتهم من الخبرة والدراية ما يجعلهم قدوة حسنة تشيع حب العربية في مختلف الاوساط •

العالم الاسلامي يتلهف إلى العربية :

وحق القرآن ولغته ليس مقصورا على بلاد العرب وحدها ، وان تكن الأحق برعايته من بين سائر البلاد ، إنما القرآن مرجع أمة تنتشر في قارات العالم، ويضطرب في مئات ملايينها الإحصاء ، وهي تتطلع الى كل حرف من لغة القرآن متلهفة الى نطقه وفهمه ، وقد بلونا الكثيرين من أبناء هذه الشعوب الغريبة عن العربية ، فاذا هم أشد حماسة لها من أبنائها ، بل لا أغالي اذا قلت أنهم أكثر إقبالا على دراستها وأوفر إتقانا لقواعدها من العرب أنفسهم •• وما أسعدهم

بإخوتهم بل أساتيذهم أبناء الضاد لو بذلوا لهم ما يستحقونه من العون لدراسة هذا اللسان الحبيب ..

ولعمر الله إنه لعجب من العجب أن نرى أمم الغرب ترصـد في ميزانياتها القناطير المقنطرة من الاموال ، لنشر ألسنتها بين شعوب الاسلام ، وتعقد الدورات السنوية لتدريب المتخصصين لتدريسها في كل مكان ، وتبذل الجهود الجبارة لابتداع الوسائل الكفيلة بتيسيرها بأحدث وسائل الإعلام .. على حين تقف الحكومات العربية مكتوفة اليدين أمام حاجة هؤلاء الاخوة الى لغتها ، وهم حلفاؤها الطبيعيون في كل مأزق عالمي .. وهي التي ينفق بعضها من الكنوز على أتفه الاشياء ما انّ مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة .. ولو أن كل حكومة عربية رصدت خمسة في المئة من ميزانيتها على نشر العربية في أوساط الشعوب الاسلامية لعدت مقصرة ، لما يتوقف على هذا المرفق من مصالح سياسية تتجاوز حدود التخمين ..

عبرة من باكستان :

دعوني أذكركم أيها الأخوة الأفاضل بمأساة باكستان القريبة .. لما لها من صلة بموضوع اللغة .

لقد كانت هذه الدولة هبة الاسلام ، كما صرح أول رئيس لوزرائها لياقات علي خان .. ولكنها لم تستمر سوى القليل من السنين حتى انشقت الى دولتين لكل منهما لغتها ، ولاتزال المخاطر تهدد الاصلي من شقيها بضروب من الانقسام الذي يمهد له تعدد اللغات الى جانب الأسباب الاجتماعية والسياسية الاخرى .. ولقد لاحظ أحد زعماء باكستان منذ أيامها الاولى مطالع الفتنة التي تتمخض بها الاحداث بسبب اختلاف الألسنة بين سكانها .. فراح يحذر أمته من مخاطر المستقبل اذا هي استمرت في تجاهلها لمشاكل اللغات المتنازعة في باكستان .. وكان مما قاله يومئذ : (إن البنغاليين لن يرضوا سيادة الأوردية ، ولا السندية

براضية عن سيادتها ... ولكن هؤلاء جميعا مستعدون للتنازل عن كل حقوقهم في السيادة للغة القرآن ، لأنها لغة دينهم ولسان نبيهم ، ولن يكلفنا تمكين العربية من ألسنة الأمة الباكستانية أكثر من ربع قرن اذا نحن أسرعنا الى وضع التخطيط المساعد لتحقيق هذه الغاية.) ولكن صيحة الآغا خان الجد" هذه لم تبلغ آذان المسؤولين يومذاك ، لانشغالهم عنها بالتنافس على السلطان .. حتى انتهى الامر الى مانشاهده اليوم من بنغلادش وباكستان .. وما لايعلمه الا الله في قابل الزمان .. ولئن فاتت العرب فرصة الامس ، فما زالت أمامهم فرص في باكستان وبنغلادش والأفغان وفارس وأندونيسية وتايلاند وماليزية والعشرات من مناطق أفريقية المسلمة . لقد وضع الله في أيديهم مفاتيح الدنيا بما يملكونه من الذهب الاسود ، ولو هم أجمعوا أمرهم على نشر دينهم ولغتهم في جماهير المسلمين على الاقل لما وجدوا مانعا حتى من الحكام غير المسلمين من يحول دون ارادتهم، بل لألفوا أبواب الارض مفتوحة لهم على مصاريعها ، ولو لم يكن ذلك بدافع الحب للاسلام ولغة الاسلام ، لكان بدافع الحفاظ على مصالحهم في نفطهم وأموالهم .. ولعل كثيرين غيري من الزملاء الافاضل قد سمع ماسمعت قبل قليل من تشمير باكستان لنشر العربية ، بل لمضاعفة العناية بها في مدارسها .. وفي الجامعة الاسلامية اليوم بعثة رسمية من أساتذة المدارس الباكستانية أوفدت للتدريب عليها والتمرس بنطقها وتعليمها .. فما الذي يمنع العرب أن يقابلوا باكستان وغيرها في وسط الطريق ، فيرسلوا اليها بعثاتهم لتعليم عربيتهم على مستوى أكثر جدوى وأعم نفعا !..

ان الحكومات العربية مسؤولة عن هذا الواجب ولكن للجامعة العربية أيضا مسؤولياتها نحوه ، واذا كان هذا حقا بالنسبة الى سائر الجامعات العربية في كل بلد عربي ، فهو أحق بالنسبة الى جامعات المملكة الغالية ، التي شاء الله أن يأتمنها على مقدسات الاسلام ... الذي لايمكن فصله عن لغة القرآن .. ولعل من بواعث التفكير الجدي في هذا الجانب من البحث أن أعرض

لأعين الزملاء خلاصة رسالة تسلمتها قبل أيام •• إنها من أستاذ يتولى تدريس العلوم العربية في معهد حكومي بساهي وال الباكستانية • ويريد الاستزادة من هذه المادة لذلك يريد مني أن أتخذه تلميذا بالمراسلة لتحقيق متمناه الذي يعتبره منـــة وفضلا •• أظن من حق هذه الكلمات أن تحرك عواطفنا نحو هؤلاء الاخوة فنوفد اليهم من يروي ظمأهم الى لغة القــرآن ، مما لايمكن تأمينـــه عن طريق المراسلة ، الا عند متفرغ لايشغله شاغل عن هذا الواجب ، أو عن طريق برنامج خاص لتعليم هذه اللغة على الهواء ، كما تفعل اذاعة لندن في برنامجها المعروف لتعليم الانجليزية ، وهو أقل ما يجــب ابتداء على وزارات المعــارف في كل دول العــرب •

أدبنا •• ماهو ؟ وكيف يجب أن يكون ؟

وكما أن الفــرد لا يتصور له وجود خارج نطاق الجماعة ، كذلك اللغة ، بدءاً من الكلمة المفردة الى النصوص المختلفة ، لا وجود لها منفصلة عن الصياغة الأدبية ، لأننا بالأدب الاصيل نتعلم ونعلم طريقة البناء الفني للكلمة ، وبالادب نعيِّن مدلولاتها المختلفة حسب موقعها في ثنايا التعبير•

وعلى هذا فلا مندوحة من إلمامة قصيرة بواقع الادب العربي ، لنرى مايمثله من أصالة أو غرابة ، والى أي مدى يسهم في خدمة هذه اللغة الكريمة ••

وسأحاول أولا تعيين مدلول موجز لكلمة الأدب ، بغض النظر عن التعريفات المختلفة المتموجة ، ففي يقيني أنه (البيان بالكلمة المناسبة عن مضمون النفس) والنفس والعقل والشعور وسائر مصادر النشاط العاطفي عناصر لا يمكن عزلها عن موحيات البيئة ، على اختلاف مركباتها الاجتماعية والثقافية والتاريخيـــة والطبيعية • يقول ألكسيس كاريل في كتابه النفيس (الانسان ذلك المجهول) : «اننا عاجزون عن حماية أنفسنا من تأثير المجتمع ، لأن حدود النفس مفتوحة لهجوم المحيط العقلي والروحي •• » فالاديب اذاً من حيث كونه فردا في جماعة

لا يستطيع تحرير أفكاره ومشاعره من سلطان البيئة ، ولا مندوحة لها من أن تفرض عليه آثارها ولكنه من حيث كونه انسانا مزودا بقابلية التطلع الى الابعد، والتفكير فيما وراء حدود الواقع ، يتجاوز بهذا الامتياز حدود الترديد لما يتلقاه، إذ يأبى بطبعه أن يكون صدى محضا لهتافات البيئة .. ومن هنا كان التفاوت بين زمر الادباء ، إذ كلهم منفعل بمؤثرات المجتمع ، إلا أنه في الوقت نفسه متطلع الى مايتصوره الاصلح والاجمل لمجتمعه ، انسياقا مع غريزة التجديد ، التي هي الحافز الغريزي لتطوير الحضارة البشرية .

والآن بوسعنا أن نرجع البصر في منطلقات الحركات الادبية على امتداد الاقطار التي تغتذي بالكلمة العربية ، من شواطىء الاطلسي الى مشارف دجلة وأقاصي الخليـــج ..

أول مايتراءى لنا هنا هو تباين المستويات والنزعات والروافد ، التي من شأنها أن تضع هذه الاتجاهات .. وأكثر هذه المواطن اتصالا بحضارة العالم الصناعي أشدها تحركا في نطاق الفكر والانتاج الأدبي .. وأوفرها تفاعلا مع التيارات الغازية التي تكاد تغطي على أصالة الشخصية العربية ، حتى في نطاق التعبير الذي بات مثقلا بالمصطلحات المقحمة والصور البيانية الغريبة ، والاساليب المهـــزوزة ...

وكان للاستعمار الغربي آثاره العميقة في صبغ هذا الانتاج ، إذ تركت لغة كل مستعمر طابعها على أدب الجيل الناشىء في ظلها ...

ولقد بدأت النهضة الادبية في القرن الماضي أصيلة الطابع الى حد بعيد ، إذ كانت ثورة إحياء للغة والأساليب والتراث ، ثم أعقبت ذلك ثورة التغريب في مناهج التعليم ، فكانت الطامة التي خربت مراكز الثقل في الشخصية الاسلامية إذ أبعدت التعليم كليا عن سلطان القرآن ، الذي كان المنطلق الاول والاكبر لكل حركة ثقافية في العالم الاسلامي غير منازع ، فبات معزول الاثر عن البصر والفكر،

لايعدو أن يكون كأقل مادة دراسية حظاً من العناية والتأثير خارج هذه المملكة. حتى أن بعض الاقطار العربية قد ألغت قيمته التأثيرية نهائيا ، بجعلها مادة (التربية الدينية) غير ذات أثر في معادلات القبول للدراسة الجامعية ..

بين الاصالة والتزوير ...

وطبيعي أن الاجيال الناشئة في هذا المناخ غير القرآني لن تجد في مكتسباتها الفكرية ما يحصنها بوجه التيارات الدخيلة ، إذ تصبح على آتم الاستعداد للاندماج في أي اتجاه مؤيد بالمغريات .. وفي هذا الجد المرجوج برزت (الطبقة) الجديدة التي سحرها بريق الفكر الدخيل ، على اختلاف مذاهبه ، فراحت تتبع آثاره وتنشر أخباره ، وتزين للناشئين أوزاره ... حتى لم يستنكف بعض دعاة هذا الاستغراب أن يدعو الى تحطيم القيم الاسلامية ، فيجرىء السفهاء على التنكر لحقائق القرآن ، والاقبال على مسالك الغرب ، دون تفريق بين النافع منها والضار ، لأن الحضارة بزعمهم كل لا يتجزأ ، فلا مندوحة عن أخذه بعجره وبجره ...

وانفرجت زاوية الانحراف تبعا لاتساع نطاق التواصل الفكري العالمي، سواء عن طريق البعثات ، التي أتم معظمها حلقة التطويق على القيم الاسلامية، باندماجها العملي في الحضارة التي دمرت سعادة الانسان واطمئنانه ـ بشهادة أساطينها ـ أو عن طريق المترجمات والمنشورات التي أغرقت العالم العربي بسيول الفكر الدخيل ، ثم عن طريق الوسائل الإعلامية المتطورة والمسموعة ، التي اقتحمت البيت الإسلامي دون استئذان ، فعودته ما لم يعتد من المشاهد وقربت إلى قلبه كل ما من شأنه أن يسلبه بقية امتيازه الروحي .

وهكذا كان على الأدب الحديث أن يمثل مجموع هذه التيارات التي تخص المجتمع العربي والإسلامي ، فيكون له ألوانه ، ولكل لون دعاته ، وكلهم مشدود الى هذا أو ذاك من الجواذب الغريبة عن شخصيتنا الاصيلة .

على أن من الغفلة أو الجهل أن ننسى تلك الفئة العملاقة من حملة القلم الإسلامي الذين حفظوا للادب العربي الأصيل جانبه المشرق •• وقد تتابعوا على خدمة الكلمة المؤمنة جيلا يقفو جيلا ، وما زالوا ، ولله الحمد ، يزودون القراء بالغذاء الدسم المستمد من مائدة القرآن ، حتى لكأن التاريخ يعيد اليوم ماشهده في عصور العباسيين من تدفق الفكر الدخيل ، الذي استهوى كثيرين فانساقوا في تجاربه يتفلسفون ويتصوفون ويتمنطقون ويتزندقون ، ويشغلون العقل المسلم بالمناقضات من الحقائق والاباطيل ، فكان أن نهض لغربلة هذه الأخلاط رجال أضاء الله قلوبهم بنور القرآن فثبتوا في وجه الاعاصير ، حتى أعلى بهم كلمته وأقام على المضلِلين والمضلَّلين حجته •••

وها هي ذي المعركة ما تفتأ على أشدها بين الأصالة والتزوير •• وإنها لمعركة متعددة الجبهات ، متنافسة الأسلحة ، يخوضها الفكر المسلم بالبيان القرآني المتألق ، يخترق بأشعته الهادية ضباب التهريج ، فيغنم كل يوم مساحة جديدة ويكسب في كل مناسبة مؤمنين جددا يستردون في أضوائه حقيقتهم الضائعة •••

مبادىء لا بد منها ••

وطبيعي أن الأدب الذي تجب نصرته هو هذا الذي ينبع من معين الإسلام إيمانا بالحق ، وتصورا للجمال ، ودعوة إلى الخير ، ولكن نصرة هذا الضرب من الأدب لا يمكن أن تؤتي أكلها إلا في جو من التوعية العميقة في أوساط القراء • وهي مهمة ضخمة تقتضي تعبئة عامة في مجال الإعلام والتعليم جميعا ، فينحى عن دفة التوجيه الإعلامي كل ذي فكر لقيط وثقافة مدخولة لا تصلح للانصهار في قيمنا الأصيلة •• وبذلك تتوافر على هذا المرفق الخطير الأيدي النظيفة التي ستعيد للكلمة المسلمة حق المرور إلى القلوب والأسماع بكل الوسائل الجمالية•• ثم تأتي الخطوة التالية من التوعية في ميدان التعليم ، وهذه تنحصر حتما في تحرير إرادتنا من التبعية لموحيات الفكر الغربي ، الذي عبث بنا طويلا حتى كاد

يسلخنا نهائيا من خصائصنا الذاتية ، ويجعل من شبابنا المتعلم مجموعة من الإمعات لا تسمع الا بأذنه ، ولا تبصر إلا من وراء نظاراته .

إن التوعية التي نريدها في ميدان التعليم تتطلب جرأة فائقة تخلص مناهجنا من التقليد ، الذي يكاد يحصر مهمة المدرسة والجامعة في حدود مكافحة الأمية الفطرية ، لينقل أبناءنا الى أمية أخرى هي أمية الجهل بدينهم وتاريخهم وأنفسهم .. وإنه لضرب من الجهل عجيب يشحن الرؤوس بأكداس المعلومات الممزقة ، دون أن يمكن لقدراتنا الذاتية من العمل الذي يجعل للحياة أي قيمة . لأن غرضه المخطط من وراء هو إعداد جيل يصلح للاستهلاك دون الإنتاج ...

وحين تتحقق أمنية التوعية هذه فستكون لدينا المناهج التي تساعد الإنسان العربي بل المسلم ، على أن (يكون الروح التي تكافح لبلوغ مثل أدبي عال ، وتبحث عن النور في الظلمات ، وتسير قدما في الطريق الذي يكشف لها الأساس غير المنظور لهذا العالم) كما يقول مؤلف (الإنسان ذلك المجهول) .

أجل .. إن مناهج من هذا المستوى ستفسح الطريق لإغناء الفكر العربي بالمعاني الربانية ، التي من اختصاصها دائما وأبدا تكوين الصفوة البشرية المزودة بكل الفضائل ، التي تجعل منها أمة لا تعرف الفصل بين حدود الدين والدنيا ، فهي تنظر إلى كل علم وفن وعمل بنور الله ، فتملك بذلك الفكر الموسوعي الذي يعرف حلول الإسلام لكل جوانب الأزمات العالمية ، ولا يفوته الإحاطة بكل ما انتهت اليه التجارب البشرية من خطأ وصواب ...

وفي كنف هذا الضرب من التغيير الجذري سينطلق من جديد مارد الأدب العربي الاصيل أكثر قوة ومضاء ، ليستأنف جهاده في توجيه الحياة إلى الأعلى وليمد الفكر العالمي بما عهد عنده من عطاء لا تزال آثاره دالة على نفسها ، في كل خير عرفته حضارة الغرب والشرق على السواء ..

إن واقع العرب اليوم ليجعل من هذه الأفكار صنفا من الأحلام العصية على

التحقيق ... ولكنها على الرغم من ذلك حقيقة لا بد من الإيمان بها والكدح لإخراجها الى حيز الوجود ، اذا نحن صممنا على استعادة مكانتنا من قيادة الفكر البشري ، وتذكرنا أننا الأمة الوحيدة التي تملك برسالتها الإلهية مقاليد الإنقاذ لسفينة العالم الضالة ... وفي يقيني أننا ، في الطريق إلى هذه الحقيقة ، لا بد لنا من التركيز على المبادىء التالية :

١) تعديل مناهجنا الدراسية بردها إلى منطلقات القرآن والصحيح من السيرة النبوية ، حتى يكونا هما المهيمنين على شُعَب المنهج جميعا ، وقد بدأ ذلك يأخذ طريقه الى مخططات التعليم في هذه المملكة المؤمنة ولله الحمد ، وبقي إعداد المعلم المنسجم مع هذه المخططات ، سواء كان وطنيا أو مستعارا ..

٢) مضاعفة الاهتمام بالبيان العربي ، وتلقيح العقول بخصائصه الجمالية التي لا يعجزها التعبير عن أية خلجة أو خطرة أو كشف ...

٣) الإقلال من الابتعاث الى الغرب حتى أدنى الحدود الضرورية ، مع إلزام المبتعثين ممارسة الحياة الإسلامية تحت إشراف الأكفاء ، على أن يسترد كل من يثبت شذوذه عن قيم الإسلام ، حماية لصحة الامة الروحية من التلوث بأوباء الجاهلية الجديدة ..

٤) وأخيرا إنشاء مؤسسة فكرية باسم (نادي القلم الإسلامي) تكون قاعدتها مكة المكرمة ، أو طيبة المباركة ، ويشارك في عضويتها كل ذي غيرة على رسالة الله من أدباء المسلمين ، على أن تعقد اجتماعاتها الدورية في العشرة الأواخر من ذي الحجة لكل عام ، حيث تدرس أوضاع المسلمين والحركات الثقافية العالمية ، ويصار الى الاتفاق على الخطط الصالحة لخدمة الكلمة المؤمنة بكل وسائل الاعلام .

ومرة أخرى أعترف بأنها أفكار أشبه بالأحلام ، لما يعترض طريقها من عقبات جسام ... غير أنها ليست مستحيلة التحقيق اذا لامست موضع القناعة من قلوب الرجال ، الذين آمنوا بألا" استقرار ولا بقاء ولا صلاح إلا بالإسلام ..

في مؤتمر الأدباء السعوديين الأول بوادر نشاط مشكور ، من شأنه أن يضاعف جهود الأقلام المشهورة ، ويحرك الكثير من المواهب المغمورة .. وقد اتخذت فيه مقررات اذا نفذ نصفها كان ربحا كبيرا ، فكيف والمتوقع أن توضع كلها في حيز التنفيذ إن شاء الله .

على أن واحدا من هذه المقررات لا أزال حائرا بإزائه ، ذلك الذي يحمل الرقم السابع عشر ، ويتضمن توصية المجلس الأعلى للفنون والآداب بأن يولي اهتمامه بالأدب الشعبي ، ويعلل القرار هذه التوصية بالرغبة في تمكين الباحثين والدارسين من الاستفادة منه في دراسة تاريخ المملكة ولهجاتها وفقه لغتها ...»

والأدب الشعبي قديم في كلام العرب ، حتى الجاهلية لم تفقده ، لأن ألسنة القبائل لم تكن على مستوى واحد من حيث الصحة والجمال . فكان منها اللغات العالية التي بها نزل القرآن ، وعليها تنهض علوم العربية التي ركزت فيما بعد ، وكان منها لغات مشوشة لم يعن بها رواة اللغة ، ولا مدونوها بعد الإسلام ، ولم يصلنا منها سوى النزر من شواهد احتفظ بها علماء اللغة للدلالة على اللغات الشاذة أو الضعيفة .

وبنزول القرآن العظيم وإقبال العرب عليه قل استعمال تلك اللغات النوادر إلا في سياق التخاطب بين أبنائها ، وإلا في الأمثال ، التي ألف العرب روايتها دون تعديل ولو اعترتها الأغاليط .

ثم تسلل الضعف إلى سلائق أبناء الفصحاء مع تفاقم الاختلاط بشعوب البلاد المفتوحة ، مما اضطر العلماء الى تدارك ذلك الفساد ، بوضع القواعد وإقامة الشواهد .. ولكن طبيعة التطور أدت إلى تشقيق العربية ، فكان منها فيما بعد لغة الأدب المحتفظة بخصائصها ، وكان منها لغة العامة التي شابها اللحن ، وكثرت فيها الكلمات الدخيلة ، ثم انتهت الى أن كونت لنفسها مايسمونه

اليوم بالأدب الشعبي •• وهو طراز من الكلام كان مـن آثاره البارزة خلخلة الكيان العربي ، اذ جعل لكل جماعة لسانها الخاص ، بحيث لا يكاد فريق يفهم لغة فريق ، إلا إذا عمد إلى اللغة الجامعة الأصيلة ، التي لم يعد يحسنها إلا خواص المتعلمين •• ولا عجب فالسوقية في كل إقليم مزيج من العربية وما سبقها من لغات محلية أو غازية ، وبما أن لكل إقليم ماضيه التاريخي الخاص ، كان لكل عامية لهجاتها ومفرداتها الخاصة أيضا •• وفي مستطاع كل منا أن يلمس هذا الواقع من خـلال سماعه لهجات العـرب الوافـدين إلى موسـم الحج من مختلف أقطارهم ••• وما أظن عربيا منا مهما تبلغ معرفته باللهجات وتطورها بقادر على أن يفهم لهجة مغربي أو جزائري أو حتى يماني من سكان المناطق النائية ••• فاذا نحن رحنا نتتبع نصوص هذه الحكايات أو المنظومات الشعبية في بلد عربي، لم نزد على أن مكنا لهذه الفرقة من الرسوخ ، وبالتالي لم نقدم لقارىء الأدب العربي سوى نماذج لا تقل غرابة عن أي نص من الصينية أو اليابانية مثلا ••• ومن هنا يتضح لنا ما أهدرناه من جهود ووقت في غير فائدة ••• بل في ضرر مؤكـد ••

ومع أن واقع الجزيرة العربية يمتاز على غيره من واقع الأقطار العربيـة الأخرى ، من حيث أن لغاتها العامية أكثر اتصالا بأصول العربية ، وأكثر حفاظا على جوها ، فالمشهود الملموس أنها تشترك مع غيرها من عاميات العرب بقيامها على اللحن ، وتسرب الكثير من الدخيل إلى صميمها ••• ولا سيما في عهدها الراهن ، حيث كثر اتصالها بديار الغرب ولغاته ومصنوعاته ، فضلا عن تعـدد أصول السكان ، والوافدين ، الذين يمثلون أكثر من نصف لغات العالم •

أجل •• إن الدعوة الى تنشيط الأدب الشعبي لا تختلف بنظري عن الدعوة إلى مايسمونه بإحياء الفولوكلور ، ويريدون به كل ما كان لأي شعب من فنون متميزة ، من الرقص إلى الاغاني إلى الأزياء •• وما إلى ذلك • •وقد فقه أولو العلم حقيقة ما وراء هذا الفولوكلور من محاولات للعودة بالشعوب الإسلامية

إلى جاهلياتها السابقة للإسلام •• فالفولوكلور إذن حركة مناوئة للإسلام نفسه ، الذي أخرج الأمم من الظلمات إلى النور ، ووضع الإنسانية الجديدة في الطريق المؤدي إلى الحضارة الربانية ، المتميزة بأنها لا شرقية ولا غربية ••

وإذن فالاهتمام بالأدب الشعبي ، كتابة وإذاعة وتنويها ودراسة ، هبوط بالفكر العربي عن المستوى الذي يجب أن يؤكد عليه في مسيرته الجديدة ، وعندي أن السعي لرفع النظامين الشعبيين إلى مستوى العربية الصحيح أجدى عليهم وعلى أوساطهم وعلى أقطارهم من تشجيعهم على ما أخذوا به من قول ملحون •• ولا جرم أن في تجاربهم الشعورية ، وتوهجاتهم الخيالية ، لظواهر مواهب لو أخذ بيدها إلى الطريق السوي لجاءت بالبديع الرفيع ، ولزادت ثروتنا الأدبية جمالا وتألقا ••• وإلا فإن كل مجهود في غير هذا الطريق السوي منته إلى الإخفاق الذريع ، لأن طبيعة الفكر العربي لا تسمح بالخلود والبقاء لأي فكر أو شعور لم يسجل بلغة القرآن ••• والأدلة على ذلك تواجهنا في محاولات المتفرعنين بمصر والمتفينقين بلبنان ، الذين بذلوا ويبذلون الجهود والأموال لكتابة أفكارهم باللغات السوقية ، فأخفقوا ولا يزالون يخفقون ••

من أجل تيسير التعليم

ونعود الى موضوع نشر العربية في المجال العالمي فنذكر بأن ذلك يقتضي الاهتمام بوسائل هذا النشر ، فمعلوم أن شكاوى كثيرة تصاعد في كل مكان عن صعوبة العربية •• وليس هذا موضع الرد أو النقد لهذه الشكاوى ، إذ من الطبيعي ألا تكون على مستوى واحد من حيث الدوافع •• فهناك المغرضون الذين يريدون مجرد التنفير من العربية ، باختلاق المعايب لها ، وربما جاهدوا لقلب فضائلها نقائص •• ولكن هناك أيضا المخلصون الذين يمارسون تجربة التعليم منذ عشرات السنين ، فيواجهون في طريقهم الكثير من المصاعب ، ذلك أن الوسائل التي يستعان بها لتعليم العربية لا تزال ضمن نطاق الموروثات القديمة ، لم يعترها التعديل أو التطوير إلا قليلا • وتستيقظ الآن في أعماقي ذكرى أيام

كنت أتلقى فيها علوم العربية على أحد الشيوخ من خريجي الأزهر •• فأضطر إلى العض على راحتي بكل ما أملك من قوة لأمنع نفسي النوم ، خشية أن تفوتني خفية من الدرس ، لا أستطيع تداركها •• ولا أريد بذلك أن طريقة التنويم هذه هي نفسها طريقة كل مدرس للعربية اليوم ، بل أقول : إننا لم نفد كثيرا من التطورات الحديثة التي طرأت على طرائق التعليم الخاصة باللغات •

لقد سمعنا وشاهدنا الكثير من مؤتمرات العرب في القانون والهندسة والزراعة والأدب والشعر ، والفن •• ولكننا لم نسمع قط عن مؤتمر عقد للبحث في الانتفاع بخبرات الحضارة لتعليم لغة العرب •• أجل لقد سمعنا عن محاولات لتيسير ••• القواعد ، وقرأنا مؤلفات تقوم على استبدال مصطلحاتها على وجه لا يراد به — على أفضل الاحتمالات — أكثر من التلاعب بالألفاظ ، واستقطاب الأنظار إلى عبقريات أصحابها •• هذا إذا لم نقل أن وراء الأكمة ما وراءها من محاولات الإساءة للعربية • والذي أومن به في هذا الصدد هو أن لغة الأمة جزء أساسي من ذاتيتها ، عليها أن تتقبله كما تلقته ، ثم تسلمه أجيالها القادمة كما تسلمته ، دون أي مساس بأصولها المميزة ، كالإعراب ومخارج الحروف والتزام التراكيب الأصيلة ، لأن اللغة أشبه بالكيان الحي ، كل تغيير في تركيبه الطبيعي قاتل له أو مشوه •

غير أن التزام الأصول لا يمنع تطوير وسائل الصيانة لصحة هذا الكيان ، ولتوسيع دائرة نشاطه •• تماما كما نعامل الجسم اذ نحصنه من السوء بكل المبتكرات الصحية ولكن دون أن نحاول إحداث أي تغيير في تركيبه الطبيعي ••

وهذا يقتضي أمورا أهمها :

١) الانتفاع بأحدث الوسائل الفنية التي توصل إليها ذوو الخبرات العالمية في تعليم اللغات ، كالمسجلات الفردية ، والمعامل الجماعية ، ومختلف وسائل الإيضاح العملي •

٢) إعداد المدرس الخبير باللغة والنفس ، المحب لمهنته ، القادر على الاستفادة من تجاربه اليومية •

٣) عقد مؤتمرات دورية يشهدها المدرسون المتفوقون لإعطاء زبدة تجاربهم وتعميم ما يتفق عليه بشأنها على المدارس والمعاهد في نشرات صالحة •

٤) تمكين سلطان العربية من سائر مواد الدراسة ، فلا يسمح لمدرس أي مادة باستعمال لغته السوقية أو الملحونة أثناء الدرس ، ولا يقبل من الطالب سؤال ولا جواب بغير اللغة الصحيحة •

٥) توجيه عناية خاصة لطالبي العربية من غير العرب ، بحيث تقدم إليهم في كتب تعتمد الإيضاح بكل الوسائل المعقولة ، ويراعى فيها التدرج من الأسهل إلى الأصعب ، مع العناية الكبيرة بجمال المظهر وأناقة الطبع •

٦) بناء مناهج المعاهد الخاصة بتعليم العربية للأعاجم على أساسين :

الأول : تصحيح مخارج الحروف وضبط الألفاظ ومراعاة التركيب العربي •

الثاني : العناية بالقصة في تزويد الطلاب بالمفردات العربية ، على أن لا يقل مجموع الكلمات التي يجب عليهم حفظها وإتقان استعمالها عن خمسمائة كلمة خلال العام الدراسي الواحد •

٧) العناية بتزويد الفصول بالكتب الملائمة لمستويات الطلاب وبخاصة القصص الموجهة على أن يلزم الطالب قراءة عدد منها وتلخيصها وبيان قيمتها شفهيا وكتابيا •

٨) وأخيرا إعطاء العربية مثل ما تعطي الأجنبية اليوم من العناية على الأقل •• وعدم تمكين أي مادة من الحيف عليها ••

مخطط نبوي ضد الجهل

وبحث في العربية وحقوقها سيظل أبتر ، اذا أغفل الاشارة الى موضوع

ما يسمونه بمكافحة الأمية ، ويحاول بعض المعنيين به تهذيب عنوانه باسم (تعليم الكبـــار) .

ومهما تختلف الأسماء في هذا الشأن فالمقطوع به أن الاسلام أول مكافح للامية خلال التاريخ .

ولا غرابة فهو دين العلم الذي يعتبر اعتناق أي انسان له هجرة من الجهل الى المعرفة ومن الظلمات الى النور . وحسبه سموا أن أول آياته النازلة في حراء على قلب محمد ﷺ ، كانت تبشيرا بالعلم وتنويها إلهياً بفضل القراءة والكتابة.

ولقد كانت أولى حملات الاسلام على الامية في أعقاب غزوة بدر لما جعل رسول الله فداء الأسير الكاتب من المشركين تعليم عشرة من أبناء المسلمين القراءة والكتابة .....

ثم جاءت المرحلة التالية ، يوم خطب رسول الله ﷺ في المسلمين ، وكان من خطبته تلك قوله : (والله ليُعلِّمَنَّ قومٌ جيرانَهم ، ويفقهونهم ، ويعظونهم، ويأمرونهم وينهونهم ، ولَيَتَعَلَّمَنَّ قوم من جيرانهم ، ويتفقهون ، ويتعظون، أو لأعاجلنهم العقوبة ..)

وعلم الأشعريون ، وهم المتعلمون ، أنهم المقصودون بالانذار ، فجاؤوا رسول الله يسألونه المهلة ، فأمهلهم سنة ليحققوا واجبهم في تعليم جيرانهم مـــن جفاة الاعراب[1] وكان ذلك تشريعا نبويا بايجاب التعليم والتعلم على كل قادر ، كضرب من التكافل الاجتماعي الذي يستهدف رفع سوية الكافة إلى المستوى اللائق بالإنسان المسلم . وهي سابقة عظيمة تعطي ولي الأمر المسلم حق تحويلها إلى قانون يلزم كل خرِّيج في الجامعة مثلا ألا يتولى عملا إلا بعد أن يقـــدم البرهان على أنه استنقذ واحدا على الأقل من ظلمات الجهل ويلزم كل جاهل أن يقبل على التعلم تحت طائلة العقوبة ..

---

(١) من حديث طويل رواه الطبراني في الكبير عن علقمة ، ويرى العلماء سنده في مرتبة الحسن . انظر (الترغيب والترهيب) ج١ رقم ٢٠٥ .

على أن من حق البحث علينا أن نتساءل عن الغاية من حركة مكافحة الأمية في أوساط المسلمين خاصة •• لا شك أن سؤالا كهذا من شأنه أن يبعث الدهشة أو الضحك لأن جوابه من أقرب البديهيات •• فالمشروع قائم على قدم وساق في كـل مكان وقد أجمعـت عليه البشرية كلها ممثلة في هيئة الأمم ومؤسساتها الثقافيـة ، وتتسابق الدول على اختلافهـا لتسجيل الأرقام القياسية في هـذا الميدان •• ومع ذلك يأتي من يسأل عن غايته وأغراضه ؟ ولكن كثيرا من الأمور التي تظن من البديهيات يتعذر على المفكر إيضاحها ، وليس موضوعنا هذا إلا واحدا من هذه البديهيات •

إن وراء حملة مكافحة الأمية في العالم أهدافا شتى •• فهي كما تستهدف تأهيل الانسان الأمي لتحسين واقعه ، وتوسيع آفاق حياته ، بالاطلاع على ما كان محجوبا عنه من عوالم الوحي ، والاستمتاع بثمرات الفكر المبدع للحضارات •• كذلك وراءه الاصابع التي تريد اقتلاعه من عـالم الفطرة ، لتقذف به في تيـه المغويات الشيطانية •• أجل أيها الأخوة الأعزة •

إن مشروع مكافحة الأمية سلاح ذو حدين ، ففيه الإعداد للخير الكبير الذي يريده الإسلام وأهله ، وفيه كذلك التحضير لشيوع الفساد المدمر لهناءة الانسان •• والمؤسف أن وسائل الشر المتربصة خلف هذا المشروع أقوى وأرقى وأكبر فاعليـّة من وسائل الخير •

إن ذوي الفكر الشرير قابضون على ناصية الإعلام وفنونه المغرية في كـل مكان وقد أعدوا لكل مستوى عقلي ما يلائمه من هاتيك الوسائل •• تساعدهم على تحقيق أغراضهم الطاقات الهائلة الموضوعة تحت تصرفهم من دول الإلحاد ، ومنظمات الإفساد ، على حين لا يكاد الفكر البناء المؤمن يجد سبيله إلى الظهور إلا في أردأ المظاهر •• لأنه في الغالب مجهود أفراد فقراء لا مدد لهم ولا عدد •• فاذا نحن ــ في عالمنا الإسلامي ــ نجحنا في القضاء على الأمية ، وسننجح بمشيئة

الله ، فماذا أعددنا لاستقبال هذه الجماهير ، التي ستكون مستعدة لالتهام كل ما تقع عليه من مطبوعات تلائم مستواها الفكري ؟٠

ذلك هو السؤال الذي يجب على كل ذي غيرة على عروبته ودينه أن يطرحه على نفسه ، وأن يفكر بجوابه الأفضل ٠ ومن أجل أن يكون نجاحنا صحيحا في هذا الميدان لا بد لنا من تهيئة الغذاء الفكري الصالح لبنية هؤلاء الوافدين حديثاً إلى مائدة المعرفة ٠٠

قبل أن يخرج الله تبارك وتعالى الانسان إلى هذه الدنيا أعدها لاستقباله بكل ما يساعده على بناء المدنيات ٠

فلما أطل عليها وجد كل شيء على أتم الاستعداد لمساعدته على مهمته في إعمار الأرض٠ وعلينا نحن أن نتعلم من هذه السنن الإلهية كيف نهيىء الضرورات الأساسية لذلك الجيل ، الذي فتحنا أعينه على عالم القلم ٠٠ وهذا يقتضي في مفهومي أن يجد مادة القراءة الصالحة لتحسين واقعه النفسي « صحفا تقدم له وجباته الأولية من الثقافة الصحيحة وكتبا تتدرج معه في مختلف المستويات ، قصة ومقالة وبحثا ٠٠ ثم تخصيصه ببرامج من الإذاعة اليومية مسموعة ومرئية ، تأخذ بيده في طريق التطور الصاعد ٠٠ ولا حاجة إلى التذكير بأن ذلك كله يجب أن يستمد من معين الإسلام ، في أساليب مبسطة من البيان العربي السليم ٠٠

أما إذا اكتفينا من هذه المهمة بتمكين الأمي من فك الحرف ، دون أن نزوده بالمقومات التي تصونه من السقوط في حبائل الشياطين ، فمعنى ذلك أننا حررناه من أمية الفطرة ، لتسلمه لقمة سائغة لأمية أخرى ، هي أخطر عليه وعلى مجتمعه وعلى البشرية من الجهل ٠ وأملينا نماذج لا تحصى من أولئك الذين عبدت لهم الطرق إلى أعلى الشهادات ، فكانوا كما وصف الله زملاء لهم سابقين بقوله الحكيم : (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً ٠٠) أو كما قال سبحانه في عالم إسرائيلي اشترى بآيات الله ثمنا قليلا :

(واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ، فاتبعه الشيطان ، فكان من الغاوين • ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه ، فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ، فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ٧/١٤٧) •

وهل أنا بحاجة للإشارة إلى هؤلاء المساكين الذين اجتالهم الشيطان ، فاتخذوا من ألقابهم العلمية الوهمية ذريعة للطعن على دين الله ، فراحوا يعقدون المؤتمرات للدعوة الى تهديم ما بناه الله !•

أجل •• إنها أمية جديدة تتبجح بالشهادات ولا مندوحة لحماية الناس ، ولا سيما أولئك الذين فارقوا الأمية ، من مخاطر دعواتهم الخبيثة رحمة بأمتنا•• وبإخوتنا •• وبانسانيتنا على الأقل •

ومن لهذه المهمة الضخمة سوى معاقل العلم العالية ، تسهم في إعداد الحصانة اللازمة لهؤلاء الوافدين على العلم !

وإنها لأعباء ثقيلة •• ولكنها جديرة بعاتق الجامعات العربية ، ولا سيما في هذه المملكة الناهضة ، وفي عصر التيارات الفكرية المتضاربة •

ورطة لابد من علاجها

وثمة قضية على جانب كبير من الغرابة والخطورة معا ، تلك هي إجماع وزارات المعارف في كل بلد عربي على تعليم الأجنبية في المرحلتين الإعدادية والثانوية •• وهو أمر لا يزال يثقل كاهل التلاميذ بأعباء غير يسيرة ، على حساب العربية والدين وغيرهما من المواد الرئيسية •• وقد أثبتت التجربة الطويلة أن المردود الوحيد الذي جنيناه من هذا الاتجاه هو ضحالة الثقافة مطلقا ، وشحن نفوس الشباب بشعور التبعية للأمم التي فرضت عليهم لغاتها •• يضاف إلى ذلك أن هذا الطالب المسكين لا يكاد يطأ أرض العالم الغربي للدراسة الجامعية حتى يفاجأ بصدمة الجهل التام للغة المفروضة ، فيلجأ إلى المعهد الخاص لإعداد أمثاله ،

وقد تستغرق هذه المحاولة زمنا غير يسير ليتمكن من الالتحاق بالقسم الـذي يريـد ••

ولو نحن أنعمنا الفكر في قوادم هذا الوضع وخوافيه لأدركنا عظم الخطأ الذي اقترفناه بذلك التقليد غير الواعي •• إذ أضعنا جزءا كبيرا من حياة هذا الطالب دون ثمرة ، سوى ما أسلفناه من شعور التبعية ، والإحسـاس بصغار الجنس الذي ينتمي اليه ، بازاء الأمة التي أكره على إذابة الكثير من طاقاته في التشمم للغتها ••

ولعل هذا أشد ما يكون بروزا في دور إعداد المعلمين للمرحلة الابتدائية ، حيث يهدر الزمن غير القصير من حيـاة الطالب في دروس الأجنبية ، دون أن يحتاج إلى كلمة منها طوال جهاده في تعليم الصغار •

أجل •• إنني بكل صراحة ، وبعد تجربة ثلث قرن في ميدان التعليم ، أرفع صوتي بهذا الاقتراح ، وهو إنقاذ الجيل العربي من هذه الورطة •• وبديهي أن اقتراحي يشمل الدراسة الجامعية نفسها ، التي سبق أن أشرت إلى ضرورة وقفها على العربية وحدها ، إلا في الأقسام الخاصة باللغات الأجنبية •••

وما دمنا في حاجة إلى الدراسات الأجنبية في نطاق العلوم العملية فبالإمكان تدارك ذلك بافتتاح معاهد خاصة لتعليم اللغات الأخرى ضمن سنتين ، لينطلق بعدهما لمتابعة دراسته في المادة المرادة دون تعثر •• وذلك على غرار (مدرسـة اللغات) التي أنشأها محمد علي لإعداد البعثات ، التي رأى ضرورة إرسالها إلى الخارج •• وعلى شـاكلة دار الترجمة التي أنشـأها المأمون لنقل العلوم عن اليونانية إلى العربية ، دون أن يكره الناس على تعلمها في المدارس أو الجامعات•

ولا أذهب بعيدا للتدليل على سداد ما أشير اليه ، ففي الكثير من تجارب المملكة مع بعثاتها إلى الخارج ما يؤكد أن تأخير دراسة الأجنبية ، إلى ما بعـد الثانوية ، خير وأجدى على المبتعث من ان يُلزم دراستَها قبـل ذلك •• وفي

المملكة ـ ولعل منهم بيننا الآن ـ حملة دكتوراه من الغرب ، كانوا قد تخرجوا في المعاهد العلمية ، حيث انقطعوا إلى دراسة دينهم ولغتهم والعلوم التي لا غنى عنهـا للمثقف ، دون أن يدرسوا حرفا من الأجنبية إلا بعـد أن توجهوا إلى بلادها ••• على حين أن كثيرين ممن درسوا الأجنبية طوال المرحلة الإعداديـة والثانوية ، لم ينتفعوا منها بشيء ، إلا بعد أن تفرغوا لها في بيئتها ، فأقبلوا على دراستها من جديد •

وقل اعملوا •••

ولعل من غير البعيد عن مهمة الجامعات ، ولا سيما في هذه المملكة الغالية ، أن تعمل لإنشاء مجمع علمي للغة العربية ، إلى جانب مجمع كبار العلماء ، يحشد له أساطين العربية والمتخصصين في مختلف العلوم ذات الصلة بها سواء من داخل المملكة وخارجها ، يكون من مهامه متابعة التطورات العلمية ، وإمداد الجامعات ومؤسسات الإعلام بما يسد الحاجة إلى المستحدثات اللغوية ، عن طريق الاشتقاق أو الاصطلاح أو النحت أو المجاز ، وما يتصل بذلك مما تضمنته المعاجم القديمة من أصول يمكن الانتفاع بها الى مدى بعيد في تنمية البيان العربي •

إن عملا جليلا كهذا لا يتجاوز حدود الممكنات إذا تضافرت عليه جهـود الجامعات العربية وكلياتها •

وإذا كان ذلك حقا على كل جامعة في بلاد العرب فهو حق أكبر على جامعات البلاد التي منها انطلقت لغـة العرب إلى الدنيا ، ومن حرميها المكرمين تدفقت أشعة الوحي ، الذي أمد هذه اللغة بما أهلها للمكان العالمي الذي تبوأته في عهود المجد والازدهار • ولا جرم أنها حين تتداعى للنهوض بهذا العبء ستجد مـن العـون الكريم لدى حكومة جلالة الفيصل ما يؤمن لها كل وسائل النجاح إن شاء الله •

وما أسعدنا ببشرى رسول الله ﷺ التي تخبرنا أن طائفة من أمته لا تزال ظاهرة على الحق لا يضرها من خالفها حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون ••••

وقد ذهب أكابر علماء السلف الى ان الطائفة الظاهرة هذه هي العرب ، حملة رسالة القرآن بلغة القرآن إلى أهل الأرض ..

وليس في الدنيا من يزاحم أهل هذه الديار العزيزة على مركزها من قلب العروبة وصميمها وذؤابتها .

وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون .. والحمد لله رب العالمين .. وصلاته وسلامه على أكرم المرسلين وسيد الأولين والآخرين ، محمد وعلى آله وصحبه وذريته الطاهرين ، ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين .



انطباعاتي عن مؤتمر رسالة الجامعة



كان النشاط أبرز ظواهر هـذا المؤتمر .. فالجناح الـذي عقدت فيـه اجتماعات اللجان أشبه بخلية النحل لا يكاد يعرف السكون .. وقـد وزعت المهام على العديد من الأساتذة والموظفين ، فلكل عمله . ولكل مكانه .. ولعل هذا أول ما يطالع الزائر من آثار التنظيم الغربي الذي تمرس به المشرفون على المؤتمر فأحسنوا عرضه وتطبيقها . وكان عملنا أنا وزميلي ، الشيخ محمد بخيت مندوبي الجامعة الإسلامية إلى مؤتمر رسالة الجامعة هـذا ، في لجنة التراث والحضارة ، فانتظمنا في عقدها منذ اليوم الأول ، لم تتأخر عن الحضور ساعة واحدة من الدوام الذي كان يستغرق معظم النهار من ١١/٢ حتى ١١/٥ ــ ١٣٩٤ هـ .

لقد بدأ التجمع بحفلة افتتاح أقيمت في قاعة المحاضرات في جامعة الرياض ألقيت فيها بعض الكلمات التوجيهية حول مهمة المؤتمر وما يتوقع منه .. وكانت كلمة وزير معارف المملكة الشيخ حسن عبد الله آل الشيخ أحسن ما سمعناه طوال أيام المؤتمر ، إذ حددت الهدف ، وجمعت أطراف الموضوع الذي يتعين بحثه والتركيز عليه . وقد سرني منها بخاصة التصريح الحاسم بأن الإسلام هو رسالة المملكة بكل مؤسساتها ، فكل عمل أو اقتراح ينبغي أن يبرز من هـذا المنطلق دون غيره .. وزاد ذلك إيضاحا أن على كل راغب في العمل بهذه الديار أن يضع هذه الحقيقة نصب عينيه فإما أن يقتنع بها فيلتزمها ، واما أن يرفضهـا فيبحث عن مستقره خارج المملكة ..

وكان ذلك جديراً أن يضع لجان المؤتمر على مختلف اختصاصاتها أمـام مسؤولياتها في تخطيط لا غموض فيه . والحق أن أحدا لم يعزب عن خاطـره مضمون هذا التوجيه، إذ كان للإسلام ذكر لا يهمل في كل تقرير وفي كل بحث.... وكانت البسملة تتوج كل خلاصة يتفق عليها وكان التحميد لله والتبرك بالصلاة على نبيه مفتتح كل جلسة ومبدأ كل اجتماع .. وهكذا كان مؤتمرنا يمتاز بهـذه الفواتح على كل مؤتمر يعقد خارج هذه المملكة ، أو معظم تلك المؤتمرات على

وجه التحديد • وكانت لجنتنا من أكثر اللجان عــدد أعضاء ، معظمهم مــن (الدكاترة) الوافدين من أميركة ولندن ، وبينهم شيوخ مثلي يمثلون المؤسسات العلمية ذات الطابع الشرعي ، وعسكريون كبار وموظفون من العلية ، في مقدمتهم رئيس ديوان مجلس الوزراء • وقد عهد برئاسة اللجنة إلى الشيخ مناع القطان العليم المصري، مدير معهد القضاء العالي بالرياض ، والمعروف بنشاطه الاسلامي•

وسأحصر الآن ملاحظاتي في نطاق لجنتنا هذه ، ثم أعرج على الاشارة إلى مجموع مقررات اللجان جميعا ، وما يتصل بموضوع المؤتمر مما آراه جــديرا بالتســـجيل •

مناقشـــة البحــوث

لقد تناول الحوار شتى الجوانب المخططة لهذه اللجنة •• ويهمني منــه بوجه خاص ما يتصل بالبحث الذي قدمته للمؤتمر ، وعنوانه (رسالة الجامعة السعودية ، نحو لغة القرآن العظيم في المملكة والأقطار الإسلامية) وقد نشرته جامعة الرياض في المجلد الاول ، الذي ضم المجموعة الأولى من البحوث التي قدمها بعض المشتركين •

كان توجيه الافتتاح يقضي بأن يلخص كاتب البحث موضوعه خلال خمس دقائق ، بعد أن كانت لجنة تنظيم المؤتمر قد أعطته الحق بتلخيصه ضمن صفحتين كاملتين قد تستغرق قراءتها أكثر من عشر دقائق • وطبيعي أن بحثا استغرق ٣٣ صفحة من ذلك المجلد لن يكون تلخيصه ضمن هذه الحدود سوى مسخ لــه وإضاعة لمضمونه لأن المفترض أنني كغيري من أصحاب البحوث ـــ قد عُنيت بتكثيفه إلى حد جعل لكل كلمة أو عبارة مدلولها الذي لا يفي به إيجاز • وإذن فنحن مدعوون إلى مثل عمل المحشين والملخصين من علماء عصور التخلف ، إذ كان الواحد منهم يكتب البحث في تركيز كثير ، فيأتي آخر فيلخصه في عبارات برقية لا تكاد تفهم ، فيعقبه آخر بشرحه وإيضاح غامضه • ولهذا اقترحت على اللجنة أن يطلع كل عضو منها على البحوث قبل موعد مناقشتها ، فاذا عرضت كان على علم بنقاطها الرئيسية ، وأمكنه ان يعطي فيها رأيا نافعاً وعلى الرغم من

كون الاقتراح عمليا لم يتح له أن يلج حيز التنفيذ فظلت المناقشات تدور حول الملخصات التي لا تشفي ولا تقي ..

على أن بعض الكاتبين في موضوع العربية ــ وغيره ــ قد تجاوزوا الزمن المقرر فاستهلكوا أضعافه في تلخيص بحوثهم .. حتى اضطر الرئيس إلى تنبيههم لذلك ، وتذكيرهم بضيق المجال .. وعندما جاء دوري حاولت إيصال أكثر قدر من نقاط البحث إلى أذهان الحضور بأقل الكلمات الممكنة . وجعلت همي :

١ ــ بيان علاقة العربية بالاسلام ، وأن الحفاظ عليه متوقف على الحفاظ على العربية .

٢ ــ إقدام المدرسين وطلبتهم وبخاصة القسم الجامعي واستعمال الفصحى وحدها .

٣ ــ إدخال حصص كافية لدراسة (نصوص قرآنية) في منهج كل فصل جامعي أيا كان اختصاصه .

٤ ــ تنحية الأجنبية عما قبل الجامعة والتعويض عن ذلك بإحداث معهد لغات لإعداد الراغبين في التخصصات التي تعتمد على الأجنبية .

٥ ــ السعي لدى الحكومة ــ ثم الحكومات العربية ــ لاعتماد نسبة معينة من موازنتها العامة لنشر العربية في أقطار العالم الاسلامي . وبخاصة لدى الأقليات الإسلامية في الشرق والغرب .

٦ ــ تعريب الإعلام بحيث لا يسمح للغات الملحونة بالمرور خلاله إلى أسماع الناس ولا سيما في الأناشيد والتمثيليات .

مشكلة الاجنبية

وقد مر معظم هذه الاقتراحات في شيء من اليسر ولكنها لم تحصل على صياغة جازمة ، بل بقي أمرها موقوفا على حدود الاستحسان والالتماس . إلا

أن المشكلة انطلقت من نطاق الحديث عن الاجنبية فما إن عرضت لها حتى زمت شفاه ، وتجهمت أسارير •• وجاءت الكلمة الاولى من أخ سوداني لا أشك في غيرته وفضله ، هو الدكتور جعفر شيخ إدريس الأستاذ في كلية التربية مـن جامعة الرياض ، إلا أن البراءة النفسية لا تكفي لوقاية صاحبها مسموم الافكار المدخولة فلقد تناول الكلام على أهمية الاجنبية ، فذهب إلى أن العربية ـ في وضعها الراهن ـ لغة متخلفة لا يسعها أن تسد أي فراغ في نطاق الدراسـات العلمية • وتعلمها على الطريقة القائمة في مؤسسات التعليم العربية لا تمنح الطالب أي قدرة على فهمها ومواصلة الدراسة بها •• لذلك يقترح أن تبدأ ممارستها من أوائل المرحلة الابتدائية ، لتمازج نفس التلميذ وذهنه ، فلا يجد في المستقبل فجوة تفصله عنها وعقب على دعوتي إلى اعتماد العربية لغة رئيسية في مختلف الكليات العلمية وبخاصة الطب ، وتمثيلي على نجاحها بجامعـة دمشق وبكلية الطب منها على الخصوص ، فقال وعلى ثغره ابتسامة إشفاق :

لقد لقيني خريج من كلية الطب بجامعة دمشق وفاتحني بما يشحن صدره من الحيرة إذ لا يدري ماذا يفعل •• وإنما يريد الدكتور جعفر بهذا الخبر أن يدمغ كلية الطب الدمشقية بالعجز والقصور بسبب اتخاذها العربية لغة التدريس وكانت تهمة كبيرة هممت بالرد عليها ولكن سبقني الى ذلك الاخ الدكتـور الحلبي أبو الفتح البيانوني المدرس بكلية الشريعة في الرياض ، فشفى وأوفى ، إذ أعلن شهادة المؤسسات الصحية العالمية للاطباء السوريين المتخرجين في جامعة دمشق وذكر الناسين بأن الطب وسائر العلوم كلها تدرس بالعبرية في إسرائيل ، وهي اللغة التي لولا الجهود الجبارة التي يبذلها أساطين اليهود لإحيائها لاحتلت مكانها مع الهيروغليفية والفينيقية وأخواتها في أعماق المتاحف •• وكان هذا الرد جديراً بأن يقطع كل محاولة للإزراء بالعربية أو اتهامها بالقصور • ومع ذلك فإن بعض الأعضاء من خريجي المغرب لم يرضه ما سمعه من كلام عن العربية ، فراح يصل ما بدأه الدكتور جعفر ، وتولى ذلك أستاذ للإنجليزية من جامعة الرياض ،

فجعل يشنّع على العربية ، ويحاول إقناع السامعين بأنها لغة الكلام الفارغ ، الذي يقوم على التلاعب بالألفاظ •• ودليله على ذلك ان القارىء لنصوصها لا يكاد يخرج من حـُلاها اللفظية بأي مردود فكري ، وإنما هي أخيلة ومحسنات ومرادفات وو ••• ولم تفته مقابلة ذلك اللغو ــ في زعمه ــ بجدية الإنجليزية ، التي تقوم على تحديد المدلول بدقة لا تدع مجالا لغموض ••• وتلاه دكتور آخر من جامعة الملك عبد العزيز ــ ليؤيد وجهة نظره بأدلة من رسائل الماجستير التي يقدمها بعض طلابه ، إذ يمهد أحدهم للبحث بأكثر من صفحات البحث ، لأنه عاجز عن الإحاطة بالموضوع وجاهل بترتيب أقسامه ••

متعالمون لا علماء

ولم يكن أيسر من نقض هذه الأوهام لو اتسع مجال الكلام •• وكان في نيتي أن أذكر الأخ الأول بحقيقة غابت عنه ، وهي أن من مميزات العربية قدرتها على معالجة أي بحث بما يلائمه من الأساليب •• فللخاطرة الوجدانية قالبها المتموج بالصور الموحية ، ولو سكبت في الأسلوب العلمي لجاءت باهتة تلامس القلب ، وللفكر الموضوعية تعابيرها الصارمة التي لا تقبل التموج لأن صلتها بالعقل دون العواطف •• ولو أنه قرأ بحثا في تشريح القلب لمؤلف من جامعة دمشق ــ مثلا ــ لما عثر خلاله على أي مرادف أو تخيل ، بل هو العرض المحدد في نطاق الموضوع في حين لو قرأ تصورات أي شاعر عن هذا القلب لما وقع أثناءه على أي ذكر للبطينين والأوردة وما إليها ، بل لوجد نفسه أمام صور تثير في وجدان القارىء مثل الانفعال الذي أحسه الشاعر ••• ولو أنه تذكر فقط الكتب التي قرأها قبل ابتعاثه في التوحيد والفقه والتفسير والحديث وأصولهما، لعلم يقينا أن لدى العربية من الإمكانات ما يقدرها على إعطاء أدق التعابير العلمية والموضوعية دون استعانة بالأخيلة والتحاسين •• ولكن الظاهر أن الدكتور ــ وقد لمست من أحاديثه الخاصة الكثير من الصفات الطيبة ــ قد نسي في غمرة الإعجاب بلغة التايمس كل محاسن لغة القرآن ، أو كان عهده بالعربية

الاصيلة قد بعد ، فلم يعد يعرف عنها إلا ما يكتبه بعض المتعالمين أو المتشاعرين ، من الذين يسميهم المشبوهون علماء أو أدباء أو مفكرين ...

أما الدكتور أبو سليمان فقد آسفني ــ وغيري ــ من تعقيبه استدلاله على عجز العربية برسائل من يشرف على عملهم في الماجستير .. وهو استدلال عكسي ينقض رأيه ، لأن المسؤول عن ضعف هؤلاء الكاتبين إنما هم المدرسون الذين عجزوا عن إثارة مواهبهم وتوجيهها في الطريق الصحيح ، سواء في التعبير أو التفكير أو الترتيب .. وبرهان ذلك قائم في تفاوت هؤلاء حتى يكون بينهم من لا يضبط العبارة وفق أصول العربية ، ومن يتفوق حتى على أساتيذه في الكثير من خصائص العلم والبيان . وإذا كان من حق هذا الاضطراب أن يترك أثره لدى المشرفين ، فأقل هذا الحق أن يرد عمل الضعيف عليه ، حتى يعرف طريقه ، فلا يتساهل معه ولا يعطي على رديئه أجر الجيد ، وبالتالي لا يمنح حق المرورإلى مرتبة العلماء .

الانسان والجمال الفني

وشيء آخر وددت لو أتيح لي التذكير به أثناء الحوار ، وهو ضرورة التأمل الطويل في واقع هذه اللغات ، التي تجري المحاولات لإغراء أجيالنا الجديدة بها على حساب لغة القرآن ... لقد كان مرتكز الدكتور جاد في تنقصه العربية وترويجه للإنجليزية هو توهمه فقر العربية فكرياً ، واكتفاءها بالغنى اللفظي ، مقابل غنى الإنجليزية علميا واكتفائها من اللفظ بما يحقق المراد دون اهتمام بالألق التعبيري ... ولو هو أنعم الفكر في جوانب الموضوع لأراح نفسه من أكثر الذي قاله ، لأن لغة التايمس ليست فقط هذا الأسلوب الموضوعي المركز ، بل لها أيضا أساليبها الأخرى التي يطرب لها الإنجليز في شعر شكسبير وبايرون .. وعشرات الأدباء والشعراء .. ومثل ذلك أو أكثر يقال في لغة الفرنسيين ، التي لا تأخذ الموضوعية من أساليبها إلا الجانب الأقل ، وتبقى في سائرها ملتزمة طرائق الوجدانيين الذين لا يفصلون بين الفكرة والصورة ، بل

يعتبرون (الأسلوب هو نفس الانسـان) بما ينطوي عليـه مـن تصورات وأحاسيس وانتظام أو اضطراب • ولولا هذا التنوع في أساليب البيان الغربي لما عرف الناس الفروق ما بين الكلاسيكية والروماتتيكية والرومانسية والرمزيـة والبرناسية وما إليهن من مذاهب الأدب •••

إن الدعوة إلى الاقتصار على الاسلوب الموضوعي ، تتضمن في الوقت نفسه الدعوة إلى تفريغ النفس من كل خصائصها الذاتية ، حتى لا تتصل من الحيـاة بغير جانبها المادي المحدود بإطار الصناعات والرياضيات •• وحصيلة ذلك هو سلخ الإنسان نهائيا من الحس الجمالي ، ثم القضاء كليا على كل عمل يتصل بالفـن ••

هذا بالنسبة إلى الإنسان مطلقا •• على أنه بالنسبة إلى العربي المسلم أبعد أثرا من ذلك كله ، لأنه يعني استلابه خاصية التذوق الروحي لبلاغة القرآن إذ المعلوم ، بل المسلم به لدى كل ذي حس جمالي ، أن إحدى ظاهرتي الإعجـاز القرآني إنما تكمن في نظمه الذي به يتفوق على أساليب البشر كافة وإذا أمكن لحاذق نقل معانيه ، أو معظمها ، بالترجمة إلى أي لغة حية ، فمن المستحيل عليه تحقيق مثل ذلك في تعبيره • ولا تعليل لهذا العجز إلا بالخاصية التي تمتاز بهـا الجملة القرآنية ، فتجعل اللفظة العادية في كلام البشر متنزّلاً عجيبا في تركيبه الرّباني حتى لكأن كل حرف أو كلمة هناك تتفاعل مع الأخرى ، فتطلق مـن الأشعة غير المنظورة مالا يتوافر لها في غيره •• أشبه شيء بالطاقة التي يطلقهـا التقاء قطبي الكهرباء ، مما لا وجود له في أي منهما على حدة •• ولا جرم أن عزل القلب المسلم عن هـذا التفاعل مع نظـام القرآن خسـارة لا تعوضهـا تكنولوجيات العالم بأجمعها ، لأنها ستحيله يومئذ خرابا يعشش فيه الشيطان ويفـرخ ••

أمثلة من الغرب

ولعلي أكون أكثر إيضاحا لما أريد إذا ضربت لهؤلاء الأخوة مثلا بالشعر

الرمزي ... فالمنظومة من هذا المذهب تتألف من الألفاظ نفسها التي تركب منها العبارة الشعرية أيا كان لونها ومعناها ، ولكنها تختلف في تركيبها الرمزي من حيث الدلالة والأثر .. فبينما هي خارج هذا الحيز معان ذهنية في قالب مناسب، إذا هي هناك أمواج من الانفعال الشعوري تستولي على نفس القارىء بنغمها وايحائها ، فهو منفعل بها جملة دون أن يستطيع لها تحديدا .. ولو أن قارئاً حاول تجزئة الأثر الشعوري لقصيدة يول فرلين (أنشودة الخريف) مثلا لباء بالإخفاق، ذلك لأن جمال القصيدة إنما يتألف من نغمها المتموج في مجموعها ، فلا سبيل إلى فصلها عنه .

ويمكن سحب مثل هذا الحكم على منظومة من المذهب الاتباعي ، حيث تواكب الصناعة الفنية خطرات النفس ، فتتعاون جميعا على تكوين الأثر المشترك .. ولو أن ناقداً حاول تفكيك الروابط الفنية من قصيدة هوجو (ليلة على المحيط) ففصل ما بين أفكار الشاعر وأسلوبه البديعي فيها ، لقتل روحها جميعا . ذلك لأن جمال القصيدة لم يتأت من أحداثها ، التي يسهل عرضها في بضعة أسطر ، وإنما جاء من التماوج الفني بين مختلف عناصرها ، فجعل لكل ضرب من التحسين ظلاله المؤثرة فيها جميعها .. كشأن أبي تمام في أسلوبه الذي لا تنفصل فيه الفكرة عن الصناعة البديعية .

ولا عجب فالذي زين السماء الدنيا بالمصابيح، وأنبت في الارض من كل زوج بهيج ، وشد أبصار عباده إلى عجائب خلقه ، في السحاب المسخر بين السماء والارض .. هو الذي زود الإنسان بحسه الجمالي ، إلى جانب زاده من الفكر الرياضي .. فكانا له كالجناحين للطائر ، لا يعتري الخلل أحدهما إلا عاد بالوبال عليه .. فكل دعوة الى حجر البيان ، في نطاق الصياغة العلمية ، تغرير بالإنسان للتخلي عن أهم مصادر هناءته في هذه الأرض .. ولولا هذه النفحات الجمالية يستروحها الانسان من جنة القرآن ، وأفانين ، البيان لضاقت الأرض به على رحبها ، ولفقدت الحياة الإنسانية أعذب منابعها .

القصور في العرب لا العربية

الحق أن الزارين على لغة القرآن بسبب أساليبها الجمالية ، إنما ينقمون من الإنسان امتيازه الروحي بمدخرات المشاعر الدافعة إلى التسامي الروحي ••• متجاهلين علاقة لغته بخصائصه ، ومدى التفاعل بين ذاته وتعابيره فهم يريدون تعطيل طاقاته الوجدانية ، ليجمد عند حدود الإشارات المتحجرة ، حتى ولو اضطر إلى إلغاء لغته كلها ليقتصر على مثل لسان (الاسبرانتو) !•••

ثم ليس أظلم من ذلك إلا اتهام العربية بالعجز ، لأنهم لم يتيسر لهم ، من الإحاطة بكنوزها وقدرتها على الحياة ، مثل الذي مارسوه من لغات الآخرين •• وقد كان من الإنصاف لأنفسهم وأمتهم ألا يرسلوا أحكامهم على العربية قبل الإلمام بخصائصها ، والمراجع التي رصدت هذه الخصائص ، ثم تتبع أحوالها أثناء تفاعلها الحضاري ، ليعلموا بيقين أن هذه اللغة المقدسة على أتم الاستعداد لاستيعاب كل خطرات الحياة •

وأنه لمن أعجب العجب غفلتهم عن تلك الحقيقة الاجتماعية الضخمة ، وهي أن حركة اللغة مقترنة بحركة أهلها ، حتى لا يمكن التفريق بينهما البتة •• ودليل ذلك مشهود لديهم في تطور لغات العالم الغربي ، تلك التي ضاقت أصولها المحدودة دون استيعاب التغيرات الحضارية ، فعمد أهلها إلى توسيعها بالرجوع إلى جذورها التاريخية ، ثم باستعمال النحت والإلصاق وتأليف المصطلحات من أوائل الكلمات •• فإذا تراءى اليوم لبعض الأعين فقر في العربية أخرها عن احتواء التطورات الحديثة ، فليتذكروا على الأقل أن القصور في أهلها لا في معدنها •• وإلا فبأي حق يكلفونها السبق في ميدان لم يجربوا هم مواهبهم في جنباته !•••

على أن نظرة واعية إلى مصنفات المحدثين من جهابذة العربية في مختلف ميادين النشاط العلمي المعاصر ، تؤكد لهؤلاء الأخوة الغافلين مدى تجنيهم على هذه اللغة الحبيبة •• وتجعلهم يترددون طويلا قبل إصدار مثل تلك الأحكام الظالمة العجلى عليها ••

الاجنبية أيضا

ونعود الآن لنتم ما بدأناه من ملاحظات حول تعليم الأجنبية .. وكل ما أسلفناه من حديث إنما هو ضرب من تداعي الأفكار ، جرَّ إليه كلامنا عن ضرورة عزل التعليم عن زحام الإنجليزية . وقد قدمت بدائه الحجج على ضياع تلك الحصص الطويلة ، التي نشغل بها الطالب خلال المرحلتين المتوسطة والثانوية ، في دراسة لغة دخيلة لا تمنحه أي مردود علمي ، بل تعرقل نشاطه الذي يجب أن يوجهه للغته ودينه وتراث أمته ، الذي به تصون وجودها من الذوبان والتشتت في دروب الأمم .. وضربت المثل على ذلك الضياع بتلك الحقيقة التي نجربها كل عام بل وكل يوم .. وهي أن كل طالب يبتعث للدراسة في الغرب أول ما يواجه تجرده من كل قدرة على الدراسة الجامعية بحصيلة الهزيلة من اللغة الدخيلة ، فيضطر للالتحاق بمعهد خاص يعده لغرضه ابتداء من الخطوات الأولى . وقلت للحضور : لا بد أن يكون بيننا الآن من مارس هذه التجربة .. ممثلاً لفريق من الطلبة ، احدهما لم يتلق شيئاً يذكر من دروس الانكليزيةفي بلده ، والآخر حُمّل أوزاراً منها أثناء دراسته في المرحلتين السابقتين، حتى إذا انتهيا إلى الغرب تلاقيا على عتبة المعهد الذي أعدهما من جديد ... ومادام الأمر كذلك فلم نضيع ذلك الوقت الغالي من حياة أبنائنا في غيرطائل !.. اللهم إلا شحن صدورهم بشعور الصغار والتبعية ، التي توهمهم بل تقنعهم أنهم من أمة لا تملك أي رصيد حضاري، وإنما يخلق الفرد فيها ليجد نفسه مشدودا إلى عجلة أولئك الذين فرضوا سلطانهم على مرافق وطنه الإسلامي، ثم على ضميرها نفسه!..

وما أدري إذا كنت قد ذكرتهم بما أثبته في بحثي عن موقف المسلمين من لغة يونان أثناء العصر العباسي ، حيث استشعر قادة الفكر حاجتهم إلى الإلمام بما سبق إليه الإغريق — وغيرهم — من علوم لا غنى لهم عنها .. فلم يعالجوا تلك الحاجة بإدخال لغة القوم في مناهج مدارسهم وجامعاتهم ، ولم يربطوا نجاح أبنائهم بأن يحسنوا الرطانة بها ، بل أقاموا لها معاهد الترجمة ، تنقل من مصنفاتها ما يتراءى للمسؤولين أنه أنفع للمسلمين ...

وطبيعي أنها كانت صرخة في واد لم يكد يرتفع صوت بتأييدها ، لولا تلك الكلمات المحكمات التي عقب بها الاستاذ صالح الحصين ، رئيس ديوان مجلس الوزراء •• إذ أعلن بصراحته المألوفة ، المدعومة بالتجربة العميقة ، أن دراسة الأجنبية في متوسطات هذه البلاد وثانوياتها ، وبخاصة في تعليم البنات ، لا تزيد عن كونها من المعوقات المضيعة للأوقات •• وأكد ما ذهبت إليه من أن الذين شخصوا الى الغرب دون زاد من الإنجليزية كانوا أقدر على تداركها من أولئك الذين أهدروا الكثير من أيامهم في تلقيها من غير بيئتها •

وسرعان ما رجعت بذاكرتي ، وأنا أستمع إلى كلمة الأستاذ صالح حول اللغة الأجنبية ، إلى كلمة سبق أن استمعتها من أخ له هو الأستاذ سعد الحصين، رئيس التعليم الثانوي بوزارة المعارف ، أدلى بها في لجنة المناهج ، أثناء مؤتمر (اعداد المعلمين) الذي عقدته جامعة الملك عبد العزيز في مكة المكرمة ، فكانت هي الوحيدة التي جاءت يومئذ مناصرة لما ذهبت إليه ، من ضرورة استبعاد الأجنبية عن مناهج إعداد المعلم الابتدائي ، على اعتبار أنها جهد لا مردود له ، ولا حاجة للمعلم إليه عندما يتولى مهمته في تلك المرحلة •••

والحق أن شهادة مثل هذين جديرة بأن تعزيني عما واجهه اقتراحي ذاك من إهمال في كلا المؤتمرين •••

ولا أنسى هنا ذلك الحوار الحار الذي ثار بين الدكتور احمد العسال ، من جامعة الرياض ، والدكتور عبد الوهاب أبو سليمان من جامعة الملك عبد العزيز ، حول ما جر إليه البحث من آثار الحضارة الغربية على أخلاق المبتعثين ودينهم ، إذ توهم الأخير أن الاول يعمم حكم الفساد على كل مبتعث ، فثار بهذا الرأي ، وراح يلح على تفنيده ويحتج لمراده بما ذكره عن طلبة سعوديين كانوا لا يكتفون بأداء المكتوبة حتى يضموا إليها النوافل •• وما كان العسال لينكر هذه الحقيقة ، وما كان ليقصد إلى التعميم الذي تخيله صاحبه ، وإنما أراد الإشارة إلى الطابع الغالب ، المتمثل في معظم

العائدين من الغرب ، يحملون إلى أمتهم جراثيم التشكيك والانحلال والإلحاد ، ولولا ضيق المجال لذكرت لهم قصة ذلك الطالب الذي يحضّر للدكتوراه في أميركة ، وقد قدم بلده زائرا قبل قليل ، فأخبرني حموه ــ وهو يكاد يبكي ــ أنه يدعو أهل بيته إلى الكفر برسالة محمد ، في مدينة محمد ﷺ !.. ثم قصة ذلك الآخر ، الذي حدثني عنه الدكتور محمد المهدي ــ المدرس في (أبو ظبي)ــ إذ لقيته في طريق عودته من أميركة إلى هذه المملكة ، فكان مما صارحه به ذلك الدكتور المتأمرك أن أبغض شيء إليه هو الإسلام والداعون إلى الإسلام !..

ومهما يكن فالحوار على حرارته بين الأخوين العسال وأبي سليمان كان بين فكرين مؤمنين ، ما لبثا أن تلاقيا على الهدف الأعلى ، وما إخال أن أحداً منا يستطيع أن ينسى الاثر المشكور للدكتور العسال وزميله الدكتور محمد رشاد سالم في إنجازات اللجنة وانتظام مسيرتها .

الخير الذي تقرر

على أن المفاجأة الغريبة ، التي بوغتنا بها في أعقاب تلك المناقشات غير القصيرة ، هي اختفاء أهم المقررات التي اتفقت عليها لجنتنا ، مما يتصل بحماية العربية وآدابها الرفيعة ، والعمل على نشرها وتعزيزها في الاقطار الإسلامية ، وبوجه خاص ما يتعلق منها بتعريب الإعلام حتى لا يترك فيه مجال لغير الفصحى.

ولقد حاولت إثارة هذا الموضوع ، في الحفلة قبل الأخيرة ، عندما تيقنا غياب تلك المقترحات عن الكراس الذي ضم توصيات اللجان .. ولكن المسؤولين عن التنظيم رأوا بعد عرض العديد من موادها ، أن الأجدى على العمل إحالتها إلى لجنة خاصة تعيد النظر في صياغتها من جديد .. وترك لكل عضو من المؤتمرين أن يكتب بملاحظاته إلى هذه اللجنة .. ومع يقيني ألا أمل بتدارك ما فات ، رأيت ابراء للذمة أن أذكر اللجنة بالمقررات الغائبة ، توقع أن يكون السهو هو الذي ذهب بها . ثم جاءت الصياغة الجديدة ، فإذا هي هي لم يتغير منها إلا اليسير ، وليس بين هذا اليسير أي أثر لما افتقدناه .. اللهم إلا بعض

الاستدراكات اللغوية أشرت اليها في رسالتي إلى اللجنة . على أن من الإنصاف القول بأن في ما تبقى من توصيات اللجان ، بعد كل الذي تناولها من تعديل وتغيير ، خيرا كثيرا ، لو انتهى ربعه إلى عالم الواقع لاعتبر نجاحا عظيما لهذه المملكة ، بل للعالم الإسلامي بأسره .

قفزة خطيرة

وإني لأكتب هذه المذكرات بعد أكثر من شهر على هاتيك الوقائع ، ومن شأن هذا الزمن أن يمحو الكثير من انطباعاتي عنها ، وأن ينسيني ما كان ينبغي أن أذكره ، ولكن مهما أنس لا أنس ذلك الانفعال الذي اعتراني وأنا أستمع إلى الفقرة الخاصة بتعليم الفتاة السعودية ، يتلوها الدكتور المكلف قراءة التوصيات.

لقد كررت هذه الفقرة ما تضمنته سياسة المملكة من إعطاء الفتاة كل الحقوق التعليمية ، التي تلائم فطرتها ، في نطاق المبادىء الإسلامية ... وكنت قبيل ذلك وفي أحد أعداد الصحيفة التي أصدرتها الجامعة لهذه المناسبة لتصوير نشاط المؤتمر باسم (رسالة الجامعة) قرأت خبرا استوقفني طويلا ولم أجد أفضل من هذه المناسبة للتعقيب عليه ، فطلبت الكلام ثم قلت : الذين أصغوا إلى توجيهات معالي وزير المعارف في كلمة الافتتاح ، وإلى ندوة أصحاب المعالي الوزراء الآخرين حول رسالة الجامعة ، يفهمون أن الإسلام هو المنطلق الذي عنه تصدر سياسات الدولة كلها في مختلف الأصول والفروع .. والآن نسمع في هذه الفقرة توكيداً لهذا الاتجاه في قضية تعليم المرأة ، إذ تحدد مجراه في حدود ما يلائم فطرتها وإسلامها ... وبإزاء ذلك أجدني مضطرا لطرح هذا السؤال : من الذي يحدد المجال الذي يلائم فطرة الفتاة ويتفق مع مبادىء الاسلام ؟!...

وبعد صمت يسير سمعت صوتا يهتف بحماسة : إن الجواب على سؤالك موضح في سياسة الدولة التعليمية .

قلت : ان سياسة التعليم هذه بمثابة الدستور الذي يحدد أسس النظام ،

ثم تأتي القوانين مفسرة له .. وعلى هذا لا بد من تعيين الجهة التي تملك حق هذا التفسير فتبين ما الذي يبيحه الإسلام من تعليم المرأة وما الذي يحظره .

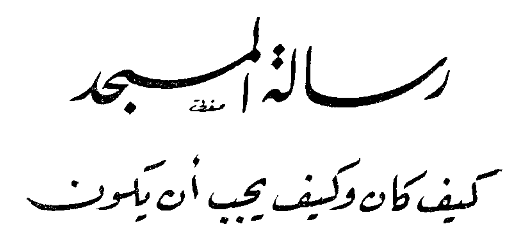
ومعلوم أن كل اقتراح بقانون في ظل الأنظمة الشورية لا يعتبر صالحـا للمرور مالم توافق عليه لجنة الدستور ، بعد التحقق من عدم مخالفته إياه . والمفروض أن دار الفتوى ومجمع كبار العلماء في المملكة ، هما الجهة الصالحة لتعيين حكم الإسلام في نوع التعليم الذي يقدم للمرأة ... ولو ترك هذا الأمر لغير ذوي التخصص بالشريعة ، وبخاصة من حملة الثقافة الغربية وحدها ، لتعطل نظام الإسلام نهائيا في مجالات التعليم وغير التعليم .

واستمر الصمت سائدا جو القاعة .. حتى عاد الصوت نفســه ليقول : الإسلام ... الإسلام لا يغلق في وجه المرأة بابا للعلم ..

قلت : حسنا .. لقد قرأنا في صحيفة (رسالة الجامعة) أن كلية التجارة قد فتحت ذراعيها للفتاة السعودية .. وقد علمتنا تجارب الأقطار الإسلامية ، التي سبقت إلى هذا الطريق أن مصير الفتاة المتخرجة في هذا التخصص هو أن تكون سكرتيرة أو محاسبة في مصرف ، وما إلى ذلك .. أفهذا مما يلائم فطرتها ويتفق مع اسلامها !.

ولم يجد صاحبنا .. عبارة تصلح للجواب سوى تكرار كلمة الإسلام... الإسلام .. كأنه يريد أن يحمل الاسلام تبعة هذا الاتجاه .. وتطلعت حولي علّي أجد من يتحفز لمؤازرتي .. لكن عبثاً .. على الرغم من أن عدد الزملاء من أصحاب الفضيلة لم يكن قليلا ... فقلت لنفسي : ألا يسعك ما وسع هؤلاء الأخوة ؟!.. وسكت ، وأنا واثق أن القفزة كانت أوسع مدى وأشد خطرا من أن يتحمل مسؤوليتها الإسلام .

* * *



قـــدم الى المؤتمـر المنعقـد في
رابطة العالم الاسلامي بمكة المكرمـة
سنة ١٣٩٦ هـ



في رأس الحقائق البديهية أن عبـادة الله هي المهمة الاولى للثقلين الجن والإنس ويؤكد ذلك قوله تعالى : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) فهاهنا قصر الخلق على صفة العبادة وحدها ، فكأنه لا غرض من وجود الجن والإنس سوى عبادة الخالق وحده وبذلك يصبح مفهوم العبادة أوسع مدى من الشعائر الخاصة كالصلاة والصوم والزكاة والحج وما إليها مما يدخل بداهة في هذا النطاق ، حتى يتناول كل تحرك يأتيه الإنسان في حياته ، فلا يستثنى من ذلك طعامه وشرابه ومختلف تصرفاته ، إذ المفروض أن هذا الإنسان على وعي تام لسلطان الخالق ومراده من خلقه ، فلا يأتي شيئا أو يذر شيئا إلا وفق الأفضل والأرضى له .. ومتى استوفى الإنسان هذه الصفة كان عبداً ربانياً ، وكان كل تحرك له عبادة لله خالصة .

ولقد تكاملت هـذه الخصائص العليـا في شخص محمد رسول الله ﷺ وفي رسالته الخاتمة ، فكانت الأرض كلها له مسجداً وطهورا ، وكان كل عمله من ثم تحقيقا لفضيلة العبودية الخالصة لله القائم على كل نفس بما كسبت ..

والإسلام بناء متتام الأجزاء ، أول أركانه بعد شهادة الحق الصلاة ، التي عدها رسول الله ﷺ عمود الدين ، وكما تنهض على العمود عوالي البناء ، هكذا كانت الصلاة الصحيحة منطلق البواعث المحركة لقناعة الفرد في طريق الحيـاة السعيدة ، تسكب روحها في كل تصرفاته .. ومن هنا كان للمسجد أثره العظيم في تكوين المجتمع الإسلامي الأمثل ، ولهذا السبب رأينا أول عمل يقوم بـه رسول الله ﷺ بعد استقراره في المدينة هو تأسيس مسجد قباء ، ثم إنشـاء مسجده المبارك ، الذي شارك بنفسه في بنائه مع صحابته الأكرمين .

من هذا المسجد المبارك تفجرت ينابيع العلم والهدى وأصول الحضـارة المثلى ، التي مالبثت أن عمت العالم فغيرت معالمه ، وشقت له الطريق إلى تاريخ لا عهد له بمثله من قبل .

وأدرك الرعيل الأول عظم الأمانة ، فتزود لها بكل ماوسعه من معاني الوحي حتى كان الواحد منهم يغشى سوق المدينة ، فيخشى أن يشغل المسلمون بصفقاتها عن ذلك الخير الأكبر ، فيهيب بهم : أن هلم إلى مسجد رسول الله ﷺ ليشاركوا في ميراثه الذي يتقاسمه الناس هناك[1] ... وما ميراث النبوة سوى العلم الذي به سيشقون الأعين الكمه ، ويفتحون القلوب الغلف ..

لقد بدأ هذا المسجد مهامه في تنظيم المجتمع من أول يوم ، فكان أشبه بمحطة الكهرباء ، تمتد أسلاكها إلى كل ناحية ، فتضيء وتحرك وتزود الجميع بكل نافع ..

في هذا المسجد تلتقي الجماعة المؤمنة للصلوات الخمس خلف إمامها الأعظم ﷺ فتتعلم منه كيف تؤديها بالخشوع الذي يُحقق أهدافها العليا ، وفيه تنتظم حول هاديها لتتلقى منه تعاليم السماء ، التي تدربها على تنظيم مسيرتها في الطريق اللاحب الذي لا يعتري سالكه ضلال وإلى هذا المسجد تهرع الجماعة المؤمنة كلما دعاها إمامها إلى (صلاة جامعة) تطرح في أعقابها المشكلة أو المشكلات الطوارىء ، ليشاركوا في معالجتها بما أوتوا من خبرة وإخلاص لدينهم ولمصلحة مجتمعهم ، فيكتسبوا بذلك الدربة التي تعوزهم لضبط سلوكهم في نطاق الخير العام ، ومن ثم لقيادة الأمم التي سيستخلفهم الله على إصلاحها وتوجيهها في قابل الأيام .

من هذه الأصول الأولى تعرف المسلمون أهمية المسجد في حياتهم ، فكان لهم على مر الدهر المعبد الذي فيه يجتمعون لإقامة الصلاة ، والمدرسة التي يتلقون فيها علم الدنيا والآخرة ، والندوة التي يبحثون في ظلها معضلاتهم اليومية والاسبوعية ، والمركز الذي يتدربون فيه على تطبيق معاني الإسلام في سلوكهم الفردي والاجتماعي والسياسي والملاذ الآمن الذي يعمق بينهم روابط الأخوة ،

(١) مضمون حديث حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه ..

ويفتتت الفوارق التي يحدثها اختلاف المنازل الاجتماعية بين الناس ، فيعودون كما يريد لهم الاسلام خير أمة أخرجت للناس ، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله ، أمة تجمعها أخوة الايمان ، ويتساوى فيها الأفراد في حق الكرامة والعدالة والحياة ، فلا يستكبر فيها قوي على ضعيف ، ولا يذل ضعيفها لقوي ، لأن كلهم أذلة للمؤمنين أعزة على الكافرين ...

جامعات شعبية

وهكذا أخذ المسجد سبيله في ضبط المسيرة الإسلامية حتى لقد كانت المساجد الجامعة في صدر الإسلام تؤدي بجانب رسالتها الدينية عدة مهام ، فمن على منابرها تذاع أوامر الدولة وتوجيهاتها وفيها تنعقد مجالس القضاء للحكم بين النـاس .

(وقد شاهد ناصر خسرو في جامع عمرو بن العاص رضي الله عنه) محرري الصكوك والعقود ، كما رأى فيه مجلس قاضي القضاة ويقول : إنه كان في الزيادة الغربية من المسجد ، كما كان فيهـا مجلس قاضي الحكم الشافعي ، ومجلس القاضي المالكي ...)

وكذلك عاين ابن رستة ، وهو من رجال القرن الثالث الهجري ، بيت المال الخاص بحفظ أموال اليتامى في هذا المسجد نفسه ، ووصفه بأنه كان أمام المنبر ، وأنه شبه قبة عليها أبواب من حديد ، ثم نقل إلى صحن المسجد . وحتى اليوم لا يزال البناء الخاص ببيت المال قائما في الجامع الأموي بدمشق ، وفي الجـامع الكبير بمدينة حماة وإن هو قد خلا من كل مال ...

أما الجانب التعليمي من حيـاة المسجد فلا يزال من أبرز مقوماته بعـد الصلاة ، على الرغم من كل العوائق التي اعترضت طريق الإسلام ، وبخاصة في أيامنا هذه . وقلمـا ترى مسجدا في قرية أو مدينـة لا يقوم فيـه مدرس أو مدرسون ، أو مقرئون يعلمون صغار المسلمين كتاب الله حتى الساعة .

إنها بقية من ماض مجيد ، كان المسجد فيه يتخـذ صفة الجامعة الشعبية مفتحة الأبواب لكل راغب في المعرفة ، لا تقيده بدوام ، ولا تفرض عليه مادة دون أخرى ، بل تفتح لمواهبه سبيل الانتخاب الطبيعي ، فينتقل من حلقة إلى أخرى ، حتى يستقر في الاتجاه الذي يتلاءم مع استعداده ، وبهذه الطريقة أتيح للمسجد أن يخرج أكبر العباقرة الذين تسنموا مقاعد الامانة في الدنيا والدين ••

ولقد زاحمت المدارس والجامعات النظامية مدرسي المساجد منـذ مطلع العصر العباسي ، ولكن المسجد لم يتخل عن مهمته لها ، بل جعل يضاعف من نشاطه بما واجه المسلمين من البدع والفتن والمذاهب التي أحدثتها الفلسفات الوثنية ، فكان كطوف النجاة وسط الخضم الهائج ، يفنـد الباطل ، ويدعم الحق ، ويعلي رايته فوق كل راية ••

ولعل عهود المماليك كانت أحفل عهود الاسلام بالنشاط المسجدي في الشام ومصر ، إذ أقبلوا يتنافسون على عمران المساجد ، والتفنن في رعايتها وتقويتها • فكان لكل مسجد جامع ملحقاته من الحجرات والمكتبات ، يأوي إليها أهل العلم من طلبة وأساتذة ، فتجري عليهم المساعدات السخية الثابتة لتوفر لهم العيش الكريم ، فلا ينصرفون عن العلم إلى البحث عن الخبز •

وما كاد المسجد يفقد بعض مميزاته في عهود الدول المتتابعة ، حتى أطل بوجهه الجديد من عاصمة الخلافة العثمانية ، يحيي ما اندرس أو كاد يندرس من نشاطه المبارك في خدمة المجتمع المسلم •

يصف أحد المستشرقين أثنين من مساجد العاصمة فيقول : (في عهد العظمة التركية كان المسجد مركزا اجتماعيا • فمسجد محمد الفاتح مثلا كان على جانبيه كليات وفندق ومستشفى ومركز لتوزيع الطعام ، وعلى رابية أخرى كان يربض أوسع المساجد إطلاقا وهو مسجد سليمان القانوني ، الذي كان حوله عشـر مؤسسات منها كليات أربع ، والمدرسة لم تكن خاصة بالدين ، بل كانت وحدة

للسكن ، وكان المسجد نفسه قاعة للدرس والمحاضرات وكان بوسعك أن ترى لعهد قريب أساتذة في صحن المسجد خلال الصيف ، وفي المسجد نفسه اثناء الشتاء ، يدرّسون جماعات صغيرة من الطلاب .

بين أمس واليوم :

أجل ... إن المسجد لم يفقد حتى اليوم تأثيره في حياة المسلمين فهو لا يزال قائما لاستقبال المصلين ، ولا يخلو في كثير من الأحيان والبلدان من مكتبة صغيرة تمد المصلين بنسخ من كتاب الله للتبرك ببعض التلاوة ، وقد تحتوي بعض الكتب الإسلامية الأخرى تبرع بها بعض المحسنين ، دون تفريق بين النافع منها وغير النافع ...

على أن قليلا من التأمل في أوضاعها على ضوء الغاية العليا التي من أجلها وجد المسجد في الإسلام يؤكد لنا أن ثمة فجوة هائلة تفصل بين مسجد اليوم ومسجد الأمس .. لا من حيث بناؤه وشكله وأثاثه ، فقد توافر لمسجد اليوم من ذلك الشيء الكثير ، ولكن من حيث الروح الذي يجب أن يهيمن على واقعه ، فيجعل منه منطلق حياة وتكوين وتوجيه ..

لقد جرد المسجد الحديث من الطاقات التي تمكنه من العمل في بناء الفكر والقلب وتصحيح المفهومات الخاطئة . فقلما تجد على منبره الخطيب المزود بسلاح العلم الواسع واذا وجد فقلما تجد لديه الإخلاص الذي يجعل الحق أعلى وأعلى في قلبه من الحياة ــ الا من رحم الله ــ .

لقد سيطر الرعب على خطيب المسجد ومدرسه وضاقت في عينيهما سبل الرزق ، فلا يريان سبيلا للوصول إليه إلا بإرضاء المتسلطين على مرافق الحياة ، ممن لا يقيم وزنا لدين الله ولا يعرف حقا لشريعة الله .. ويكاد أن يكون هذا هو واقع المسجد في معظم ديار المسلمين ، إلا من رحم الله ..

ولا عجب في ذلك مادام المسلمون في تلك الاقطار محكومين بغير نظام

الإسلام ، فكل محاولة لتوعيه المصلين ، وتزويدهم بحقــائق دينهم ستصطدم برغبات المخالفين لها من أصحاب السلطان وأعوانهم ، ممن باعوا أنفسهم للشيطان بأبخس الاثمان ..

فكيف إذا أخذنا بعين الاعتبار نوعية الخطباء والمدرسين الذين يقع اختيار أولئك المتسلطين عليهم ، حيث يكونون من المرتزقة الذين لا يهمهم إلا منافعهم العابرة ، فلا يتورعون عن أن يجعلوا الحق باطلا والباطل حقا ، والظالم عــادلا والصــالح باغيــا ..

التطور المدمر :

إن الإسلام في توكيده على عمران المساجد إنما يستهدف من ذلك توفير وسائل التوعية الدائمة التي لا مندوحة عنها لإقامة المجتمع الصالح .. المجتمع الذي يعرف كل فرد منه ماله وما عليه ، ذلك لأن الجماعة المسلمة هي المادة التي منها تتكون دولة الإسلام ، وهي القاعدة التي عليها ترتكز ، وإذا كانت وظيفة المجتمع المسلم ــ شعبا ودولة ــ هي تبليغ رسالة الله وإقامة الحكم الأفضــل فطبيعي أن يجد هذا المجتمع من الرعاية والحرية ما يمكنه من تحقيق واجبه في الاستعداد للنهوض بأعباء هذه الرسالة في نفسه أولا ، ثم في أوساط الشعوب الأخرى ثانيا ..

ولا شيء أفعل في تحقيق هذه المعاني في قلب المسلم من كلمة الحق يسمعها في بيوت الله مؤيدة بآيات الوحي من كتابه وسنة رسوله ﷺ ولا أدل على ذلك من توكيد الشريعــة على حضور الجماعة في صلوات النهــار الخمس وظهيرة الجمعة ، وايجاب صلاة العيدين على كل مكلف من ذكر وأنثى ، حتى الحيض والعواتق كيلا تفوتهم المشاركة في شهود الخير ، والتفاعل مع روحانية الجماعة ، لتستمر للفرد صلته الوثقى بأمته وملته ، فتظل الأفكار متقاربــة ، والأذواق متناغمة ، فلا يجد الشيطان مجالا للتسلل إلى وحدة الصفوف ..

تلك هي رسالة المسجد في أوضح صورها ، وحين تؤدي هذه الرسالة على الوجه الصحيح ، لن يتعرض المجتمع الإسلامي لمثل هذه الهزات التي تهب عليه من كل صوب ، حاملة إلى أجيـاله جراثيم التشكيك والتخريب تحت مختلف الأسماء والعنوانات ...

ولكن المسجد أوشك أن يفقد سلطانه على النفوس بعد هذه التطورات التي سلخته من معظم مقوماته ، وسلطت عليه حتى من لا يؤمن برسالته ، فهـو اليوم في جل ديار المسلمين أداة شلاء لا يكاد يؤدي أي وظيفة اجتماعية هادفة ، بل لا نغالي إذا قلنا : إنـه بما يعتوره من المعوقات المختلفة ، لا يزيـد الواقع الاجتماعي إلا بلبلة واضطرابا ..

لنبدأ من هنا :

على ضوء هذه الاحداث وجدتني وأنا أهم بكتابة هذا البحث ، أتساءل : ما الحصيلة التي سيرجع بها المجتمعون في هذا المؤتمر إلى بلادهم ؟... وإلى أي مدى يمكنهم أن يضعوا مقرراتهم في حيز التنفيذ ؟....

لقد تكررت المؤتمرات التي عقدت لعرض أحوال المسلمين ، ولدراسـة أوضاعهم على مختلف المستويات ، وإن في مقرراتها الكثير من العلم والخير ... غير أني أتطلع في كل اتجاه لأرى آثارها العملية فلا أكاد ألمح شيئا ... ولا جرم أن اجتماعا يعقد لتصحيح أوضاع المسجد والمسجديين جدير بكل تقدير واهتمام، إذا كان من شأنه تغيير هذا الواقع الذي انتهى إليـه المسجد وأهله .. ولكن ما السبيل إلى ذلك وهو الذي لا سبيل اليه إلا عن طريق الذين لا يريدون هذا التغيير ...

في اعتقادي أن أعظم خدمة نقدمها لإحياء رسالة المسجد هو أن نبدأ هذا التصحيح في مساجد هذه المملكة أولا .. فإذا نجحت المحاولة هنا كانت الخطوة التالية اقناع الأقطار الاسلامية الأخرى بنقل هذه التجربة الى مساجدها .

إن المملكة السعودية هي البيئة الإسلامية المتميزة ، ففضاؤها إسـلامي صرف ، وتعليمها لا يزال مرتبطا بأهداف الإسلام ، ونشاطها الإسلامي لا يكاد يفوته جانب من أرض المسلمين وفي إمكاناتها المادية ولله الحمد ضمان لإنجاح أي مشروع إسلامي من هـذا النـوع .. فلتكن هي المنطلق الأول لتحقيق الأنموذج الأفضل الذي تتطلع إليه أبصار المصلحين وبصائرهم ...

لقد كتب الكاتبون ، وألف المؤلفون ، وخطب المحاضرون ، وتغنى الشعراء الإسلاميون بعظمات الإسـلام وإمكاناته العجيبة لاصلاح الانسان ، وبنـاء الأوطان ، وإقامة الحكم الصالح وإعطاء البشرية أفضل الأنظمة في السياسـة والاقتصاد والعدالة ... ولكن شيئا من ذلك لم يترجم إلى نطاق العمل المنظور خارج هذه البلاد حتى الآن . لذلك ستظل هـذه الكنوز حديثا ماتعا يسلي القارىء والسامع ، على حين أن المسلمين ، ومن ورائهم العالم كله يظلون أحوج مايكونون إلى رؤية هذه الكنوز بارزة في متناول الأيدي والأبصار . فمتى يتاح لهذه الحقائق الإسلامية أن تحتل مكانها في عالم الواقع ، ليقتنع العالم أن لدينا مانقدمه لانقاذه من مهامه الضياع !..

إن الضمير الانساني يطالب المسلمين بإقامة أنموذج صحيح للمجتمع الذي يستطيع الإسلام أن يبنيه بإمكاناته الخاصة وحدها ، فيكون مجتمعا ربانيـا يحكمه نظام الإسلام في كل شيء ، دون أن يسمح للتيارات الدخيلة بأي تأثير في خصائصه العليا ، حتى يكون حجة الإسلام على العالم ، الذي مزقته التجارب البشرية المقطوعة عن طريق الوحي ....

وما لم يتفق المسلمون على هذه الحقيقة ، وما لم يتقدم من الشـعوب الإسلامية من يحقق هـذا الأنموذج ، فسيظل كماخض الماء ، لا يتجاوز حدود الأحـلام .

المسجد الذي نريده :

أما المسجد الأنموذج الذي تتطلع إليه أبصار المفكرين فهو الذي توافرت فيه كل الوسائل المساعدة على استعادة منزلته وتحقيق رسالته التي أنشىء لها من أول يوم أول مسجد أسس على التقوى •

ولن يكون المسجد كذلك إذا قصرنا العناية فيه على الشكل دون المضمون •• أو على المضمون دون الشكل •

إن الذي قدح فكرة إصلاح المسجد في قلوب المصلحين هو شعورهم بحاجة المجتمع العميقة إلى مؤثرات هذه المؤسسة الإسلامية الهامة • ولا بد في تحقيق هذه الغاية من مراعاة التطور الاجتماعي الذي تعيشه الإنسانية في كل مكان وزمان • ومن موحيات ذلك التطور أن يكون المسجد وحدة اجتماعية متكاملة ، تؤمّن لمرتاديها كل متطلباتهم الروحية والعقلية ، وحين نفعل ذلك لن نبتعد كثيرا عن أوضاع هذه المؤسسات في ظل الخلافة العثمانية أو عهد المماليك مثلا ذلك لأن أولئك الذين انشؤوا تلك المساجد ، وأحاطوها بالمرافق الاجتماعية المختلفة ، إنما صنعوا ذلك بحافز من الوعي التام لرسالة المسجد في نطاق الحاجات الاجتماعية الطارئة ••

وعلى هذا فالمسجد الذي يراد أن تتمثل فيه الوحدة الاجتماعية المتكاملة هو الذي يجد فيه المصلون ، على اختلاف سوياتهم كل الفرص التي يستطيع توفيرها ناد مزود بكل المرغبات الصالحة ••

إن قاعة الصلاة جزء من هذه الوحدة ، يفيء إليها روادها كلما دعا إليها الداعي في أوقاتها الخمسة ، ثم مكتبة عامرة بأفضل المؤلفات الإسلامية في شتى العلوم والفنون ، على أن يعنى فيها باختيار الطبعات الرائعة من كتاب الله ، فلا تقع فيها العين ولا اليد على تلك المصاحف التجارية ، التي طبعت أردأ طبع ، وجلدت أسوأ تجليد ، فلا يتكرر لمسها حتى تتفتت ، وتتحول إلى ركام من الأوراق الممزقة •

ثم تُلحق بهاتين القاعتين ثالثة للجلوس يجتمع فيها أهل الفكر من أبناء المحلة أو زوار الوحدة حيث يُتداول الرأي في أمور وأحوال روادها وما ينبغي عمله لاستمرار تقدمها وازدهارها ، على أن تكون من السعة بحيث تصلح لإلقاء المحاضرات ، وإقامة الندوات تحت اشراف المسؤول عن الوحدة •

وسيكون من الإحياء للسنة إجراء عقود النكاح في هذه القاعة ، ليحضرها رواد المسجد والمكتبة والمجاورون ، فيكون ذلك مدعاة لتقوية الروابط بين أهل المحلة ، وأفضل وسيلة لمكافحة السرف الذي اعتاد الناس أن يتنافسوا به في مثل هذه المناسبات •

ولن ننشد المستحيل عندما نتمنى أن تكتمل هذه الوحدة بإضافة مستوصف يتناسب مع حاجة البيئة ، يقوم عليه طبيب أو أطباء ، بصورة ثابتة أو بالتناوب بين أطباء يخصصون بعض وقتهم لخدمة المترددين على هذا المستوصف على أن تصرف لهم الأدوية الأولية من الصيدلية الملحقة به ••

إن مركزاً إسلامياً كهذا من شأنه أن يقـدم لبيئته أجل الخدمات ، ويهب للإسلام أفضل نماذج الدعاية ، التي تعرّف الناس قدراً غير قليل من جمال هذا الدين الذي يهدي للتي هي أقوم ، ويهيب بالمؤمنين أن يتعاونوا ــ دائماً وأبداً ــ على البر والتقوى •

على أن كل مجهود يبذل لتوفير هذه المصالح سيظل أبتر معرضا للخلل فالزوال ، إذا لم توجه مثل هذه العناية إلى نوعية الرجال الذين سيشرفون عليها•

ولهذا نرى أن أول الشروط التي على أساسها يختارون هو الكفاية الخلقية ثم الكفاية العلمية • فما ينبغي لغير مؤمن بهذا الدين أن يعهد إليه بالإشراف على المسجد وملحقاته ولا يصح أن يوسد أمرها إلى خبير عليم اللسان فاسد الجنان ، لأنه واحد من زمرة الشياطين الذين يفسدون في الارض ولا يصلحون • كما أنه سيكون من الجناية على المشروع أن يعين لها الدراويش من ذوي التقوى ، الذين

لا يملكون نصيبا وافيا من العلم العاصم ، لأن تولية أي من هؤلاء سيكون نذيرا بدماره حسب منطوق الحديث الصحيح : (إذا وسد الامر إلى غير أهله فانتظر الساعة) وقد فهم أولو العلم أن المراد بالساعة ساعة خراب الامر •

إن المسجد الجديد لا يصلح إلا بما صلحت به أوليات المساجد التي أسست على تقوى من الله ، وفي رأس ذلك الجمع بين العلم والإيمان ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بإصلاح أوضاع المشرفين الأعلين على مصاير المساجد في بلاد المسلمين ، فـلا يرفع إلى تلك المناصب من لا خشية عنده لله ، ولا غيرة على حرمات الإسلام • وإني لأكتب هذه الكلمة وفي رأسي ذكرى يوم رافقت فيه أحد مديري الأوقاف في بلد مسلم الى أحد المساجد التاريخية ، وهناك ادركتنا صلاة العصر فإذا هو يستعجل بفراقنا لأنه لا يريد الصلاة ــ أو لا يعلم كيف يصلي ــ وما أكثر هؤلاء في معظم ديار المسلمين ، ولا حول ولا قوة إلا بالله •

نعم •• لا بد من التركيز على نوعية الخطيب والمدرس والإمام والمشرف العام • فكم من إمام لا يحسن إقامة الآية من كتاب الله ، وكم من خطيب لا يصلح إلا للتنفير من دين الله وكم من مدرس يعلم الناس الخير ، وهو غارق بالفساد إلى صماخيه •••

لقد آن للمسؤولين عن رعاية المساجد أن يحسنوا لها الاختيار ، فلا يقل مؤهل الإمام والخطيب عن الشهادة الثانوية الشرعية في أوساط القرى والبوادي وأما المدن والحواضر فلا يصل إلى هذه الأعمال امرؤ يقل مؤهله الدراسي عن مستوى الإجازة من احدى الكليات الإسلامية وذلك بعد الاستيثاق الكامل من مؤهله الخلقي •• على أن هذا يقتضي أن نوفر للعاملين في خدمة المسجد كـل ما يؤمن لهم الحياة الكريمة ، سواء من حيث المرتبات أو المساكن • وقد درج بعض المحسنين أن يلحقوا بالمسجد منزلاً خاصا للامام والخطيب ، وانها لسنة يجدر بالمؤتمر ألا يغفلها •

وإذا كان هذا صحيحا بالنسبة إلى كل مسجد في أي مكان ، فهو أحق بالتحقيق في المسجد الأنموذج ، الذي يراد له أن يكون منارا للهداية ، ومنطلقا للدعوة إلى دين الله بين مختلف عباد الله .

المراكز الاسلامية :

وبحث كهذا في شأن المسجد لا يستكمل عناصره مالم نلق من خلاله نظرة إلى ما يسمى اليوم بالمراكز الإسلامية المنشآت خارج أقطار المسلمين ...

إن لبعض هذه المراكز نشاطاً ملحوظاً في خدمة المسلمين وفي الدعوة إلى الإسلام وقد حقق هذا البعض بفضل الله غير قليل من النجاح في أوساط الجاليات الإسلامية ، وطلاب الحق والخير من غيرها ...

بيد أن من الملاحظ أن أكثر هذه المراكز نجاحاً في خدمة الإسلام هي التي يقوم على خدمتها عناصر حرة من الشباب المؤمن ، الذي لا تقيده وظيفة رسمية ... ففي ظل هؤلاء الأحرار يُحْسَنُ عرض الإسلام لجاهليه من الأجانب ، وتنظم برامج تعليم لصغار المسلمين ، ممن لا يتاح لهم معرفة شيء من دينهم ، إلا عن طريق هؤلاء المتطوعة .

على حين نرى المراكز الأخرى التي تتولى أمرها قيادات رسمية لا يهمها من أمرها إلا تحقيق الدعاية السياسية التي تفرضها الدولة .. ومن هنا رأينا مراكز تنفق عليها الأموال الطائلة ، ثم لا مردود لها سوى زيادة البلبلة في أوساط الجاليات الإسلامية ..

ولقد حدثني زميل فاضل تولى إمامة أحد هذه المراكز من قبل هيئة خاضعة للحكومة فلم يستطع أن يحقق فيه أي مهمة إسلامية ، بل لم يستطع حمايته من المفاسد التي ينكرها أهل الإيمان ، لأن الذي عهد اليه بإدارته كان أبعد الناس عن فضائل الإسلام . حتى أنه ليفطر رمضان دون عذر ، ويأتي من المنكرات مالا يكتمه زميلي الفاضل لو سئل عنه ...

وقد شكا أمره إلى المسؤول الأعلى فلم يجد أي مردود سوى التهـديد والوعيد ...

وهكذا تذهب آمال المسلمين ببعض هذه المراكز مع الريح .. ولا جرم أن إخفاق أي مركز إسلامي في الغرب يجر معه إخفاقاً أكبر للدعوة الإسلامية ، إذ يكون سببا لتشويه الإسلام ، وصرف الراغبين عنه إلى البحث عن علاج حيرتهم في غيره ...

طموح مشكور يرجى تحقيقه :

ومرة أخرى أسمح لنفسي بالقول : إن هذه المملكة أحق بلاد الإسلام في عهدنا هذا بإصلاح هذا الوضع . وذلك بإحداث مراكز للإسـلام في مختلف حواضر العالم الغربي ، يقوم على رأسها رجال جمعوا بين قوة العلم وأمانـة التبليغ ، كبعض أولئك الذين خرجوا من هنا بدعوة الله قبل قليل إلى أوروبـة والفاتيكان ، فأحسنوا العرض والحوار ، وعادوا مكللين بالأجر والغار .

وفي ظني أن أهم واجب يتحمل تبعته كل مركز إسلامي ينشأ خارج البلاد العربية هو لم شعث الجوالي الإسلامية تحت راية الصلاة ، ثم تخصيص برامج اسبوعية لتعليم أبنائهم مالا بد من علمه عن كتاب ربهم وسنة نبيهم ﷺ ، إلى برامج أخرى خاصة لنشر العربية والاسلام بين الأجانب والأعاجم ، ودعم كل من البرنامجين بمكتبة صالحة تيسر لطالب العلم سبيل الحصول على بغيته من أقرب سبيل على أن يراعى فيها مستوى كل من القسمين ، مع الاهتمام الكبير بنوعيـة المنشورات والكتب ، بحيث تكون مقصورة على عرض الإسلام وتيسير العربية دون انحراف نحو الدعايات السياسية الخاصة .

لقد حدثني قبل أيام فتى سعودي كريم ، على اتصال بسمو الأمير المؤمن العامل محمد بن الفيصل ، منشىء (مؤسسة الايمان للتربية والتعليم والثقافـة الاسلامية) التي تنتشر مدارسها النموذجية حتى الآن في الرياض وجدة والمدينة

المنورة • حدثني بخبر يسر كل مسلم هو أن سموه يعتزم أن يوسع دائرة المشروع إلى أبعد من حدود المملكة حتى تشمل امريكة ، فيغزوها بالإسلام عن طريق التعليم ، كما تقوم هي بغزو المسلمين بالنصرانية والخنفسة عن طريق المبشرين والهيبيين •

وقد أشار إلى ذلك المنشور الخاص بهذه المؤسسة المباركة ، إذ يقول في نهاية الفقرة الرابعة منه (وتعد المؤسسة مشروعا لتحويل مدارسها إلى مدارس دولية إسلامية تكون لها نظائر خارج المملكة ، سواء في الدول الإسلامية أو الأجنبية) •

وقد علمت بعد ذلك من أحد العاملين في هذه المؤسسة أنها ستبدأ خطواتها الأولى على هذا الطريق في القاهرة والاسكندرية ، لتكون منطلقا إلى عمل تعليمي على مستوى العالم الإسلامي ••••

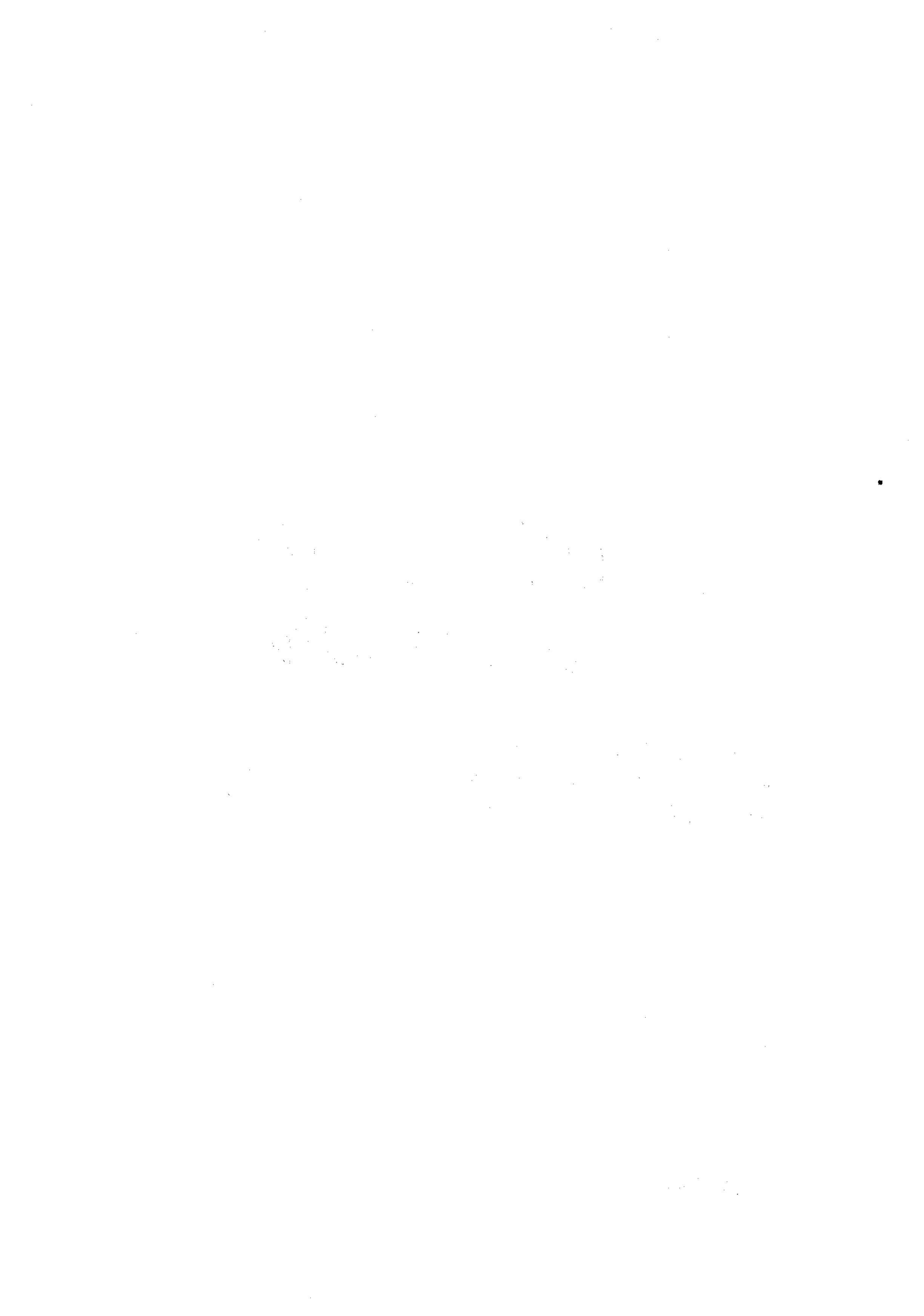
وياله من طموح يستسهل في سبيل الله كل صعب ويدغدغ الآمال بمستقبل مشحون بالنصر والمجد ، وما أحوج مؤتمر (رسالة المسجد) إلى مثل هذا الطموح ، الذي من شأنه أن يرد بفضل الله وتوفيقه إلى المسجد رسالته العظمى ، في إيصال هداية الله إلى كل مستحق لها من عباد الله •

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ››

* * *

عقبات لابدّ من تذليلها في طريق الدعوة الإسلامية

قدم إلى المؤتمر العالمي لتوجيه
الدعوة الاسلامية واعداد الدعاة
بالجامعة ٢٤ ـ ١٣٩٧/٢/٢٩



تمهيـــــد :

لو أن راصدا لألوان المحاولات الإصلاحية ، في عالم الإســلام الرسمي المعاصر ، أراد أن يشير إلى واحد منها يتخذه إطاراً لها جميعا ، لكان محقــاً أن يختار له أسم (المؤتمرات الإسلامية) •• فقد تعددت هذه المؤتمرات ، وتعددت أغراضها ، وتعددت أمكنتها ، وتعدد شهودها ، من حكام وعلمـاء ومفكرين واقتصاديين وليس آخرها هذا المؤتمر المقصور على شؤون الدعوة • وهي ظاهرة أيا كانت حصائدها من حقها أن تحرك موات الأمل في مستقبل يرجى أن يكون أفضل بما لا يقدر من الحاضر ، إذا تولته عناية الله الذي نزل الذكر وتعهد حفظه بقدرته التي لا يعجزها شيء •

إلا أن من أولى مهام الناهضين بأعباء هذه المؤتمرات أن يتوقفوا بين الحين والحين لمراجعة حساباتهم ، وتقدير المسافة التي قطعوها إلى أهدافهم • وعلى ضوء المحصلات يمكن تثبيت الخطى أو تعديلها في المسيرة الطويلة •

وأنا كمسلم ، تتحدد رؤيته للهدف بأنه تحقيق المجتمع الإسلامي ، الــذي يتطلع إليه ضمير الإنســان الذي اضطربت رؤيته ، وزاغت بصيرته ، فبــات كالضارب في صحراء لا مخطط لها ، ولا دليل عليها ـ لا يغلبني التشاؤم فأنكر على هذه المؤتمرات خيرها ، ولا أستسلم للتفاؤل فأبالغ في تضخيم محصولها•• ولكني أوثر تقويم الواقع للانطلاق منه إلى التي هي أحسن •

من هنا أراني مضطراً ، بإزاء هــذا المؤتمر المرموق ، الذي يعقــد لبحث متطلبات الدعوة ، في الجامعة الإسلامية ، التي أنشئت لخدمة الدعوة على مستوى العالم الإسلامي ، وفي مهبط الوحي الذي منه انطلقت أشعة الوحي لتضيء طريق الانسانية ، أجدني مضطرا إلى التذكير بالحقيقة التالية : إن الإسلام هو دعوة الله الخالدة الشاملة ، وكل مؤمن بها فردا أو جماعة مكلف إذاعتها ونشرها في حدود طاقته ووسائله •• ولكن أول شروط الداعي وضوح الرؤية لديه بحيث يعرف من

أين يبدأ وإلى أين يريد أن ينتهي ، وما حدود المجال الذي سيعمل فيه •• وعلى هذا لا مندوحة عن الإجابة مبدئيا على هذا السؤال :

من أين نبـدأ :

في مطالع البعثة النبوية كان على الداعي الأول (ﷺ) أن يؤمن بنفسه أولا نبيا مختارا من قبل الله ، حتى إذا تضلع من اليقين بهذه الحقيقة جاءه الأمر الأعلى بدعوة الآخرين من عشيرته الأقربين ، ومن ثم ، وبعد أن أخذ الايمان مستقره في صدور الصفوة من هؤلاء ، استقبلت الدعوة مرحلتها العالمية فراحت تنتشر مع الشمس في كل اتجاه من دنيا الناس ، تحملها نفوس صفَّت التربية الربانية مقوماتها من عوامل الضعف والهبوط ، فكانت بنفسها صورة نموذجية للخير الذي تدعو البشر إليه •

تلك حقيقة يعرفها كل واعٍ لتاريخ الدعوة الإسلامية ، ولا مندوحة عن اعتبارها المنطلق الأول لكل تحرك في هذه السبيل : وعي الدعاة لما يريدون دعوة الناس إليه ، ثم إيمان يسترخص كل شيء دونه وفي سبيله ، ثم تميز بصفاته الواضحة عن كل ما عداه من الدعوات والمذاهب ، فلا مساومة ، ولا مشاركة ، ولا أنصاف حلول ، وإنما هو تصميم قاطع على التحقيق بقوله تعالى : (قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد •••)•

وعلى هذا فلا مناص للعاملين في نطاق الدعوة من تحديد نقطة البدء في منطلقهم ، وهي تكوين أنفسهم ، وتنظيم طاقاتهم على روح الدعوة التي آمنوا بها، حتى لا يلحق الآخرون أي تناقض بين ما يقولون وما يفعلون • فإذا كان الداعي فردا من المثقفين كانت عدته الأولى هي الالتزام بالحق الذي يريد إشاعته ، وإذا كان الداعي دولة أو حاكما فالتبعة أكبر وأثقل ، لأنها تقتضيه أن يكون الحارس الأمين لمبادىء دعوته ، يستلهم أحكامها في كل صغيرة وكبيرة من عمله ، فلا يحيد عنها في قضاء أو تدبير أو تنفيذ •• ويكون في سلوكه الشخصي صورة حية من

العدالة والنزاهة ، اللتين يتميز بهما الحاكم المسلم ، فيستحق أن يكون القـدوة الصالحة لمن تحت يده من المؤمنين بهذا الدين والجاهلين له على سواء •

أجل •• تلك هي الحقيقة ، التي لا بد من التزامها لإنجاح العمل ، الـذي ينعقد هذا المؤتمر المبارك من أجله •• ولذلك كان لزاما على كل مفكر يؤمـن بهذه الحقيقة أن يحاول جهده الارتفاع إلى مستواها أولا ، لئلا يندرج تحت قوله تعالى : (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم •••) •

الاسلام والجاهليات :

منذ انبثق فجر الإسلام بدأت معاركه مع الظلمات الجاهلية ، فما تخمد نار إحداها حتى تستعر أخرى وقد استطاعت أن تمد أسنتها في الكثير من الأحايين إلى قلب حصونه ، فتدمر وتشوه ، وتزلزل أعصاب الكثيرين من ضعفاء الوعي ، فتؤلف منهم عصائب وفرقا ، مازالت بهم حتى جعلت منهم أشد أعداء الإسـلام نكاية له ، وتصميما على استئصاله •• وفي عصرنا الراهن نماذج رهيبة من هذه المعارك ، اختلفت أدواتها ، وتباينت أساليبها ، ولكنها تلتقي جميعها على الغايـة الواحدة التي هي تدمير الإسلام •

ومعلوم لكل ذي لب أن خصوم الإسلام في هذه المرحلة الرهيبة قد حققوا غير قليل من النجاح في صميم العالم الإسلامي ، إذ استطاعوا بوسائلهم المدروسة البالغة الدقة أن يتسللوا إلى كل معقل منه ، فيعملوا فيه هدما وإفسادا •

لقد أخذوا على المسلمين سبل الحياة جميعا ، فأفقدوهم الثقة في أنفسهم ومقوماتهم أولا ، ثم أقنعوا أولي السلطة منهم ـ إلا من رحم الله ـ ألاّ منفذ إلى أي تقدم إلا عن طريقهم وبتوجيههم •• وهكذا أصبح المسلمون في كل مكان ، وبإيحـاء هذا الإيهام ، رمز الأمة التي قدر لها أن تكون أنموذج التخلف في قافلة البشرية ، بعد أن كانت رائدة الركب الحضاري ، لا عمل لها إلا حراسة الخامات التي أنعم الله بها عليها لتقدمها إلى خصومها بأرخص الأثمان ، كي يردوها إليها مصنَّعةً بأضعاف أثمانها •

وعلى دأب المستضعَفين في الإعجاب بالمستضعِفين أقبل المسلمون على تعقب آثار هؤلاء دون تفريق بين الضار والنافع ، والصحيح والفاسد ، بل لقد أسرفوا في الجانب الأدنى من شؤونهم ، حتى أوشكوا أن يتميزوا به •• فطرز أبنيتهم صور مكرورة لمنازلهم القائمة على النظام الوثني ، الذي لا يقيم وزنا لفضائل الإسلام ، ومناهجهم الدراسية نسخ ممسوخة من مقرراتهم التي لا تقبل التعامل مع حقائق الوحي ، إلا ما بقي من آثار لا وزن لها في نتائج الامتحانات وفي الغالب من ديار الإسلام : وقد اكتسحت بيوت المسلمين فنون الكفرة ، فهي تغزوهم بالمنظور والمسموع من الملهيات المنافية لكل ما أمر الله به ورسوله • ويألفونها شيئا فشيئا حتى تطرد من حياتهم كل ما يعارضها من الأخلاق الإسلامية كما تطرد العملةُ الزائفةُ الصحيحةَ ، وكأنهم بذلك إنما يحققون باختيارهم ما حذرهم منه نبيهم المعصوم بقوله الخالد : (لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَن كان قبلكم شبراً بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لتبعتموهم ••)[1] •

تصحيح الداخل أولا :

هذا الواقع الرهيب هو الذي أطمع بالمسلمين أولئك الأفاكين من أدعياء العلم في الغرب ، فراحوا يشنون حروبهم على الإسلام باسم العلم ، فيحرفون الكلم من بعد مواضعه ، ويقلبون الحقائق ، ليدفعوا تلاميذهم من أبناء المسلمين إلى التنكر لدينهم • ثم أولئك الأفاقين الآخرين من دعاة النصرانية ، الذين يئسوا من استبقاء دينهم في الأجيال الغربية ، التي كفرت بقداسة الكنيسة فألقوا بثقلهم على الشرق الإسلامي ، يستغلون الفراغ الذي تعانيه الكثرة من قلوب أبنائه ، ليسلخوهم من بقايا هويتهم ، الإسلامية ، وليجعلوا منهم عصائب جديدة من المحاقدين على الإسلام ، المحاربين له كأسلافهم الأولين من المرتدين •

ومن هنا كان تصورنا لهذا الواقع في داخل كياننا حقيقيا بأن يدفعنا دفعا إلى البدء بتصحيحه ، قبل أي تحرك نحو الخارج • لا جرم أن من واجب المؤتمر

(١) أخرجه الشيخان

مواجهة كل محاولة تستهدف النيل من الإسلام في كل لغة وكل مكان وذلك هو الطابع الرئيسي الذي يتجلى في كل اجتماع يعقد لخدمة الدعوة ، وفي كل بحث يكتبه غيور على حرمتها .. ولكن .. أليس من حق الإسلام كذلك أن نوجه بعض هذا الجهد إلى ذلك الواقع الذاتي الذي سيمدنا بكل أسباب الفلاح أو الإخفاق في جهادنا من أجل الدعوة .

من أبسط البديهيات أن الجيش المحارب لا يصلح للعراك إلا بعد التدريب والتنظيم واستيفاء كل الوسائل التي يتطلبها القتال .. فلنبدأ إذن بتنظيم كياننا الأساسي أولا .

إن معظم العاملين في نطاق الدعوة يركزون جهودهم على جدال الآخرين لإقناعهم بحقائقها .. على حين يغفلون أقرب الناس إليهم فلا يكادون يعرضون هذه الحقائق عليهم ..

في إحدى المدن الإسلامية قدم أربعة من الشباب (المتعلمين) إلى القضاء لمحاكمتهم على السكر وإعلان الإفطار في رمضان ، أيام كان لرمضان حرمته في ذلك البلد ، وشد ما أدهش الناس أن يعلموا أن كلاً من الأربعة ابن لعالم مشهور في تلك المدينة .

وما أكثر النسوة اللاتي يتجردن من كل أثر للحشمة الإسلامية بمشهد من آبائهن أو أزواجهن ، الذين يكثرون من الكتابة والخطابة في شؤون الإسلام ..

أفليس مثل هؤلاء الغافلين أحرياء بأن يتذكروا قول الشاعر الحكيم :

يا أيها الرجل المعلم غيره   هلا لنفسك كان ذا التعليم !

فيعلموا يقينا أن أول مسؤولياتهم هي تركيز معاني الإسلام في قلوب أوليائهم ، حتى تكون كلمتهم ذات وزن في نفوس الآخرين ...

هذه التناقضات :

هذا من ناحية الأفراد المتطوعين للدعوة ، أو الموظفين لها •• فاذا نقلنا النظر الى الصعيد الرسمي ألفينا التناقض أكبر ، والمردود أهول وأثقل •

إن غير قليل من حكومات العالم الاسلامي تتنكر للإسلام عملا ، وإن شاركت في الاجتماعات المنسوبة إليه كلاما •••

إنها بحكم سلطانها على الدولة تهيمن على كل مرافق التعليم ، وبدلا من أن تقيم مناهجها جميعا على أساس الحقائق الإسلامية ، وتحمي الإسلام من كل دعاية مضادة لحقائقه ، سواء جاءت من المدرسين المنحرفين ، أو من الأعداء التقليديين ، نجد واقع الأمر فيها على خلاف ذلك ، فالمناهج دخيلة محشوة بما يتنكر لعالم الوحي ، والعلوم الإسلامية الحقة إما مطرودة من تلك المناهج نهائيا ، وإما معزولة عن التأثير التربوي ، بحيث لا يسمح لها بمواجهة أي افتراء يوجه إليها من كتاب مقرر ، أو مدرس مضلل ، ثم يتم إقصاؤها عن مجال التأثير كليا بإلغائها من مسوغات القبول في الدراسات الجامعية •• ولعل كثيرين حتى من ذوي العلم يجهلون أن بعض الحكومات (التقدمية) قد أغفلت ذكر العلوم الشرعية من كل خطط التنمية التي تعدها للمستقبل القريب •• ولا معنى لذلك إلا التصميم على إلغائها نهائيا •

فإذا التفتنا إلى ميدان الإعلام ، وجدنا الأبواب مفتحة لكل الأفكار المحاربة للإسلام ، ولكل الفتون المدمرة لآدابه وفضائله • وربما عثرنا في بعض الزوايا القصية على بعض الكلمات التي تحاول أن تعرض ، في استحياء ، بعض معاني الإسلام ، ولكن ما يحيط بها من نقائض كافية لأن تجعل منها شيئا غير معقول ولا مقبول •• حتى كتاب الله الذي غيَّر تاريخ البشرية ، وعلمها مالم تكن تعلم من حقوق الإنسان ورسالته العليا ، قلما يقدم للناظر أو السامع إلا مصحوبا بسيل من الأغاني أو المزامير ، التي لا داعي لها ، سوى إشعار السامع والمشاهد بأن هذا القرآن ليس أكثر من بعض هذه (الألوان) الترفيهية ••

تراثنا المهدد :

ولا عجب أن تنحدر معاملة المعاني الإسلامية لدى وسائل الإعلام الرسمية في بعض هذه الدول ، إلى مثل ذلك الدرك المؤسف ، ما دام بعض كبار المسؤولين فيها لا يتحرجون عن الطعن الصريح في عصمة القرآن ، والغمز من رسالة محمد (صلوات الله وسلامه عليه) حتى ليتهمونه على رؤوس الأشهاد بالتقول على الله ، والدعوة إلى عبادة ذاته ، والاستعانة بالأساطير الوهمية للتأثير على الأتباع .. إلى آخرين لا يسترون سخريتهم بالإسلام ، حين يعلنون إيمانهم بالماركسية والإسلام جميعا ، ولا يكتفون بذلك لأنفسهم بل يفرضون هذا التزوير على شعوبهم المسلمة بقوة الحديد والنار ، ثم لا يستنكفون أن يحرقوا مُنكري هذا الإفك المبين بالنار على ملأ من العالمين .. ومع ذلك لا يرون بأسا في أن يحضروا مؤتمرات الإسلام ، وينيبوا عنهم من يتحدث باسمه في كل مناسبة خاصة به ..

وقد أعطى هؤلاء أنفسهم حق الإفتاء في كل ما يريدونه من الإسلام ، دون ما حجة سوى أنهم يملكون القوة التي تمكنهم من إذلال شعوبهم ، وزج أحرارها في غياهب السجون ، والتفنن في ابتداع عجائب التعذيب ، يصبونها على كل من يجرؤ على مواجهتهم بكلمة (لا) ...

ولعل موقف هؤلاء من المرأة المسلمة يمثل قمة الاستهتار بقداسة الإسلام.. فالسائح في ديارهم أينما اتجه تطالعه اللافتات الصارخة بتحرير المرأة ... وقد أصبح هذا شعار كل حكومة تنعت نفسها بالتقدمية في بلاد الإسلام وبقليل من التحقيق يتضح لكي ذي بصيرة أن المراد بهذا التحرير ليس تمكين المرأة من طلب العلم الذي يناسبها ، ولا رفع المظالم التي ترهقها في بعض الأوساط التي أدارت ظهرها لشريعة الله ، بل دفعَها إلى الخروج على كل القيم التي ميزت المسلمة على سائر النساء ، إذ أعطتها من الحقوق مالم تحلم به امرأة في العالم كله حتى الساعة ..

ولا شك أن رافعي شعار (تحرير المرأة) في عالم الإسلام يدركون جيدا أن إفساد المرآة المسلمة باستجرارها إلى التحلل من فضائل الإسلام ، إنما هو أقصر طريق إلى تدمير الحصون الداخلية للمجتمع الاسلامي •• لأنه سيجهز على مقومات البيت الذي لم يبق سواه لتربية الأجيال المؤمنة •• ومن آجـل ذلك يعبئون كل الطاقات التي يملكونها ، لتفريغ المسلمة من كل تقديس لمواريثهـا الدينية ، وفي مقدمة ذلك تشويه القيم الأصيلة ، وشحن نفسها بالتنفير من كـل موحياتها • وأنجح مجال لذلك مؤسسات العلم التي أمكن تجريدها حتى اليوم من كل الحصانات الذاتية ، ثم مؤسسات الدولة التي ركزت على استخدام المرأة ، فأصبحت من أهم العوامل المفتنة لبقايا الأخلاق ••

وما أحسبني بمعذور إذا أنا أغفلت ، بجانب هذه الألغام الناسفة ، موضوع الشباب ، الذي يبتعث لاستجلاب المعرفة من معاقل الكفر ، فاذا هو ــ إلا من رحم الله ــ فريسة مكشوفة لكل خبيث النية عليم اللســان •• ثم لا يلبث إلا قليلا حتى يسلخ من الزاد اليسير الذي حمله عن دينـه دون تعمق ولا تدبر •• فإذا عاد إلى بلده بعد سني الدراسة كان أكبر همه تهـديم مايواجهه من تراث حُشِيَ صدره بالحقد عليه •••

وأنّى لهذا المسكين ، الذي سيُّب دون معين ، أن يصمد لألوان المغريات التي أعدت لاصطياده منذ الخطوة الأولى •• إذ كان عليه ، من أجل إتقان لغة القوم ، أن يتخذ سكنه في أسرة لا يسمع ولا يرى فيها إلا ما يخالف مقومات دينه ، ثم تأتي الرحلات والحفلات والشهوات •• فلا تبقي من ميراثه النفسي نفيراً ولا قطميراً ••

فكيف إذا تذكرنا أن هذا الشباب هو الذي يتولى وسيتولى مقادة المجتمع وتكييفه على الوجه الذي لا يؤمن بغيره !••

من هنا فابدؤوا :

تلك صور مصغرة من وقائع كبيرة لا يجهلها أحد يهتم بشؤون المسلمين ،

ويعنى بالدعوة إلى الإسلام •• ولا بد أن كلا منا قد سأل نفسه بإزائها أكثر من مرة : إذا كان هذا هو واقع المسلمين في بلاد الإسلام ، فكيف يتاح لداعٍ إلى هذا الدين أن يقنع به الآخرين ؟••

إن أولى الحقائق التي يلتزم الداعي إلى الإسلام عرضها لغير المسلم ، بعد كلمة التوحيد ، هي إقناعه بأن الإسلام هو النظام الكامل الـذي اصطفاه الله لعباده من أجل هدايتهم إلى التي هي أقوم في دنياهم وآخرتهم ، ففيه أصـول الحياة السعيدة لكل ما تتطلبـه فطرة الانسان من الحكم الرشيد ، والآداب العاصمة ، والقوانين الضابطة لمسيرة البشرية ، أفرادا وجماعات وحكومات في الطريق الذي لا عوج له ••

بلى ••• ذلك ما يفعله كل داعٍ أوتي العلم والحكمة •• ولكن مامحصول دعوته حين يسمع مدعويه يتحدونها بمثل قولهم : إذا كان هذا هو الإسـلام حقـا •• فمـا بال دول المسلمين يستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير ، فيقاطعون تشريعاته القويمة ، ليأخذوا بقوانيننا المضطربة ، وما بالهم يرفضون أنظمته الاجتماعية ، في المرأة والتربية والتعليم ، ليلهثوا في أثر مجتمعاتنا ، التي فقدت الرؤية السليمة ، فراحت تتخبط في المجاهل دون هاد ولا دليل !•••

لقد استحكمت مرحلة الضياع في حياة المسلمين منذ رَضِيَ مسؤولوهم بالتخلي عن سياسة الإسلام في الأموال والدماء وأساليب الحكم ، ولما ألفـوا البعد عن مهيع الشريعة الإلهية تقدم بعضهم مرحلة أخرى فأعلنوا الثورة بكل الخصائص التي تميز المجتمعات الإسلامية • وهاهم أولاء يصرحون في كـل مناسبة بأنهم يريدون تفكيك البنية الاجتماعية لشعوبهم وتحويلها إلى أوضاعٍ مغايرة تماما •• أوضاع يستمدون مخططاتها طبعاً من كل مكان وكل نظام إلا الإسـلام ••

وهكذا يتحول هذا الإسلام في ظل هذه العقليات الغريبة إلى شيء آخر يمكن إعطاؤه أي اسم إلا الإسلام •

إن إلغاء القوانين الشرعية في معظم العالم الإسلامي قد جرده من كل الحصانات التي تحقق له الأمن ، إذ زجه في المتاهات نفسها التي يتخبط فيها العالم الجاهلي من حوله ... وإنشاء الفتاة المسلمة على غير آداب الإسلام قد عطل كل الآيات القرآنية والأحاديث النبوية المحددة لسلوكها ، والحافظة لسلامتها وكرامتها ، وبهذا وذلك يستحيل كتاب الله بين المسلمين لونا من الصحف الأثرية ، إذا قرئت ، وقلما تقرأ ، فللذكرى أو للتسلي وربما للتبرك على أفضل الاحتمالات .. تماما كما حدث للإنجيل من قبل ، اذ أصبح معزولا عن حياة النصارى ، حتى لا يكادون يعرفون عنه شيئا ، كما يقول المستشرق المبشر بيير ضودج في كتابه (الإسلام بنظر الغرب) ــ ص ٤٣ ــ .

وإزاء مثل هذا الوضع لا يستغرب القول بأن كل الدلائل تؤكد أن الإسلام في مناطقه هذه مهدد بالزوال خلال سنين ... إذا لم تقيض له قوة ترد إليه اعتباره ، وتمكين المسلمين أن يمارسوه في أحكامهم ومعاملاتهم وإعلامهم وسلوكهم ، في بحبوحةٍ من الحرية لا يهددها عسف ولا إرهاب .

وأمام هذا الواقع المنظور الملموس لا يعذر المفكر المسلم إذا لم يقل لدعاة الإسلام : من هنا ، من مناطقكم المحسوبة على الإسلام فابدؤوا بالدعوة إلى الإسلام .

لا بد من الحوار :

وكأني بهؤلاء الأخوة المعنيين بشؤون الدعوة ، وقد ذكرهم حديثي بما لم ينسوه ، يتساءلون في أعماقهم : ذلك هو الحق .. ولكن ما السبيل إلى تحقيق واجبنا نحو الدعوة في هذه المناطق المغلقة بوجهها !..

وأقر سلفا بأني لست أقل منهم حيرة بإزاء هذه المشكلة .. فأنا أعلم ما يعلمون من الأخطار الهائلة التي تنتظر كل مغامر يجرؤ على اقتحام هذا الميدان .. إن هناك ألقاب الخيانة ، واختلاق التهم ، وتأليب الغوغاء ، وحرب

التجويع والحرمان ، ثم ألوان التعذيب التي يعجز عن تصورها الشيطان ... والداعي ، مهما يبلغ من الإيمان لا يعدو أنه انسان ، يعتريه الخوف ، كما اعترى نبي الله موسى أمام ثعابين السحرة ، وكما اعترى عماراً تحت سياط الكفرة .. وهو يعلم أن كلمة الحق قد تسوقه إلى الشنق ، أو تقوده إلى السجون التي لا مخرج منها ، والتي دون أهوالها المنون .

فكيف يؤدي هذا الداعي رسالته .. وكيف ينقل خطواته في هذه الظلمات التي بعضها فوق بعض ؟ مرة ثانية أقر بالحيرة .

ومع ذلك فلا بد من العمل إعذاراً إلى الله ، ولو أن كل شيء هناك يدعو إلى اليأس ، فالغيب بيد الله ، وهو القائل : لا تقنطوا من رحمة الله ، وقد دلنا على طريق الفرج بقوله سبحانه (ومن يَتَّقِ اللهَ يجعلْ لهُ مخرجاً ...) .

ومن يدري فقد يجعل الله من هذا المؤتمر ذلك الفرج الذي تترقب ، إذا أخلص كل من العاملين نيته لله .. وذلك بأن يكون في رأس مقرراته استنهاض همم الحكام المؤمنين بالإسلام لإقامة حوار مع أصدقائهم حكام المناطق المغلقة ، يستهدف إقناعهم بالتساهل مع دعاة هذا الدين فلا يمنعونهم دخول بلادهم ، والاتصال بإخوانهم من أهل العلم ، والتعاون معهم لتبصير الناس بحقائق الإسلام ، وإبراز فضائله ، وتثبيت مقوماته في نفوسهم .. على اعتبار أن في هذا الضرب من التبليغ تشديدا للروابط الأخوية بين شعوبهم ، وفي ذلك قوة لهم ولأمتهم لا تقوم بها كل فلسفات الدنيا . وسيكون من بوادر التوفيق في هذا الحوار الإفراج عن أولئك الدعاة الذين تتابعت الأعوام على اعتقالهم دونما ذنبٍ سوى أن يقولوا ربُّنا اللهُ !..

هذه واحدة ، ثم أخرى ، وهي أن يرضى حكام المناطق المغلقة بالدخول في حوار آخر مع رجال الدعوة أنفسهم ، فيعرض كل من الفريقين وجهة نظره وما عنده من حجة لنصرتها ... فإذا كان هدف الحكام حقاً مصلحة شعوبهم

حسب اجتهادهم ، لم يكن مستحيلاً اقتناعهم بأفضلية الإسلام نظاماً وقانوناً وسياسة ...

لا منقذ إلا الاسلام :

إن عقدة النقص في أولئك الحكام عائدة إلى جهلهم المطبق بمعطيات هذا الدين ، ولقد رأينا عدداً من هؤلاء ، الذين سجلوا الرقم القياسي في عدائهم له ، لا يكادون يفارقون كراسي السلطة ، ويجدون الفرصة السانحة للاطلاع على بعض روائعه ، حتى ثابوا إلى رشدهم ، وأيقنوا ألاّ خلاص وألاّ عزة ولا قوة إلا في الأخذ به كلاً لا يتجزأ ...

وفي اعتقادي أن أقصر الطرق إلى نصرة هذا الدين الحق في بلاد الإسلام هو الوصول إلى قلوب وعقول هؤلاء الحكام .. وكل نجاح يمكن تحقيقه معهم إنما هو ربح للإنسانية كلها ، التي تتطلع في لهفة لاذعة إلى منفذ للخلاص من ضياعها الرهيب ، ولا منفذ لها ولا منقذ إلا بالإسلام ، الذي لا يخدمه شيء مثل قيام مجتمعٍ نموذجي يطبق أحكامه صحيحة كاملة كما أنزلها الله ، في أي بقعة من هذا العالم ...

لقد قرأ هؤلاء الكثير عن مفتريات الملحدين في تشويه الدين ، ولم يكن لديهم من العلم ما يفرقون به بين الإسلام وغيره ، فلم يلبثوا أن سحبوا تلك المفتريات على الإسلام نفسه ، ومن ثم أقاموا من أنفسهم مشرعين في أهم قضاياه ، وهم الذين ـ ربما ـ لم يلموا بحرف من كتاب الله ولا سنة رسوله ولا اجتهاد الأئمة ، ومثل هؤلاء لا يبعد أن يتقبلوا تصحيح خطئهم لو أتيح لهم من يدلهم عليه ....

وأخيرا :

إن أهم ما ينبغي التوكيد عليه في هذا المؤتمر ، وكل مؤتمر يعقد لبحث أمور الدعوة ، في هذه الأيام يمكن تلخيصه في النقاط العشر التالية :

١ ـ الإلمام الدقيق بواقع الفكر البشري وموقفه من التطلعات الروحية في مسيرته الراهنة .

٢ ـ دراسة واقع الدعوة الإسلامية ودعاتها في بلاد الإسلام ، وبخاصة الأقطار العربية .

٣ ـ إيمان الدعاة بدعوتهم أولا ، ثم التزام طريقها في النفس والأهل وكل من يقع تحت مسؤوليتهم .

٤ ـ التركيز على دعوة الحاكمين في أقطار الدعاة للاستحواذ على تأييدهم، أو مهادنتهم على الأقل .

٥ ـ تأمين حق الإسلام في شؤون الإعلام ، حتى يتاح لعلمائه أن يقدموا حقائقه كما يتاح لغيرهم أن يقدموا أباطيلهم .

٦ ـ السعي لدى المؤمنين من حكام المسلمين للإقلال من الابتعاث إلى مناطق الكفر ما أمكن . وإلغاء بعثة كل طالب يثبت إهماله التكاليف الإسلامية ، تحت طائلة الحرمان من حق العمل في خدمة الدولة .

٧ ـ العمل لإقناع هؤلاء المسؤولين بقصر مناصب الملحقين الثقافيين على رجال الدعوة من ذوي النشاط الإسلامي ، المتضلعين بالثقافتين الإسلامية والعالمية .

٨ ـ تولية هذه النخبة من الملحقين الدعاة أمر الإشراف على البعثات الطلابية ، وتخويلهم كل الصلاحيات المساعدة على إنجاح مهمتهم .

٩ ـ العمل الجاد لتأمين إذاعة خاصة ـ ولو في نطاق محدود ـ لتبليغ الإسلام في كل دولة إسلامية تشارك في اجتماعات المسلمين .

١٠ ـ اعتبار مكتب الدعوة في الجامعة الإسلامية ، مكلفا متابعة هذه المقررات ، وإعداد تقرير دوري صريح عن مدى تطبيقها وأمكنة هذا التطبيق ، على أن يذاع وينشر بكل وسائل الإعلام الممكنة .

والله قصدنا وإليه المصير ،

نحو إعلام إسلامي

قدم الى المؤتمر العالمي لتوجيه
الدعـوة وإعـداد الـدعاة بالجامعـة
الاسلامية ٢٤ ـ ١٣٩٧/٢/٢٩

بين يدي البحث :

عندما نتلو في تدبر قوله تعالى : (ادعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ••) ترتسم في أذهاننا الخطوط الأولى لمهمة الداعي الأول صلوات الله وسلامه عليه ، فهي تبليغ الثقلين دعوة الله ، في الأسلوب اللائق بها ، الصالح لمخاطبة القلوب والعقول على اختلاف مشاربها واستعداداتها وقد اجتمع ذلك كله في هذه الكلمات الثلاث : الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن •

ومهما يُقَلْ في تفسير الحكمة فلن يعدو مدلولها اللغوي المتصل بحَكَمَةِ الفرس ، وهي الأداة التي تمنع جماحه ، وتضبط تصرفه في حدود السلامة ، ومن هنا تتولد الموعظة الحسنة ويتأتى الجدال القائم على التي هي أحسن •

وإذا ألقينا مثل هذه النظرة الواعية على التحديد الإلهي الآخر في قوله سبحانه (قل هذه سبيلي ، أدعو إلى الله ، على بصيرة أنا ومن اتبعني ••) ألفينا أنفسنا تلقاء صورة شديدة التركيز على موضوع الحكمة ، التي تأخذ هنا مفهوما أقرب ما يكونُ إلى معنى التخطيط في اصطلاح العصر الذي نعيش فيه •

وإذاً فالعاملون في حقل الدعوة الإسلامية قد استوفوا مفهوم القضية التي يبلغونها فباتوا على بينة من مبادئها وأهدافها جميعاً ، إذ لا يكون على بصيرة بالشيء إلا العارف بحقائقه وأبعاده ومتطلباته ••

ومن هنا كان لزاما على المسؤولين عن شؤون الدعوة الإسلامية أن يحسنوا اختيار الوسائل والأساليب المحققة لتبليغها على الوجه الأفضل ، وفق مقتضيات الظروف المتغيرة ، مع الحفاظ التام على الخطوط الأساسية عن الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن ـ وعندما نستحضر الصورة المتكاملة للمجتمع المسلم تتضح لنا تلك الحقيقة الأساسية التي لا يسع مسلماً يدعو إلى الله جهلها ،

وهي أنه المجتمع المتميز بكل خصائصه الخلقية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية جميعا ، فلا مناسبة بينه وبين أي من المجتمعات البشرية الأخرى ، لذلك كانت له وسائله المميزة في الدعوة إلى مبادئه الربانية ، فإذا عمد غيره إلى الكذب والتزييف والتضليل في الترويج لأباطيل آياً كان شأنها ، ظل المجتمع الإسلامي مستمسكاً بالتي هي أقوم مع الوسيلة النظيفة ، والأسلوب الأعلى والالتزام التام لجانب الحق ، انسجاماً مع منطلقات الدين الذي يعلن أن انقاذ نفس بشرية من ظلمات الضياع إلى نور الحق خير من كل ما طلعت عليه الشمس •

على ضوء هذه الإشارات المكثفة نمضي في الكلام عن وسائل الإعلام والتي يجب أن تتوافر لدعوة الإسلام •

الاعلام الشيطاني :

كل فكرة يراد لها الانتشار والتثبيت لا غنى لها عن الاستعانة بالوسائل المساعدة على قبولها •• تستوي في ذلك الفكرات المحقة والباطلة • وقد ذكر لنا رب العزة تبارك وتعالى الخطوط الجذرية لأحابيل إبليس التي أعلن تصميمه على إعمالها في إضلال الجنس البشري ، يوم رفض سجود التكريم للإنسان الأول وذلك بقوله عز من قائل حكاية عن ذلك العدو الألد ، لعنه الله، وقال : لأتخذنّ من عبادك نصيبا مفروضا • ولأضلنّهم ولأمنينّهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ، ولآمرنّهم فليغيرنّ خلق الله •• (٤/١١٨ ــ ١١٩) •

فها هنا إنذار صريح بالتصميم على إفساد السلوك الإنساني بكل الأسباب المؤدية إلى ذلك ، دونما تحديد للأشكال والأدوات التي سيعمد إليها ذلك الشرير •

ونحن حين نراجع ملف الصراع بين الشيطان والإنسان خلال التاريخ نواجه العجب العجاب من هاتيك الوسائل التي نفذ بها وعيده ، مما لا يستوعبه

الإحصاء ، وتبين كذلك أن غير قليل منها لا يزال على شأنه القديم وإن اختلفت بعض ظواهره جرياً مع التطور .

في سورة نوح ، وهو الأب الثاني للبشر الذي جعل الله ذريته هم وحدهم الباقين على سطح هذه الكرة بعد الطوفان العام ، نقرأ هذه الشكوى الحارة التي يرفعها هذا النبي الكريم إلى الله (ربِّ . إنهم عصوني واتبعوا مَنْ لم يزده ماله وولده إلاّ خسارا . ومكروا مكراً كبارا (٧١/٢١ — ٢٢) فهو عليه السلام يسلط الضوء في هذه الشكاة على فريقين الغوغاء الذين عطلوا طاقاتهم العقلية والفطرية ، فأسلموا أزمتهم إلى طواغيت قد أتقنوا ضروب الدعاية المضللة ، فما زالوا بأتباعهم حتى صرفوهم عن سبيل التوحيد الأعلى إلى مزالق الوثنية المذلة ..

وبقليل من التأمل في هذا التعبير الإلهي المكثف (ومكروا مكراً كباراً) ندرك أننا تلقاء ألوان من الإعلام المشحون بالإغراء والاغواء ، إلى حد لا يملك معه عامة الناس أي تماسك ، فلا يلبثون أن يسقطوا في حبائلها كالمسحورين أو المنومين .

ومن هذا الضرب ما نقرؤه في كتاب الله من حوار بين المضلِّلين والمضلَّلين يوم يساق كل من الفريقين إلى مصيره العادل : (قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم !.. بل كنتم مجرمين . وقال الذين استُضعِفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار ، إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا) (٣٤/٣٢ — ٣٣) .

إن أصحاب الإعلام الهدام هنا يدفعون عن أنفسهم مسؤولية الإغواء ، ويردون ضلال المخدوعين إلى استعدادهم للسير وراء كل ناعق ... ولكن هؤلاء المخدوعين يسوّغون انسياقهم إلى باطلهم بقوة المكر الذي غمروهم به ليل نهار ، ولم يكن لديهم القدرة على دمغه والفرار من تأثره .

أفلا تذكرنا هذه الصورة المؤثرة بأفانين الإعلام الذي ينصب اليوم على الجنس البشري من كل صوب ، وبكل ماتوصل إليه التقدم العلمي والتكنولوجي من أسباب ومغريات تلاحق الإنسان أينما تحرك أو سكن !••

إنه مكر الليل والنهار لا ينفك يحاصر النفس الانسانية ، دون أن تستطيع لإيحائه دفعاً ولا من شراكه فكاكاً ••• إلا من رحم الله !••

ومجرد التعبير بلفظ (المكر) في نطاق الإعلام الشيطاني يشدّ الأذهان إلى كل ما عرفناه وما ستعرفه الأجيال من وسائل الإغواء على مر الأزمان ، ذلك لأن الماكر لا يدخر وسعاً في اختراع كل ما من شأنه تحقيق مبتغاه دونما وازع من ضمير أو دين أو خلق ، فهو يعالج كل صنف من الخلق بما يناسبه من عوامل الإفساد فمع المشتغلين بالعلوم يتسلل إليهم عن طريق التأليه للعقل والاشادة بحرية الفكر التي على زعمهم لا تقر بالقداسة لشيء كائناً ما كان ، وعلى الكافة من الناس يدخل من أبواب الاستهواء وإثارة الرغبات الخسيسة ، والمبالغة في صياغة الأكاذيب التي لا تنفك تتدفق على أسماعهم وأبصارهم ، حتى تنتهي بهم إلى ما يسمونه « غسيل المخ » الذي يفقد هؤلاء المساكين كل صلاحية للتأمل والنقد ، فيستحيلون بذلك أدوات مسخرة لأهواء الطواغيت ، ونظرة إلى آثار هذا الأسلوب الإبليسي في أصناف البشر من أعلى متعلم فيهم إلى أجهل جاهل منهم ، تؤكد أن وسائل هذا الضرب من الإعلام المركز قد أحرزت أكبر الانتصارات في عالمنا المعاصر •••

الاعلام الشيوعي :

وقد ضربت الماركسية الرقم القياسي في هذا الميدان ، إذ أقامت إعلامها كله على أساس التضليل ، فهي دائبة الصياح صباح مساء في أسماع الطبقات العاملة تدعوهم إلى فردوس المساواة والعدالة الذي تدّعي تحقيقه لهم ••• وتصور لهم النظام البروليتاري على أنه الحلم الذي طالما تطلع إليه الفلاسفة فأحالته الماركسية واقعاً مشهوداً ملموساً ••

وتحت ضغط المكر المستمر سقط الكثير من جماهير العامة وأشباههم ضحية هذا التزوير ، ولم ينج منه حتى الشعوب الإسلامية التي أضحت تواجه من داخلها غير قليل من أولئك الذين وهبوا أنفسهم للشيطان دون مقابل •• وقد هيأهم لهذا السقوط جهلهم المطبق بالدين الذي انسلخوا عنه ، وبعد مجتمعاتهم عن أساليب الحياة الإسلامية السليمة ، حتى باتوا ، كما يقول تشرشل في ضحايا الشيوعية : (إنهم ليقدمون على خيانة أديانهم وأممهم وأوطانهم خدمة لطواغيت موسكو وبكين ، وهم يحسبون أنهم يؤدون بذلك أقدس المهام) إلا أن الواقع الرهيب الذي تقاسيه الشعوب التي قدر لها أن تمارس حقيقة الشيوعية داخل أسوارها ، قد بدأ أنينها المخنوق يتسرب إلى أسماع العالم كله ، فيدرك أنه تلقاء أكبر عملية تخريب لضمير الإنسان وكرامته وطمأنينته ، وإن الشيوعية أعدى أعداء الطبقة العاملة التي تتستر باسمها ، إذ ربطت وجودها ببطاقة الإعاشة وسلبتها كل حق في الحياة الآمنة ، لتجعل منها مجرد مجموعة من العبيد للعصابة المتسلطة • وكان مستحيلاً أن تحتجب صور هذا الجحيم عن الأعين المبصرة ، بعد إقدام الجيش الأحمر على سحق الحرية في المجر ، ثم في تشيكوسلوفاكية ، على مشهد ومسمع من أمم العالم ، وبعد الزج بمئات الأكابر من علماء السوفييت أنفسهم في مشافي الأمراض العقلية ، دونما ذنب سوى مطالبتهم الطواغيت ببعض الحقوق الأساسية لشعوبها المظلومة ••

إعلام المبشرين :

في أحد المؤلفات الباحثة في شؤون التبشير يقول أحدهم : (إن جهود المبشرين قد عجزت عن اكتساب المسلمين إلى صفوف النصرانية ، ومن أجل ذلك قنع المبشرون بأن يقتصر عملهم على زعزعة عقائد المسلمين على الأقل « ١ » •

ومع ان هذا التصريح لا يعدو كونه إعلاناً حاسماً بإفلاس الدعوة النصرانية، وتوكيد عجزها المطلق عن مخاطبة القلوب والعقول ، فإن مؤسسات التبشير

---

(١) (التبشير والاستعمار في البلاد العربية) ص ٤٦ ط ٤ •

الغربي ، من كاثوليكية وبروتستانتية ، لا تزال ماضية في محاولاتها لتغيير العالم الإسلامي بكل ما توصل إليه الفن الإعلامي والأساليب العلمية من مبتدعات • وسأكتفي بمثلين لأعمالها • أما أحدهما ففي أندونوسية :

هذا القطر الإسلامي العظيم بملايينه المئة والعشرين واقع تحت كابوس النفوذ التبشيري ، الذي فرض على تلك الجزر عن طريق الديون التي تبهظ كاهلها لأميركة وقد عرفت مؤسسات التبشير كيف تستغل هذا الوضع إلى أقصى مداه ، فهي ترفض أي تحديد لتصرفاتها من قبل السلطات الأندونوسية ، حتى محاولات التفاهم مابينها وبين المنظمات الإسلامية تستنكف عن قبولها • وقد بات معلوماً أن هذه المؤسسات التبشيرية تؤلف دولة داخل الدولة ، فلها أساطيلها المتحركة أبداً في البحر والجو والبر •• ولها مؤسساتها التعليمية المنتشرة في مختلف الأنحاء الأندونوسية ولها مستشفياتها ومستوصفاتها •• ولها منشوراتها وإذاعاتها التي تقرع الأسماع والأبصار بدعايتها المستمرة ••

ولا نذيع سراً إذا قلنا أن سوء الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، في تلك الديار الغالية ، قد أتاح لهذه المؤسسات غير قليل من فرص النجاح • ونحن لا نستطيع أن نتصور مدى ما كان لها أن تحققه من نجاحات أخرى لولا تلك العصائب المؤمنة التي وهبت نفسها لله ، فوقفت بوسائلها الضعيفة المحدودة بوجه ذلك السيل العرم من الإمكانات الهائلة •• ولكي تتصور الفروق الشاسعة بين الفريقين علينا أن نتذكر أن وراء غزاة التبشير أموال أميركة وبريطانية وهولاندة وغيرهن •• على حين ليس لهذه العصائب المجاهدة لاستبقاء الإسلام سوى جهودها الشخصية ، والمعونات الفقيرة التي تتلقاها من أهل الغيرة على هذا الدين في أندونيسية وخارجها •••

وأما المثل الثاني ففي جزر القَمَر •• تلك البقاع التي استطاعت الحفاظ على إسلامها طوال العهد الاستعماري ، وأصبحت الآن تقدم الأنموذج الآخر لعملية الغزو التبشيري والشيوعي معاً • إن الاستقلال الذي أعلنه زعماؤها

المسلمون ، وأعلنوا معه اتجاههم الإسلامي . قد فوجىء بانقلاب يقوده شيوعيون غلاظ استمدوا أسلحتهم وقوتهم من المستعمر الفرنسي ، الذي لم يكن براضٍ عن استقلال الجزر ولا سيما اتجاهها الجديد . وما هي إلا أيام أو أشهر حتى كُمِّمت الأفواه ، وشحنت السجون بالشباب المؤمن ، وفرض على شعب الجزر جو من الإرهاب الذي يتعذر معه التحرك على حين فسح المجال لصنائع بكين تعيث في البلاد كما يشاء لها أن تعيث ، وللمبشرين أن يسرحوا ويمرحوا ـ كإخوانهم في أندنوسية ـ دون محاسب أو رقيب !.

كل هذا يجري في هذين القطرين من موطن الإسلام على حين غفلة من معظم المسلمين في سائر الأنحاء ... ولا أتحدث عن الفيليبين وتشاد والارتيرية ولا عن مئات المضربين عن الطعام والشراب في سجون إسرائيل حتى الإشراف على الموت .

فأين الإذاعات الإسلامية التي تغطي أنباء هؤلاء !. وأين شبكات التلفاز التي تنقل إلى المسلمين مآسيهم ؟ وأين المسرحيات والأشرطة السينمائية التي تصور فواجعهم .. وأين الكتب والمنشورات والمؤتمرات التي عقدت من أجلهم ، ولتعريف العالم الإسلامي ـ على الأقل ـ بقضاياهم ؟..

فليت شعري لو أن للمسلمين إعلاماً نظيفاً وافياً بحاجتهم صالحاً لعرض أحوالهم ومظالمهم ، قادراً على إيصال أبنائهم إلى كل مكان ، أو على الأقل إلى آذان وأبصار المسلمين فقط .. أكان شأنهم كالذي نشهده اليوم ؟.. أو كان لخصوم دينهم مثل هذا السلطان الذي يفرضون به نفوذهم على دولهم وأوطانهم !..

قبل عامين قرر مجلس الكنائس الغربي عقد مؤتمره العالمي في أندنوسية ، وقد اختار ذلك القطر الإسلامي الكبير إمعانا منه في إيهان المسلمين وإيئاسهم .. ووضعت كل أجهزة الدولة تحت تصرف الوافدين من أعضائه حتى بيوت المسلمين تقرر أن تستقبلهم ضيوفاً مكرمين !. وكادت الجريمة تتم .. ولكن رابطة العالم

الإسلامي تحركت بكل ثقلها العالمي ، وما زالت تكافح حتى اضطرت الحكومة الأندونوسية إلى إلغاء تلك الزيارة المهينة •• وأنا لا أشك أن للدبلوماسية الإسلامية يومئذ أثرها المجيد في هذه النتيجة الكريمة ، وإن لم تعلن موقفها رسمياً من المؤامرة ••

لا جرم أن هذا الانتصار قد رفع من معنويات المسلمين ، وأشعرهم بأنه لا يزال للعالم الإسلامي وزنه الدولي ، الذي يملك تغيير مجرى الأحداث بتوفيق الله • أفليس من حقنا أن نتساءل هنا : لماذا لا نتعلم من هذا الدرس كيف ننظم وسائلنا الإعلامية ونطورها حتى تستطيع أن تغطي حاجتنا إلى تعرف قضايانا الإسلامية ، ثم إلى تعريف العالم بهذه القضايا وواجبه نحوها !••

يكاد العاملون للدعوة يجمعون على أن في المجتمع الأميركي الذي يستميت في نصرة إسرائيل ، استعداداً كبيراً لقبول الحقائق التي يجهلها عنا ، لو أتيح لهذه الحقائق من يحسن عرضها عليه بالأسلوب الذي يفهمه •• وهكذا القول في الكثير من الأقطار التي تناوىء قضايانا في المحافل الدولية ، فإلى متى يستمر جمودنا تجاه هذا الفراغ دون أن نتحرك لملئه بالعناصر الإعلامية ذات الكفاية العالية ؟••

ثم •• إن الله الذي ميزنا بالرسالة الخالدة ، قد جعل في مصارف الزكاة الثمانية سهماً خاصاً بالمؤلفة قلوبهم ، ولو نحن حققنا هذا السهم وحده لأمكننا الاستيلاء به على مئات الأقلام التي تصنع اتجاهات الرأي العام في الغرب كله فما بالنا نتخبط في مهامه الضياع ، وننتظر من الآخرين أن يهتموا بمشكلاتنا أكثر مما نهتم بها نحن !••

من الجاهلية الى الاسلام :

قلت فيما أسلفت : إن كل فكرة يراد لها الانتشار لا غنى لها عن الاستعانة بالوسائل المساعدة على تبليغها بالصورة التي تحقق لها القبول •• وما أعرف مجتمعاً في قديم الزمان وحديثه خرج على هذا الأصل ، وإنما تتفاوت الجماعات في هذا الصدد بقدرتها على ابتكار الوسائل الأكثر تأثيراً •

في الجاهلية كان الإعلام يرتكز على الشعر يلقى في الأسواق وفي المناسبات، المختلفة ، مشيداً بمناقب القبيلة ومنوهاً بقوتها فتتناقل الألسن هذا الشعر لتثبت لهـا المهابة في قلوب الناس • ومثل ذلك اعتماد الإعـلام الجاهلي على الخطب الموجزة البليغة في الأغراض التي تمس حياة ذلك المجتمع ، وتسجيل المآثر التي توجب الاحترام • وهكذا القول في الأمثال والحكم ، التي سرعان ما تأخذ شكل القوانين العامة الجازمة ••• وكان هـذا النحو من الإعلام وافيـاً بحاجة تلك المجتمعات ومساعداً على انتشار ما يراد به من أهداف •

ولما أشرق فجر الإسلام على هاتيك الظلمات كان طبيعياً أن يفيد من هـذه الوسائل المعهودة ، ويزيد عليها ماتوحي به مقاصده العالمية •

أما الخطابة فكادت تكون من إبداع الإسلام في وسائل التبليغ ، إذ تحولت به من فقرات لا جامع بينها سوى إطار الحكمة ، إلى فن ذي أصول محـددة متماسكة ، ويمكن القول بأن معظم النصوص النبوية في نطاق الدعوة جاءت من صميم هذا الفن ، مميزة بالألق الذي يساعد على حفظها وتناقلها على الدهر • وكذلك الشـأن في الشعر الذي اقتضت ظروف الدعوة أن يتأخـر استخدامه للإعلام الإسلامي إلى مابعد الهجرة النبوية ، حيث تجلى على ألسنة العلية من مؤسسي المدرسة الحديثة لهذا الضرب من الشعر المتميز • وهكذا برز المجتمع الإسلامي المتكامل في المدينة ومعه كل وسائل الإعلام الناجح ، في نطاق الكلمة المنظومة والمنثورة ، إذ كان له شعراؤه المنافحون عن كيانه ، المتعقبون لخصومه وكان له خطباؤه الذين يقحمون بموحيات الوحي ، الفحول المجربين من فرسان الخطابة الجاهلية • ولقد خلدت سورة الحجرات أخبار تلك المناظرة البلاغية التي قامت بين شاعر النبي ﷺ وخطيبه من جانب ، وشاعر تميم وخطيبها من الجانب الآخر ، فلم ينفض الجمع حتى أقر وفد تميم بالهزيمة على نفسه أمـام سلطان البيان الإسلامي الجديد • ولا بد أن تكون أخبار هذه المناظرة قد تسربت في حينها إلى أنحاء الجزيرة فأثارت الاهتمام البالغ إذ من غير المعقول في موازين

ذلك العصر ، أن تتفوق الحاضرة على البادية في حلبة الكلمة التي لا تقل أهمية عن حلبات القتال ، إلا أن يكون في هذه الكلمة الجديدة سر لم تعهده الجزيرة من قبل •

وفي المدينة نظمت العقود الدستورية ، متمثلة في معاهدة حسن الجوار والتعاون بين المجتمع الإسلامي والأقلية اليهودية ، وفي المدينة بدأ عهد الإعلام الكتابي محمولاً إلى الملوك والأمراء وقادة الجماعات الغارقة في خضم الضياع يدلهم على طريق النجاة ، ويقرع ضمائرهم النائمة بكلمات الله •

ومن المدينــة انطلقت البعثــات العلمية إلى مختلف أنحاء الجزيرة تحقق موعود الله بإخراج الناس من الظلمات إلى النور ••

وقبل الهجرة إلى طيبة المباركة كان الإعلام الإسلامي مقتصراً على جهود الرسول ﷺ في عرض الإسلام على كل من أتيح له الاتصال به ســواء في مكة أو الطائف ، أو في المواسم والأسواق ••

وقصارى القول في هــذا أن رسول الله ﷺ لم يــدع أيا من الوسائل المساعدة على التبليغ من إمكانات عصره إلا أخضعها لمصلحة الدعوة ، وبذلك يعلمنا صلوات الله وســلامه عليه أن لا ندخر وسعاً ولا نغفل أداة من شأنهــا إيصال كلمة الله إلى قلوب عباده ••

الاعلام القرآني :

لقــد كان القرآن ــ ولا يزال وسيظل إلى الأبــد ــ هو المنطلق الأول للإعلام الإسلامي ، وإلى هذا يشير تبارك وتعالى في توجيهه لنبيه ﷺ : (فــلا تُطـعِ الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً ــ ٢٥/٥٢) ولا شك أن أكبر عوامل السقوط في مسيرة المجتمع الإسلامي خلال التاريخ هو الانصراف عن هــداية هذا الكتاب الحكيم ، والتشاغل عن الوحي المعصوم بأقوال الرجال الصالحة بطبيعتها للخطأ والصواب ، ومن هنا كانت شكاة الرسول إلى مولاه حين يقول :

(يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا ٢٥/٣٠) ومن هنـا أيضا كان تعويله على القرآن العظيم في مخاطبة القلوب عند تبليغ الدعوة ـ وقد رأينـاه صلوات الله وسلامه عليه يستمع إلى عتبة بن ربيعة حين بعثه زعماء المشركين لمساومته ، حتى إذا فرغ هذا من عروضه أقبل عليه الرسول يعالج قلبه وسمعه بالآيات القارعة من صدر سورة (فصلت) .. فلم يلبث أن عاد إلى قرنائه عابساً باسراً يغالب نفسه بالباطل على الحق .. وعلى هذا النحو كان سلوكه في دعوة كل طارىء ومقيم حتى قدر الله له لقـاء الستة السابقين من أهل المدينـة ، إذ عرّفهم مهمته ، وتلا عليهم الوحي الذي يبلغه عن ربـه فيشرح الله صدورهم للإسلام ، ويكون ذلك مبدأ العهد الجديد في حيـاة الدعوة الإسلامية .. ثم يستتبع هذا توجيه مصعب بن عمير رضي الله عنه في العام التالي إلى المدينـة ليكون ممثلا لأول بعثة تعليمية في تاريخ الإسـلام .. ويلتزم مصعب منهج نبيه ﷺ في أسلوب الدعوة بالقرآن .

وفي قصة إسلام السعدين : أسيد بن حضير وسعد بن معاذ (رضي الله عنهما) واحد من أروع الأدلة على نجاح هـذا الأسلوب الرباني في تحريك المشاعر وإيقـاظ الضمائر ، ذلك أن كلا من الزعيمين كان يقـدم على مصعب بدوافع النقمة والإصرار على التنكيل ، ولكنه ما إن يسمع آيات الله يتلوها عليه حتى يصحو من غفلة الجاهلية ، ويقبل على الإسلام طائعاً مختاراً سعيداً ، ثم تكون عاقبة هذا النجاح إسلام بني عبد الأشهل عشيرة سعد كلها في اليـوم نفسـه ...

والرواية المشهورة عن إسلام الفاروق تؤكد أن آيات معدودة من صـدر (طه) قفزت به من أعماق الغياهب إلى قمم النور ، حتى لم يعد قادراً على كتمان إسلامه ، فراح يتحدى به رؤوس الكفر الذين كان إلى لحظات قريبة واحداً من أغلظ عتاتهم .

ولا عجب أن يكون اعتماد الدعاة على القرآن بالدرجة الأولى ، لأنـه

مركز الإشعاع الذي منه تبدأ الدعوة ، وإليه ينصرف المستجيبون • ومنه يستمد الفرد والمجتمع النماذج المثلى التي بها يقتديان وإليها يحتكمان • ولكن لا بد من ملاحظة الفارق الواسع بين جيل الدعوة الغابر والجيل الذي نعاصر ، من حيث الفهم والتذوق • فقد توافر للأولين من سلامة الفطرة ، وملكة التفاعل مع أسرار البيان المعجز ، ما أهلهم للتمييز بين كلام الله وكلام عباده •• بخلاف ما انتهى إليه الناس في هذه الأيام من اختلال الفطرة ، وفقدان ملكة التمييز • هذا إلى أن المخاطبين بالدعوة اليوم يمثلون أصناف البشر على تعدد ألوانهم ، فلا سبيل إلى معالجتهم بتلاوة الآي ، دون إطلاعهم على مقاصدها ، ودون إبراز ما تحمله إلى الإنسانية من الأصول الهادية الى أقوم طريق في كل مجالات الحياة •••

وبديهي أنها مهمة لا يطيق النهوض بها إلا المتميزون بالاستعدادات المتفوقة من استقامة على الجادة ، وإحاطة بواقع المدعوين ، وإلمام بجوانب الثقافة العالمية ، هذا إلى اعتبار الدعوة الإسلامية هي صاحبة الحق في الهيمنة على كل مقومات الحياة الإنسانية ، وبتعبير آخر : على كل مبتدعات الحضارة البشرية الصحيحة تحقيقاً للتوجيه الإلهي الصادر إلى المبعوث رحمة للعالمين ، في قول الحكيم العليم : (قل : إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ، لا شريك له • وبذلك أمرت ، وأنا أول المسلمين ٦/١٦٢ ــ ١٦٣) •

فكما أن العبادة في الإسلام خالصة لله وحده ، كذلك كل تحرك في الحياة يجب أن يكون خاضعاً لهذا الخط يستوي في ذلك رسول الله وأي مسلم من أمته ••

وفي التعبير بـ (أول المسلمين) ما يشد الفكر إلى أن الوصف الذي أمر ﷺ بالتزامه إنما وجب بحق الإسلام ، لأن المسلم الحق لا يخرج عن كونه مثالاً حياً لهذه المعاني الربانية ، كما يتضح من قول عائشة (رضي الله عنها)

حين سئلت عن أخلاق رسول الله ﷺ ؟ فأجابت : (كان خلقه القرآن)[1] .
وإذاً ففي ضوء هذا المفهوم لا بد من إخضاع كل وسيلة صالحة للإعلام النظيف إلى سلطان الدعوة ، تمكيناً لها من الذيوع ، وتوضيحاً لسموها وتفوقها على سائر الدعوات والمذاهب التي يتخبط البشر في مجاهلها . ولا خلاف على أن في مقدمة هذه الوسائل كل الفنون الإذاعية من المسموع والمنظور والمقروء جميعاً ..

مقترحـــات عمليـــة

بعد الذي أسلفناه من عرض مركّز وعام لتاريخ الدعوة وواقعها الراهن ، وحاجتها إلى ميسرات التبليغ ، يحسن بنا أن نذكّر بأهم الأسباب التي علمتنا التجارب ألا مندوحة عنها لأداء حق الإسلام في أعناقنا إلى الإنسانيـة ، التي تنتظره ولا تعرف السبيل إليه . وإذا كان الموضوع خاصاً بالكلام عن الإعلام فلنتذكر أولا أنه لم يتجاوز حتى الآن ــ إلا قليلا ــ نطاق الجهود الفردية . التي يتطوع للنهوض بها رجال آمنوا بالحق فاندفعوا لنصرته بكل ما أوتوا من قدرة وموهبــة ، وأن المطلوب الآن نقل هــذا الجهاد من نطاق الأفراد إلى مسؤولية الجماعة ، ولا سبيل إلى تحقيق ذلك إلا عن طريق مؤسسة تخصص للإعلام الإسلامي ، ملحقة بمكتب الدعوة المركزية ــ الذي عرضنا لصفاته في البحث المتعلق بشؤون الدعوة ــ وتكون مهمتها الرئيسية تنظيم وســائل هذا الإعلام والإشراف عليها في كل وطن للمسلمين ، وفي كل دولة أخرى تسمح به .

أما صلاحيات هذه المؤسسة فتشمل المنطلقات العشر التالية : ــ

١ ــ تكوين صحافة إسلامية دورية لكل بلد بلغته ، تعرض حلول الإسلام للمشكلات العالمية وتدافع عن قضايا العالم الإسلامي ، وتبرز المظالم الواقعــة على بعض أجزائه .

---

(١) رواه مسلم واحمد .

٢ ــ إحــداث دور لنشر التراث الإسلامي النفيس ، وطبع المؤلفــات والمنشورات المتصلة بموضوع الإسلام •

٣ ــ تخصيص حقول في الصحف الإسلامية ، واستئجار حقول أخرى في الصحف الأجنبية لفضح أكاذيب المستشرقين والمبشرين والمفترين على الإسلام بالأسلوب العلمي المنهجي المقنع حتى يشعر أولئك الأفاكون بأنهم مكشوفون فيخرسوا وينصفوا كما حدث لهم في مؤتمر كراتشي عام ١٩٥٧ حين وجــدوا أنفسهم تلقاء استعداد إسلامي منظم لتفنيد أباطيلهم ، فسحبوا بحوثهم المضللة وأقروا على أنفسهم بالهزيمة المنكرة •

٤ ــ العناية بترجمة معاني القرآن الكريم إلى مختلف اللغات الحية ، من قبل لجان عالية الثقافة كي تسلم من مثل الأغاليط التي وقع فيها الأفراد ، الذين عولوا في فهم المعاني الإلهية على اجتهاداتهم الناقصة وإدراكهم القاصر للغــة القرآن •

٥ ــ إنشاء معاهد خاصــة لإعداد الــدعاة فوق مستوى الليسانس •• تزودهم بكل ما يمكنهم من الفهم والإفهام والتأثير ، مع قَصْرِ عمل خريجي الجامعات الآخرين على تعليم المسلمين عقيدة التوحيد والأحكامَ والآدابَ التي لا غنى للمسلم عنها •

٦ ــ إحداث برامج إذاعية دائمة لتعليم العربية على الهواء لغير العرب ، في أسلوب مبسط ومحبب • وتُخصَّص حصص من هذه البرامج الإذاعيــة للمصحف المرتل وأخرى لتدريب المسلم على التلاوة المجودة •

٧ ــ وضع مخطط متطور بالتعاون مع هيئات التوعية الإسلامية بالمملكة لتحقيق أكبر الفوائد من مناسبة الحج ، تتناول توجيــه المعتزمين الحج قبــل وفودهم إلى الديار المقدسة ، ومتابعتهم بعد الوصول ، لتزويدهم بكل ما يؤمن لهم حجا صحيحا ، ووعيــاً صحياً ، وعيشاً كريماً لائقــاً بالمسلم •• عن طريق

النشرات المصورة والمرشدين الذين يحسنون مخاطبة النفوس والعقول ، مع مراعاة مستويات الحجاج ولغاتهم ، بحيث يوكل بكل فريق منهم معلمون بلسانه .

٨ ـ التركيز على وسائل الإعلام الفني من إذاعة وتلفاز وسينما ومسرح وما يتصل بهذه الفنون من قريب أو بعيد .

ولا جرم أن حرمان الدعوة الإسلامية من هذه الفنون ، التي تحتل في هذا العصر أكثر ضروب الإعلام فاعلية ، في توجيه الأفراد والمجتمعات البشرية ، لا يمكن تعليله إلا بالبعد عن واقع الحياة وعزل الإسلام نفسه عن ميدان التوجيه العالمي ، لتظل هذه الفنون محتجزة في أيدي الفارغين العابثين الهدامين الذين لا يرجون لله وقارا .

إننا نريد للدعوة الإسلامية إذاعة خاصة بإشراف مؤسسة الإعلام الإسلامي تعرض الإسلام ثقافة وعبادة وتعاملاً وتاريخاً وفنوناً ، ليعلم من لا يعلم أن الإسلام نظام الحياة الكامل أنزله الله (تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ١٦/٨٩) وبذلك تُنقَذ إذاعات المسلمين من تلك المساخر التي أفسدت الذوق العام ودمرت في الشباب روح الجد ، بجري القائمين عليها وراء المفسدين الغاوين من أعوان الشياطين ....

نريد للدعوة تلفازا يعرض عصور الإسلام الذهبية في تمثيليات محكمة بناءة تربط قلوب المشاهدين بروح الدين ، حتى يكونوا على الصورة التي ترسمها الآية الكريمة (ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً ، وقال : إنني من المسلمين ! ٤١/٣٣) ويبرز حاضر العالم الإسلامي على تباعد أقطاره الجغرافية وحدة منتظمة في وشائج الأخوة بما ينطوي عليه من وجوه النشاط العام في التعليم والزراعة والصناعة والمخابر والثروات ومختلف مظاهر الطاقات.

نريد للدعوة خيالة . (سينما) نقية من المخازي التي جعلت هذا الفن

وصمة عار في جبين العالم الإسلامي ، حافلة بالفضائل التي يطلقها الإسلام في كل جوانب الحياة الانسانية ، فتمنح المشاهد علماً وأخلاقا واعتزازاً بانتمائه المتميز •

نريد للدعوة مسرحاً يحمل للمشاهد كل هذه المغذيات العقلية والروحية ، فيخرج من قاعة العرض وقد زاد معرفة بعمالقة التاريخ الإسلامي ، وإلماماً واعياً بإمكانات المسلمين ، وإيمانا لا يتزعزع بمستقبل الإسلام •

وغني عن البيان أن لا سبيل إلى ذلك كله إلا عن طريق الكلمة المؤمنة ، يكتبها القلم النظيف ، ويغذيها القلب الممتلىء بالحب لله ولرسوله ولكتابه ، الموقن بأن الدين النصيحة لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم ••

٩ ــ مسابقة المبشرين في ميدان الصحة والتعليم، وذلك بإقامة المستشفيات ودور العلم في كل بلد إسلامي تتأكد حاجته إلى هذه المؤسسات ، قياماً بواجب الأخوة في الله وحماية له من غزو التبشير ، الذي لا يقدم إليه الكتاب ولا الدواء إلا ليسلبه أغلى ما يملكه من المقومات الروحية •• ويوم نوفق إلى هذه التعبئة القاهرة لن يبقى أمام أساطيل المبشرين في أندنوسية وغيرها من بلاد الإسلام إلا الانسحاب أو الاستسلام ••

١٠ ــ تأليف مجلس باسم الجباية الشعبية ، يكون له فرع في كل بلد إسلامي •• ومهمته تلقي المساعدات الدورية ، وتبرعات المحسنين ، لتمويل هذه المهام التي لا يصح أن يتلكأ في مساعدتها مسلم يملك القدرة عليها • وقد سبقتنا إلى هذا التدبير الحكيم مؤسسات التبشير التي تتدفق عليها مئات الملايين من كل بلد في الغرب ••• وكذلك منظمات الجباية اليهودية التي تمد الكيان الإسرائيلي في فلسطين السليبة بالقناطير المقنطرة كل عام ••

على أن وجود هذه الجباية الشعبية لا يعني حرمان المؤسسة الإعلامية حقها في معونة الحكومات القائمة في ربوع الإسلام ، بل لا بد أن يكون لهذه

السلطات إسهامها الفعال في تمويل كل عمل يستهدف خدمة الاسلام ، والتعريف به والدفاع عن قضاياه ، في سائر أنحاء العالم . وإنما المراد من الجباية الشعبية أن تكون سبباً في إيقاظ روح التعاون في صفوف المسلمين ، وتدريب الغافلين منهم على المشاركة المادية في دعم الأعمال الإسلامية .

وحسبنا أن تتذكر أن في نظام الزكاة الإلهي ما يضمن للجماعة الإسلامية كل الفرص التي تتطلبها الحياة الكريمة ، وتوفر عن طريق السهم الخاص بالمؤلفة قلوبهم ، كل مايفرضـه الواجب على الحكومات الإسلاميـة من حق الرعاية لدين الله ..

وأخيرا لا مندوحـة عن تكرار التذكير بأن هـذه المقترحات ، بل كل المقررات ، التي تسفر عنها المؤتمرات المعقودة باسم الإسلام ، ستظل في دائرة الأحلام ، إذا استمر معظم الحاكمين في أقطار المسلمين على تجـاهلهم لتطلعات شعوبهم ، نحو اليوم السعيد الرائع الذي يجمعهم بشريعة ربهم على صعيد الواقـع ..

وإنها لكبيرة إلا على الذين هدى الله ....فاللهم اهدنا ووفقنا إلى كل ما تحبه وترضاه ...





التربية والتعليم في موازين الإسلام

بحث مقدم إلى المؤتمر العالمي
الأول للتعليم الاسلامي في مكة المكرمة
سنة ١٣٩٧ هـ

مدخل البحث :

العلم نور يتبين به الإنسان طريقه في مجاهل الحياة ...

وهو هبة الله للإنسان بخاصة دون سائر أبناء التراب ، لأنه مظهر الحرية والاختيار في أعماله المسؤولة ، وفي ماعدا الإنسان لا يعدو التكوين الملزم الذي يطبع الله عليه ما شاء ومن شاء من خلقه ، فلا يستطيع حيدودة عنه إلا في نطاق محدود يقوم على التدريب ، ولا يصير إلى حدود الاختيار المسؤول .

ومن هنا كان رأس البحث في العلم إبراز الملامح الأصيلة لهذا الإنسان الذي يقول فيه خالقه عز من قائل (ولقد كرّمنا بني آدم ، وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا (٧٠) / ١٧) .

وفي ضوء الإسلام تتبين شأن هذا المخلوق المكرم المفضل منذ بدأ ربه خلقه إذ قال للملائكة (إني جاعل في الأرض خليفة . (٢) / ٣٠) . ثم حين أعلنهم بمكانته الرفيعة بقوله (فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين . (٢٩) / ١٥) .

فالإنسان إذن خليفة الله في الأرض ، وقد زُوّد بميزة التسامي على كل مخلوقاته بتلك النفخة القدسية ، التي بها استحق سجود الملائكة ... ثم يأتي البيان النبوي المضيء ليبرز الملامح العليا للإنسان بقوله ﷺ (خلق الله آدم على صورته)[١] وقد اتفق أولو العلم على أن المراد بصورة الرحمن خصائص العلم والقدرة والرحمة .... وما إليها من الصفات التي تمكنه من بناء الحضارات ، ولعل روجر بيكون لم يكن بعيدا عن هذا المفهوم عندما عرّف مهمة العلماء بأنها (إقامة ملكوت الله على الأرض) لأن العلماء في سلوكهم الطريقَ الصحيح إلى المعرفة إنما يكشفون للناس ما خفي عنهم من آيات الله في هذا الكون . ولا عجب:

ففي كل شيء له آية ... تدل على أنه الواحد

(١) من حديث للشيخين

الإنسان والكون :

وعلى ضوء هـذه المنطلقات تتضح علاقـة الإنسان بالكون الـذي أعد للاستخلاف فيه ، فكما زوده سبحانه بالقوى الصالحة للكشف والإبداع ، مهـد له السبيل إلى ذلك بتوفر مادة العمل من حوله ، فهو يحل هذا الكون كالضيف العزيز بعد أن أعد له مضيفه العظيم كل وسائل التكريم ، وأباح له كنوز منزله ينال منها ما يشاء ، ويتصرف بهـا كما يشاء • فسخر له (مافي السموات وما في الأرض جميعا منه • (٤٥)/ ١٢) • وجعل له الأرض ذلولا لا يستعصي منهـا شيء على مواهبه وجده ، ولكنه رحمة به أقام له المعالم التي تحـدد له أسباب النجاح والتفوق ، وتحذره المخاطر التي ترصده كلما أغفل الاسترشـاد بتلك المؤشرات (فمن اتّبع هداي فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا (١٢٠/١٢٣ ــ ١٢٤) •

وإذا أنعمنا التأمل في سورة الزلزلة من كتـاب الله يتراءى لنا أن ميـدان النشاط في هذه الأرض مستمر الانفساح أمام الإنسان لا ينغلق بوجهه حتى تخرج له الأرض أثقالها ، وتكشف له كل مخبأ فيها •••

العلم والتعليم :

وإذن فهناك إنسان مزود بالقـدرة الفائقة ، في كون تيسرت له فيـه كل أسباب الإبداع والإمتاع • بيد أنها تظل في نطاق المجهول حتى يوافيها المؤثر الذي يحسن تحريكها وإطلاقها ، كالجهاز الألكتروني في حالة تكامله ، يظل قطعة مـن الجماد حتى تمسه الشرارة المحركة ، فإذا هو عالم من القوى الهادمة البانية ••

وليس المؤثر المثير لقدرة الإنسان إلا العلم •

لما أعلن الملائكة عجبهم من مشكلة خلق الله الإنسان ، رد عليهم سبحانه بإبراز الميزة الفضلى لهـذا المخلوق ، إذ علم آدم الأسماء كلهـا ثم عرضهم على

---

(١) من حديث للشيخين •

الملائكة ليريهم عجزهم إزاء قدرته في نطاق العلم ، وبذلك زال ما اعتراهم ، وعلموا بما استحق هذا المخلوق الجديد التكرمة التي أمروا بتوجيهها إليه .

فبالعلم إذن كان استحقاق الإنسان للخلافة ، وبالعلم أصبح صالحا لصناعة المدنيات ، وإقامة الحضارات .

ومن ثم جاء تقديس الإسلام للعلم .

ومن هنا كان أول ما أوحي من القرآن في حراء أمراً من الله بالقراءة ، وتمجيداً لله (الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم) .

ثم تجلى ذلك في شخصية الرسول ﷺ تلقياً للعلم من ربه (وعلمك ما لم تكن تعلم) ، وبثاً لضياء العلم بين عباده (ويعلمكم الكتاب والحكمة . (٦٢) / ٢) . وتقييماً لمنازل الناس على مقدار حظوظهم من العلم (فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم)[1] .

ومن هذا المعين الرباني انبثقت ثم نشطت همم الصدر الأول من أولي العلم للدأب على اشاعته ابتغاء وجه الله والدار الآخرة ، فلم يحجبوا علماً عن جاهل ، لأنهم تعلموا أن (من سئل عن علم علمه ثم كتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار)[2] ولم يسكتوا عن قولة الحق ، على اعتبار أنه من العلم الذي يعتبر الساكت عنه شيطاناً أخرس . وحتى لنرى في تاريخنا العلمي إلى الآن أئمة ينفقون على طلابهم ، ومحسنين يقفون عليهم الحبوس الطائلة ، وعلماء ينادون على مداخل المساجد : أيها الناس هلموا إلى العلم .. كما كان أبو هريرة (رضي) يستنفر الناس للمشاركة في ميراث رسول الله ﷺ : العلم ..

والعلم ضروب :

وما دام العلم هو مناط الامتياز الانساني ، فأفضله ما يساعد الآدمي على

---

(١) رواه الدارمي .

(٢) حديث صحيح رواه أحمد وغيره .

تحقق ذلك الامتياز في ذاته وفي الآخرين ، وذلك هو علم الدين الحق ، الذي بـه يعرف الإنسان مبدأه ومنتهاه ، وفي ضوئه وحده يتبين طريقة اللاحب إلى المصير السعيد ، حتى يستحيل في ظله نورا يهدي ، وقوة تبني ، ومصدراً لكل بهجة في هـذا الوجـود .

ثم تأتي الضروب الأخرى وفيها المساعد الذي لا مندوحة عنه لاستكمال مهمة الإنسان في عمارة الأرض ، التي لا سبيل إليها إلا عن طريق المادة المسخرة لمصلحته ، فلا تسقط مسؤوليته عنها إلا بتوافر العلم بقوانينها ، والدربـة على أعمالها بالإتقان الواجب ، ولا سيما بالنسبة للمجتمع الإسلامي المخاطب بقوله تعالى (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة (٨) / ٦٠) . والفاقه لهـذا الوصف الإلهي : (وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للنـاس ، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب (٥٧) / ٢٥) . لأنه مدرك ألاّ تحقيق لهذه المقاصد الربانية إلاّ بالمعرفة النافذة لخصائص المادة ، والحذق البالغ في استخدامها على أفضل الوجوه .

بيد أن الفرق ما بين علم الوحي وعلوم المـادة أن الأول واجب على أفراد الجنس كلا على حدة وفي حدود إمكاناته الشخصية ، على حين تبقى الأخريات من العلوم حقـاً لازمـاً على الجنس ينهض به بعض عن الكل بما يؤمن الكفاية للجميع ويحقق لهم القدرة على حماية وجودهم ومصالحهم ، حتى لا يطمع بهـم عدو ، ولا تستذلهم إلى غيرهم حاجة .

وما عدا ذلك وهذه من ضروب العلم فنزعات إبليسية ، يزينهـا الشيطان لأوليائه ، كي يهدر بها جهودهم بصرفها عن البناء إلى مجرد الهدم ، تحت اسـم العلم حينا والفن حينا آخر ، وهي لا تعدو كونها لذة عـابرة تسوق المجتمع إلى هاوية فاغرة .. وإلى مثل هذا يشير الرسول الأعظم ﷺ في دعائه المأثور : (اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع)[1] .

---

(١) من حديث أخرجه مسلم .

تضخم وضمور :

وبقليل من التأمل في أهمية كل من الجانبين في حياة الجماعة البشرية ندرك أن لا كارثة أعمق أثراً في وجودها من انصرافها إلى الجانب المادي وحده ، لأنها في هذه الحالة ستفقد الوازع الداخلي الذي ينظم تصرفاتها في نطاق الأفضل والأقوم • إنها إذ ذاك كالقرد الذي تعلم من صاحبه كيف يشعل فتيل القذيفة ولكنه أبى ألا أن ينظر إلى حركة انطلاقها من الفوهة ، فكانت عاقبة أمره خسران•

إن واقع الانسانية اليوم ليترجم هذه الحقيقة الرهيبة بأجلى بيان ، فالقابضون على أزمة العلوم المادية في الغرب والشرق على السواء يقودون القطيع البشري بعنف إلى المجزرة القاضية ، لسبب واحد هو فقدان التوازن بين عنصري الحياة : المادة والروح ، العقل والقلب ، بل انقطاع الشرق والغرب جميعاً إلى عبادة التكنولوجية مع القضاء التام على كل صلة بالجانب الآخر •

إن هناك تضخماً هائلاً في الطبيعة الترابية من الإنسان ، بإزائه ضمور أشد هولاً في الطاعة الروحية •• ومن هنا نشأ الشقاء الذي تعانيه الجماعة البشرية في كل مكان ، لأن المارد الآلي قد انطلق في معزل عن الضوابط ، فهو كالسكران المسلح يقذف برشاشه في كل اتجاه وهو ينشد : (أنا أعمى ما أشوف ، أنا أعمى ما أشوف ، أنا ضراب السيوف) •

الإسلام هو المهيمن :

يقول ربنا تبارك وتعالى في وصف القرآن العظيم (مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه (٥) / ٤٨) وكون القرآن الحكيم مصدقاً للكتب السابقة له في الزمن تقرير لوحدة الرسالات الإلهية ، ومن ثم تثبيت نهائي لوحدة الأسرة البشرية بقيادة رسل الله ، ثم إذا تذكرنا أن الوصف الجامع للنبيين أنهم المعلمون الأعلون للإنسانية ، يحملون إليها المناهج التي على ضوئها يجب أن تنبثق منطلقات التعليم جميعا ، أدركنا أن للتعبير الإلهي بالهيمنة مدلولاً أبعد من ظاهر اللفظ ، يتناول التوحيد والضبط والمراقبة ، بمعنى أن كل تصرف للإنسان يجب أن تحكمه

قوانين السماء ، وكل منهج للتعليم ينبغي أن ينهض على قواعد الربانية ، فلا يكون ثمة علم يشده إلى ربه ، وآخر يقصيه حتى عن ذكره ، ثم لا يكتفي بإقصائه حتى يغرس في خلده كل مضلة تسلخه من الإيمان بوجوده سبحانه ، لتنتهي به أخيراً إلى التمزق المدمر في داخل ذاته ، بما تنشئه من الصراع بين فطرته المؤمنة وذلك التوجيه الشيطاني .

أجل .. إن الإسلام يجب أن يكون المهيمن على كل تحرك في ميادين التعليم ، بحيث لا تقرر مادة إلا بعد إقراره إياها ، ولا يؤتمن أحد على التدريس مطلقاً إلا أن يكون من المؤمنين بهذه الحقيقة أو محكوما بها قبل كل شيء ، وحين نفعل ذلك في ديار الإسلام فسيكون الأمل كبيراً بتغلب عناصر الخير حتى يتكون الجيل الذي يصلح للنهوض بأمانة الله ، ويومئذ فقط نتيقن أننا في الطريق السوي إلى استعادة مكانتنا في قيادة البشرية التي تنتظر الدين المنقذ . وإذا تعذر ذلك على المصلحين في أنحاء العالم الإسلامي هذه الأيام فلن يتعذر تحقيقه في هذه المملكة التي شاء الله أن تكون موضع الأسوة الحسنة لسائر أقطار المسلمين (ولينصرنّ الله من ينصره ، إن الله لقوي عزيز ، الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور (٢٢)/٤٠ — ٤٢) .

وهذا الذي نؤكده لم يعد مفاجئاً للتفكير البشري في أي مكان من العالم ، ففي الغرب والشرق أولو حجى تعلموا من تجارب مجتمعاتهم ، ومن الضياع الرهيب الذي انتهت إليه أجيالهم ، ألاّ نجاة من التيار إلا بمعجزة من وراء المادة ، غير أنهم جميعا متساوون في الجهل بمصادر هذه المعجزة ، ولو أتيح لهم أن يعرفوا الإسلام من منابعه الصافية لألفوا ضالتهم في تعاليمه ، التي بها وحدها سيجدون الحلقة المفقودة لتوازن الحياة الإنسانية .

ثورة على المألوف :

ذات أمسية من عام مضى سمعت مذيعا من لندن ، أو صوت أميركة ، يلخص مضمون كتاب لأحد خبراء التعليم الغربي ، وفيـــه ما يشبه الثورة بكل خطط التعليم المألوفة في الغرب ، بل في العالم الدائر في فلك الغرب إذ أنه يهاجم كثافة المواد المفروضة على الطالب فيثبت بالدليل القاطع أنها ليست أكثر من عبء مرهق لصحته العقلية والجسدية ، فهو مكب عليها ليل نهار ، حتى إذا صبها على أوراق الامتحان فارقها غير آسف ثم لا يكون بينها وبينه لقاء أبداً ، ومن ثم يقدم المؤلف اقتراحه الغريب وهو أن تقتصر منـــاهج التعليم في المدرســـة على الأسس التي لا غنى عنها للإنسان ، والتي سترافقه طوال مراحل حياته على اختلاف مسالكها ، ألا وهي لغته القومية ، ثم الحساب والثالثة هي تعرف بيئته والإحاطة بخصائصها وحاجاتها وإمكاناتها .

ولا جرم أن خطة هذه أصولها من شأنهـــا أن تخرج العامل الجـــاد الذي يحسن الانسجام مع وسطه الاجتماعي القبلي ، ولكنها لن تربي الانسان الفاضل ، الذي يساعد على توسيع رقعة الخير العام والإسهام في التخفيف من الظلام .

إن ذلك الخبير لضائق ذرعاً بأكداس المقررات ترهق كواهل الطلاب ، ولكنه لا يستطيع الخروج بتفكيره مـــن قوقعة المادة ، فيأتي اقتراحه مسخاً جـــديداً لحقيقة الانسان ، لأنه لم تتح له الفرصة لتقييمه هذا الإنسان في موازين الإسلام ، إن تصوره للإنسان لا يعدو مفهومات بيئته التي لا تراه أكثر من حيوان متمدن ، فكل ما يجب في حقه أن يكون قادراً على الانسجام في جو القطيع الذي ينتمي إليه ، فيتبادل معه المنافع التي تحفظ له كيانه بين القطعـــان الأخرى .. وبذلك تقف ثورة المؤلف عند حدوده المعدة ، فلا اهتمام بما وراءها من دين أو قيم أو تطلعات وجدانية إلى ما وراء التراب . وإنما هو الاكتفاء بالضروري المساعد على البقاء في معزل عن تلك المقررات التي لا تخرج عن نطاق الترف المهدر للطاقات في حسبانه .

بلى إنها ثورة على المألوف بيد أنها لا تزيد عن كونها تكريساً للأسس نفسها المألوفة في ظل الحضارة الغربية .. إنها تركز على الجانب الحيوي وحده من هذا المخلوق ، وتتجاهل في الوقت نفسه الجانب المقابل الذي به استحق تكرمة الملائكة وبحوافزه العليا يستطيع إحالة الأرض بكل ما فيها معبداً يشرق بنور ربه (قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين (٦) /١٦٣) .

مناهجنا الأصيلة أمام الغزو :

ومع أننا نرفض مثل هذا التفكير القاصر في شأن الإنسان فإننا نجد في تقليصه لمواد الدراسة موضوعاً يستدعي التأمل في أبعاده ونتائجه ، وأول مايعرض للذكر هنا ما سبق لأئمة التعليم في عصور الحضارة الإسلامية من تجارب تتفق مع هذا الاتجاه إلى مدى غير قليل ، فقد أجمع هؤلاء الجهابذة على أن الطريقة المثلى في التعليم هي الأخذ بيد طالب العلم درجة بعد أخرى ونوعاً بعد نوع ، بحيث لا يُجمع له بين مادتين ، إلا أن يكون الطالب من الطراز المتفوق في اللقانة وسرعة الفهم . وقد استمر ذلك ديدن شيوخ العلم حتى أيامنا هذه في بعض المناطق ، التي التزمت طرائق الأولين ، ونجد شواهده في ما كتبه أولئك الأعلام في العصرين العباسي والأندلسي كما نجده في ما تعلمناه عن المغفور له العلامة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي أثناء حديثه عن شيوخه .

فعلى هذه الطريقة يلازم الطالب مادته حتى يستوفيها ، ومن ثم ينتقل إلى ما بعدها على غرارها ، وهكذا دواليك . وطبيعي أن حصيلة هذا المنهج هي العمق والتركيز والإحاطة ، تلك العناصر التي تجعل من المادة الواحدة موسوعة من المعرفة مدعومة بكل ما يتصل بها من ألوان النشاط الثقافي ، وهكذا قُيض لأولئك العمالقة أن يخرجوا العلماء الذين لم يكتفوا بما تعلموا ، بل أضافوا إلى ذخرهم الموروث تجاربهم المتجددة أبداً ، فكان منهم أئمة الدين والدنيا ، بل لا يكاد أحدهم يفقد القدرة على الجولان في كل فن ، حتى ليخيل إلى سامعه أنه اختصاصه الوحيد والأثير .

كان ذلك أيام كان للمسلمين امتيازهم الحضاري ، الذي جعل من عواصمهم محج طلاب المعرفة من مختلف الأمم ، حتى إذا تسرب الوهن إلى حياتهم وجاءت الظروف التي عزلتهم عن قيادة العالم ، فترت الهمم ، وجمدت الأفكار ، وأصبح المنهج الذي كان مصدرا للإبداع من قبل ، صوراً باهتة من آثار الماضي ، وقد تمت الكارثة بالغزو الكاسح الذي سننته الحضارة الغربية الفتية على ديار الإسلام ، إذ فرضت الأنظمة (الدنلوبية) على مسار التعليم ، فأقصته عن روح الاسلام ، وحصرته في مؤخرة المقررات يتيما منبوذا لا يجد من ينصره أو يهتم به ، إلا المغامرين من أهل الإيمان ، الذين آثروا الآخرة على حظوظ الدنيا ، فتشبثوا به وهم يعلمون أنهم بذلك يعزلون أنفسهم عن نطاق الوظائف الرسمية ، لأن القابضين على أزمة السلطان أغلقوا أبواب العمل الحكومي ، إلا بوجوه الناشئين على أساس المناهج التبشيرية أو العلمانية . والأمثلة على هذا الواقع الكئيب أكثر من أن تحصى في كل مكان من وطن الإسلام خارج هذه المملكة .

تطور ... ولكن :

لقد كان لهذا الوضع الطارىء أكثر من رد فعل واحد في أوساط المنقطعين إلى بقايا التعليم الإسلامي ، فالمرافق التعليمية الملحقة بالمساجد وهي المؤسسات الأولى للتعليم في تاريخ الإسلام ـــ قد عطلت نهائياً ، فاستحالت مراكز للخدمات الاجتماعية ، كشأنها في تركية الكمالية ، أو مأوى للكسالى والدراويش ، ولا يزال ، بعضها مشغولاً من قبل طلاب للعلم في بعض المدن ، وقليل ماهم .

والكتاتيب التي طالما تخرج فيها أوساط العلماء ، قد جمدت على إقراء القرآن إلى جانب الخط وبعض الحساب .. وحتى الحساب استبعد من بعضها ـــ كما اتضح لي من خلال اطلاعي على مناهج التدريس في مختلف أنحاء العالم الإسلامي ـــ .

وهناك مؤسسات تعليمية مسلمة هالها أن يصير الأمر بالمتعلمين على

الأساليب التقليدية إلى مثل ذلك التأخر عن الركب العام ، فأقبلت على المناهج الأجنبية تعب منها على غير هدى ، حتى أنها لتتبنى مناهج الفكر الغربي العلماني في بعض تفسير القرآن الكريم نفسه .

يقابل هؤلاء فريق كان أكثر اتزانا إذ علم أن في تجـارب الأمم التعليمية حقائق كونية لا يحسن بالمسلم تجاهلها ، فضم الكثير منها إلى مناهجه القديمة ، ليقارب مقررات السلطات الحاكمة بما يفتح للخريج باب القبول في أعمالها .. ومع أن هذا المسلك كان أدنى إلى السداد من غيره إلا أن أصحابه لم يستطيعوا التخلي عن مبدأ التراكم في مقادير المواد .. فكان قصارى ما حققوه أن خرّجوا المسلم الصوري الذي عَبَرَ بالكثير من ألوان المعرفة دون الغوص إلى ما تحت السطوح ..

هذا إلى لون آخر من الاتجاهات التعليمية ، هو تكوين جيل من أبنـاء المسلمين في كنف المناهج الغربية المحضة ، سواء في المدارس التبشيرية القائمة في قلب البلاد الإسلامية ، أو في المؤسسات العلمانية التي يساق إليهـا المبتعثون لينسلخوا من هويتهم الأصلية ، فيعودوا ليعلنوا الحرب على كل ما يمت بصلة إلى دين آبائهم ـــ إلا من رحم الله ـــ .

النماذج المتنافرة :

أما ثمرات هذا التطوير المصطنع فبارزة في النماذج المتنافرة التي يعج بهـا العالم الإسلامي من أدناه إلى أقصاه ، ولعل أخطرها ذلك الفصل المدخول بين علوم الدين وعلوم الدنيا . فناس غسلت أدمغتهم وقلوبهم من كل تصور إسلامي، فلهم الفرص كلها ، والحظوظ كلها ، وفي مكنتهم أن يدعو إلى كل نحلة ، وأن يرموا الإســلام ودعاته بكل تهمة .. ثم آخرون حبسوا عقولهم ضمن نطـاق الدراسات التقليدية ، في عزلة عما حولهم من أفكار ومذاهب وأحداث ، فـلا يكادون يعلمون عن واقع الإنسانية الجديدة شيئاً ، وقد أغلقت بوجوهم سبل العمل وفرص التقدم فهم يراوحون مكانهم ، مرددين ما حفظوه في أوسـاطهم

المحدودة ، بل إنهم ليسعون إلى مزاعم أولئك في الإساءة إلى دينهم ومقدساتهم دون أن يجدوا سبيلا إلى ردها ، لأن هؤلاء قد أخذوا عليهم كل منفذ إلى أسماع الناس ، واحتكروا كل الوسائل التي يمكن أن تحمل كلمة الحق إلى عقول المضللين .

وما كان لهذه النماذج المتنافرة أن تجد مجالها للبروز في أي من أقطار المسلمين لو أن الإسلام هو المهيمن كما يجب على أنظمتها التعليمية ، لأن المبدأ الذي سيحكمها إذ ذاك هو المبدأ القائم على وحدة الإنسان ، على التوازن المتكامل بين عناصره الترابية والروحية جميعاً . المبدأ الذي من طبيعته تكوين النفس المطمئنة ، التي لا تترك الآخرة للدنيا ، ولا الدنيا للآخرة ، بل تؤلف بينهما في مثل تزاوج السالب والموجب من عناصر الكهرباء على الضد في ذلك الشطط التخريبي الذي تمثله المناهج الأخرى ، التي كان قمة حصائلها ذلك المخلوق العجيب الذي لو رسم بريشة مِفَنٍّ لكان رأساً كالبرميل على جسد كعود الثقاب .

حيرة عامة :

هذه الأوضاع الشاذة المزلزلة أصبحت ــ بعد التجارب الطوال ــ مبعث حيرة كبيرة لأهل الإيمان والفكر من رجال التعليم الإسلامي على امتداد الأقطار الإسلامية .. وقد شاء الله أن أستشرف هذه الحيرة بحكم عملي في قسم المعادلات بالجامعة الإسلامية ومن خلال البيانات التي كتبها هؤلاء في التقديم لمناهجهم الدراسية .. فازددت يقيناً بأن المصيبة واحدة في العالم الإسلامي كله .. مصيبة الاضطراب في فهم الإسلام ، ثم في سيطرة الجاهلين بالاسلام على مصاير المسلمين ، ثم في التيه الذي يأخذ بخناق الجميع فلا يعلمون ماذا يعملون .

في مقدمة إيضاحية لمنهج (مدرسة الإصلاح التعليمية) في (سراي مير ــ أعظم كره) بالهند يعالج كاتبو تلك الصفحات الست موضوع هذه الحيرة بإزاء

المشكلة التعليمية ، في أسلوب من التفكير العميق لا أكاد أعرف بأي فقرة منه أستشهد ، لأنه سلسلة متماسكة من الحقائق التي يحسّها كل مؤمن ذي صلة بهذه القضية •

يبدأ البيان بهذا التقرير الحاسم : (مما لا يخفى أن فلاح المسلمين يتوقفه على التعليم الديني) ثم يعقب عليه بهذا السؤال : ولكن ما هو التعليم الديني ؟• أهو ذلك التعليم الذي ما زلنا نضيع له مواهبنا وأموالنا منذ قرون ؟•• ولو كان تعليما دينياً صحيحاً لم يتورط المسلمون في مهاوي الذل والانحطاط •• حتى يصبحوا عبرة للناس •• فالمناهج الدراسية تنوء بكتب المنطق والفلسفة القديمة وعلم الكلام •• أما القرآن الذي هو منبع العلم والعرفان ، فليس له فيها مجال ، وإذا حظي ببعض الاهتمام فلا يتجاوز دراسة أجزاء من الجلالين والبيضاوي • إنهم لا يعيرون القرآن من العناية معشار ما يعيرونه الكتب القديمة الزائفة العقيمة في التعميق والتقعير حول كلمات شروحها وتعاليقها •• القرآن العظيم قد أصبح مهجوراً ، أما خزعبلات الناس فقد استأثرت بكل الاهتمام •• قد أدى هذا إلى التدهور الفكري للمسلمين ، فابتعدوا عن الوحي الإلهي ، وشغفوا باليونانيات والإسرائيليات •• والابتعاد عن كتاب الله قد انتهى بنا إلى فقدان صلاحية المعرفة والتمييز •••

ويلاحظ واضعو البيان محاولات بعض إخوانهم تطوير مناهجهم بإدخال بعض المقررات الرائجة في عصرهم عليها فيعلقون على تلك المحاولات بقولهم : (إنها خطة جادة مشكورة •• لكنها لم تحدث في الوضع الديني للمسلمين أي تغير •• لأن المسلمين لم يخلقوا لمسايرة العصر ، وإنما غايتهم أن يجبروا الزمن على أن يسير كما يريد الله ورسوله ، فليس الزمن إلها يعبد فننصهر في كل بوتقة يريدها •••)

وإذن فما السبيل ؟ وما المنهج الصحيح للتعليم ؟

يقول البيان : (المنهج الصحيح ••• أن يوضع القرآن في المحل اللائق به ،

وهو أن يكون مصدرا للعلم والعمل كليهما .. نعرض عليه كل ما يواجهنا ، فما صدقه فهو الحق المقبول ، وما رفضه فهو الباطل المرفوض ... وإذا خفي علينا شيء من القرآن رجعنا إلى الشخصية التي حياتها الطاهرة تفسير عملي لتعاليمه ثم إلى سيرة الصحابة والتابعين والأئمة المهديين ..) .

إنها لثورة عارمة بواقع التعليم لدى المسلمين في الهند ، ولكنها تشمل بنفاذها واقع هذا التعليم في كل بلد إسلامي دون استثناء .

إنه تعليم مثقل بالتخلف من ناحية ، وبالتقليد المحض من ناحية أخرى .. ومرد ذلك كله نسيان المسلمين أنهم الأمة المميزة بالرسالة الخالدة ، التي من أهدافها تغيير الواقع بتقويمه ووضعه في الاتجاه السليم ، لا الخضوع له ومسايرته دون نقد ولا تمحيص .

والمفهوم المركز لهذا الكلام واضح الدلالة على أن السبيل الوحيد لإصلاح التعليم عند المسلمين مقصورة على التحرر من التبعية للشرق أو الغرب ، والعودة إلى منابع الوحي نصوغ في ضوئها المنهج والمدرسة والمدرّس والطالب جميعا .

وشتان بين ثورة ذلك الخبير الغربي الذي ربط عينيه في ما بين يديه ، ثم لم يستطع أن يوجه نظره قط إلى الأعلى ، وبين هذه الثورة التي تنظر إلى الإنسان بنور الله ، فتحاول أن ترد إليه كرامته السليبة ، وإرادته المغصوبة ، ليسلك طريقه على بينة من ربه .

وأنا حين أعرض لهذه الفقرات الجريح لا أتساءل عما إذا كان كاتبوها قد حققوا في مناهجهم الدراسية التحرر الذي يدعون إليه .. بل أريد مجرد الإشارة إلى امتداد المحنة التي لم ينج منها مكان من ديار الإسلام .

ولا أذكر بمجهول إذا قلت أن قيام هذا المؤتمر المبارك في البقعة المباركة ، لبحث قضايا التعليم في عالم الإسلام ، هو بنفسه أصرح تعبير عن الحاجة الماسة إلى إعادة النظر في هذا الواقع الذي يتطلع إلى عمل المصلحين .

الإسلام والانسان :

وهنا أحب أن أقف قليلا عند تلك الفقرة المتوهجة بنور الحق من بيـان القوم ، وهي تهيب بأولي الألباب من المسلمين أن يتذكروا المنزلة التي يرشحهم لها دينهم ، فلا يكونوا إمّعات لا عمل لهم الا اتباع الناعقين ، بل يكونوا القادة المخططين الذين يهدون الضالين ، ويرشدون التائهين إلى الطريق الأمين •

وأول بوادر الصحوة المرجوة بإزاء مثل هذا التذكير ، أن نحدد موقعنا من قوافل البشرية ، ومسؤوليتنا عنها وهي تتخبط في متاهاتها الرهيبة ، ثم نعود إلى تقييم ما لدينا من أمانة النبوة •• وعندئذ سنعرف الطريق الصحيح إلى استعادة مركزنا المفقود من قيادة الدنيا •

إن الأمة التي شهد الله بأنها خير أمة أخرجت للناس •• لا يستقيم أمرهـا مع التقليد الضرير •• لأن مناط الخيرية فيها محصور في الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والإيمان بالله ، فإذا تجردت من هذه العناصر لم يكن لها في الخيرية من حق • وفي ضوء هـذه الحقيقة الأولى ندرك أن علينـا نحن أن نُملي على الدنيا مناهج التربية والتعليم ، بدلاً من أن تتلقى من هنا وهناك كل ما طاب وخبث بمنتهى التسليم •

ولكن هذا سيظل في حيز النظريات بل الأحلام ، إذا لم نتخلص بادىء ذي بدء من هذه الثنائية المدمرة التي قسمت شخصيتنا في التعليم بين منهج للتربيـة الدينية ، ومنهج آخر للثقافة المدنية أو العصرية •

إن الإسلام كل لا يقبل التجزئة ، ومن قانونه الجازم أن الإنسان كذلك كل لا ينتظم أمره إلا على أساس التوازن التام بين عقله وقلبه وطاقاته الموهوبة جميعاً •

وهذا يقتضي أن يكون كل تعليم يتلقاه مضاءً بنور من الوحي ، الـذي يجعل من الكون كله معبداً ، كل مخلوق فيه قد علم صلاته لله وتسبيحه بحمده • ويومئذ لن يكون في مناهج المسلمين درس يقرر التوحيد ، ويربط الإنسانيـة

برسالة النبيين ، إلى جانب دروس مضادة توهم الطالب أن الدين كله من اختراع الإنسان ، وأن التوحيد بعد تعدد الآلهة آخر مراحل التطور في سلم التقدم .. وما إلى ذلك من مفارقات لا حصيلة لها إلا بذر الشكوك ، وتمزيق النفس البشرية في صراع لا عاقبة له إلا الضياع ..

القرآن أولا :

وفقرة أخرى من بيان الأخوة الهنود لا مندوحة من التأمل في موحياتها ، تلك التي تتخذ من القرآن وسيرة صاحب الرسالة العظمى مصدراً للعلم والعمل جميعاً . وليس لهذا التقرير سوى مدلول واحد هو أن يعود القرآن والسنة الصحيحة المفسرة له إلى الهيمنة التامة على حياة المسلمين ، بحيث لا يقبل أمر أو يرفض إلا على ضوئهما كما قدمنا ، وإذا كان ذلك قضاء حتما في تصرفات الأفراد والجماعات ، فهو ألزم حتمية في مجال التعليم ، الذي هو ميدان البناء لشخصية كل من الفرد والجماعة .

لقد كان هذا الاتجاه هو الأساس الأول في بنيان المجتمع الإسلامي ، فبه بدأ الرسول الأعظم ، وإليه دعا وعليه جمع .. وعلى الطريق نفسه مضى الجيل الأول ومن تلاه إلى ما قبل الغزو الصليبي الأخير لديار الإسلام ، ولا يزال كثيرون ممن تخرجوا في الأزهر يتذكرون أنهم لم يقبلوا بين طلابه إلا بعد التحقق من حفظهم لكتاب الله ، وإني لأذكر أنّ أول كلمة تعلمتها في الكتّاب كانت اسم الله الرحمن الرحيم ، وأن دروسي اللاحقة كلها لم تنفصل عن القرآن قط ، ولم يكن هذا شأننا نحن المسلمين الصغار وحدنا بل كان ذلك شاملا لرفقائنا من أبناء النصارى أيضا ، وقد استمر ذلك طريقنا حتى انقض على سورية الاستعمار الفرنسي .. الذي بدأ يقصينا شيئا فشيئا عن ذلك المسلك ، حتى انتهى الشأن بأبنائنا اليوم إلى أن أصبح الدرس الديني موضع التندر والسخرية لأنه فقد كل قيمة حتى في مجموع الدرجات .

أجل .. كذلك كان شأن القرآن في حياة المسلمين ، أول ما يطالعهم من

بواكير المعرفة ، فيكون تدريباً لآذانهم على سماعه ، ولألسنتهم على نطقه ، ولعقولهم على ألفة معانيه .. ثم يمضي بهم صُعُدا في مدارج الثقافة المتشعبة ، فتفسير لآياته ، واستنباط لأحكامه ، وتمرس ببيانه ، واستنطاق لشواهده ... واحتكام إلى كلياته وتفصيلاته في كل ما يطرأ على حيوات الأفراد والجماعات من مشكلات ، في الاقتصاد والاجتماع والسياسة والفلسفة والأخلاق والتاريخيات والكونيات جميعا ... ومن هنا كان للمجتمع الإسلامي حصانته القاهرة بوجه التيارات الجائحة ، تضعضعه إلى حين ، ثم ما يلبث أن يستعيد وعيه فيستأنف كفاحه حتى يتحقق له النصر .

فلنقف هنا قليلاً أيضاً ، ولنتساءل في جدٍّ ، ترى .. ما الذي يمنعنا الانتفاعَ بهذه التجارب الأصيلة في تراثنا ... فنعود لنجعل القرآن ـــ وهو مائدة الله الذي لا تنفذُ عجائبه ـــ منطلقاً إلى كل منهج للتعليم على تفاوت مستوياته .

إن عديداً من الحكومات في بلاد المسلمين تقيم الأحفال السنوية لتحفيظ القرآن .. فأي مانع من أن تقوم هذه الحكومات ، وسائر الحكومات المماثلة ، باشتراط حفظ أجزاء من القرآن أمراً لازماً لقبول الطالب في المرحلة المتوسطة كخطوة أولية ، ثم تكون الخطوة التالية تنفيذ هذا الشرط لدخول المرحلة الابتدائية ، وتكثيف الأجزاء المطلوبة للمرحلة المتوسطة فالثانوية فالجامعية ...

نحن والأقليات :

في بعض الدول الإسلامية عدديا أقليات من غير المسلمين وسيثور بشأنهم التساؤل : وهؤلاء ماذا نصنع بهم ؟ أنغفلهم من حق التعليم الرسمي ، أم نفرد لهم مناهج خاصة ؟ والجواب غير بعيد ، ولعلنا تلقيناه منهم أنفسهم ، إن مدارس التبشير في بلاد المسلمين تعلِّم على طريقتها الخاصة ، وتلزم الطالب المسلم ـــ وهو يؤلف كثرة الطلاب غالبا ـــ دراسة برامجها كلها ، بل إنها لتلزمه حضور

صلواتها ، فضلا عما تفرض على صغار المسلمين استظهار نصوص تتنافى مع التوحيد الذي هو أساس ملتهم .. أفليس لنا مثل حقهم في إلزام أبنائهم ـ ما داموا في مدارسنا ـ بمناهجنا ؟ ثم أليس من الخير لهؤلاء أن يعطوا فرصة التعرف لأصول الثقافة الإسلامية أثناء فترات الدراسة ، فلا يكونوا على جهل بما عند الكثرة الكاثرة من مواطنيهم !..

ثم إن طالب الحقوق في بلاد المسلمين وغيرها أيا كان دينه ، مضطر إلى دراسة غير يسير من شرائع الإسلام للمقارنة مع ما يقابلها من القوانين الدولية .. دون أن يكون في ذلك مساس بحرية الاعتقاد ، ودون أن يواجه أي اعتراض من غير المسلمين ، فلماذا نوجس الخيفة ، ونتوهم الأحداث ، إذا نحن جعلنا ذلك منهجا عاما لسائر المراحل !. وما نحسب أحداً من ذوي العلم والعقل يماري في أن الإلمام بعلوم القرآن ، والتبحر في موارد الثقافة الإسلامية ، خير كله للإنسان المتمدن مهما تكن نوازعه وهويته .

وقد أشرت فيما تقدم إلى أننا كنا نتلقى التعليم القرآني مسلمين ونصارى في الفصول المشتركة ، فيقرؤون منه ما نقرأ ، ويحفظون ما نحفظ ، ونحن وهم على أتم ما يكون بين فريقين من الوفاق والتعاون ، ولا غرابة فذلك هو الوضع الطبيعي في وطن يحكمه الإسلام الذي يعلن على الدنيا أن (لا إكراه في الدين).

العودة إلى الأصالة علاج :

هذا وإن لالتزام المدرسة بالقرآن حصائل أخرى لا غنى لنا عنها إذا أردنا إعطاء الثقافة حقها من الاهتمام والعناية . فقد أصبح معلوماً عند غير الجاهلين والمتجاهلين أن ثقافتنا الحديثة قد جنحت إلى التدني المزعج في كل بلد دون استثناء ، ودون تفريق في الحكم ما بين أولى المراحل وأواخرها ، ففي بعض الأقطار تنحدر نتائج الامتحانات إلى مستوى رهيب ، فيضطر المسؤولون إلى تداركها بالإضافات الكبيرة ، وخريجون في الجامعات لا يكادون يحسنون كتابة رسالة في أسلوب سليم ، وآخرون من خريجي الدراسات العليا في اللغة والأدب

لا يميزون بين المنصوب والمرفوع ، ولا يستطيعون إقامة البيت من الشعر ، بل قد يتعثرون في كتابة الآية من القرآن ، ولا يكلفون أنفسهم مراجعته لضبطها ... وأنا لا أظلم هؤلاء لأنهم كثيرون ، وقد كتب عن بعضهم الكاتبون ، وسأعرض نماذج جامعة من أعمالهم العجيبة في كتاب أرجو ألا يتأخر طويلا إن شاء الله ..

هذا التدني المؤسف في الثقافة الحديثة لا علاج له في نظري إلا العودة إلى الأصالة المتمثلة في شهادة ابن مسعود وذي النورين وإخوانهما (رضي) بأنهم كانوا يتعلمون الآيات من كتاب الله ، ولا ينتقلون منها إلى ما بعدها حتى يتعلموا العمل بها . وبذلك تعلموا العلم والعمل جميعا .

من هنــا الطريق :

ونعود الآن إلى نوعية المقررات :

نظرت ــ وكثيرا ما أنظر آسفا ــ إلى حفيد لي يدرس في السنة الثانية من المرحلة الإعدادية ، وقد هم بمغادرة المنزل وهو يحمــل قِـمَطراً ضخماً يكاد ينحني من تحته ، فاستوقفته وسألته : ما هذا الحمل الضخم ؟ أجاب : إنها الكتب التي ستكون فيها دروسي لهذا اليوم . فلم أصدق ، ففتحت القمطر ، وجعلت أستخرج ما فيها من كراريس وكتب فأقارنها بجدوله عن ذلك اليوم ، فإذا هو الصادق وأنا الواهم ...

يا لله ... أكل هذا يحمله حدث لم يَعْدُ الثانية عشرة من عمره ...

أما الكتب فسبعة ، وكلها من ذوات المئات .

وأما الكراريس فتسعة لا تقل عنها ثقلا .

وإذن فهناك ثماني مواد مع التعبير مختلفة لا تعاون بين إحداها والأخرى.

وتستتبع عدداً من التكليفات (الواجبات) العملية ، عليه أن يهيئها جميعاً في المنزل ولو أكرهه ذلك على حرمان النوم وما يلحق به من مضاعفات .

وما أنا ببدع في الأسى لهذا الحدث ، فكل أب وجد وأم يشفقون مثلي على هؤلاء المساكين ••• إلا أني أتساءل عني وعنهم : أبمثل هذه الأعباء المرهقة القاتلة للصحة والموهبة نريد إنشاء الجيل الصالح لبناء المستقبل الذي نحب !••

أما أنا فأقطع بأن هذا مستحيل ، فمثل هذا الوضع لا حصيلة له إلا بغض الدرس وإتلاف الطاقات ، وتخريج الجيل الأشل ، الذي يلتهم المقررات ليتقيأها في قاعات الامتحان ، حتى إذا اطمأن إلى النجاح تركها على أبوابها عازماً على ألا يرى لها وجهاً أبداً •

ولهذا أقول بأن الطريق القويم إلى تخريج الجيل السليم هو ــ بعد التزام القرآن ــ تخفيف هذه الأعباء عن طريق الاصطفاء ، فلا نتقيد باختيار الآخرين ، بل نعمل في استقلال كامل وفق حاجتنا ومقوماتنا ، على أن يظل التخطيط في اتجاه العمق لا السطح ، والتوزيع لا التجميع ، وأن تكون مناهجنا من حيث نوعية المقررات ذات وضعين ، أحدهما ثابت لا يتغير ولا يتطور إلا من حيث الوسائل المساعدة على تركيزه ، وهو ما يتعلق بعلوم القرآن والسنة وما ينبثق عنهما من علوم نفسية وخلقية وما إليها ، مما لا مناص من التزامه على الوجه المشروع لاستبقاء مشخصاتنا الذاتية ، وآخر متموج خاضع للتغيير حسب الضرورات ، وهو المتمثل في العلوم الكونية المساعدة التي لا غنى عنها لترقية الكيان المدني •

اللغات الأجنبية :

وإذا آمنا بمبدأ الاصطفاء وفق الحاجة وجب علينا أن نعيد النظر في الكثير من المواد التي استحالت أعباء معوقة عن التقدم ــ كما أوضحنا ــ وهذا يضعنا في مواجهة اللغة الأجنبية التي يتعذر فهم الحكمة من إكرامها إلى ذلك الحد الذي يتمثل في حصصها الكثيرة •

لقد علم كل ذي خبرة بموضوع اللغات أن الوسيلة المثلى لتعليمها هي

المحاكاة، وهي لا تتوافر إلا في جوها القومي، وقد ثبت ذلك بالتجربة إذ إن الطالب العربي ـ مثلاً ـ الذي فرضت عليه في مرحلتي الإعدادية والثانوية لا يكاد يبلغ منها مستوى الطفل الذي نشأ في بيئتها ، مهما يبذل من الجهد ، وينفق في سبيل إتقانها المال أجوراً للساعات الإضافية ، لذلك نراه عند ابتعاثه أو انبعاثه للغرب ، مضطراً إلى الانقطاع لدراستها في معاهد خاصة ، وأحياناً إلى الإقامة مع أسرة من أهلها أيضا ، كي يتاح له القبول للالتحاق بإحدى الجامعات ، ومعنى ذلك أننا أهدرنا ما يوازي ربع عمره الدراسي قبل ذلك ، دون مردود سوى ما ألحقناه بنفسه من التعقيد ، وما ضيقنا بوجهه من الفرص للمواد الضرورية الأخرى ، هذا علاوة على ما نغرسه في قلبه من شعور بالتبعية لأصحاب هذه اللغات .

والحق أنه لا مسوّغ البتة لهذا الاتجاه ، الذي بات من الأوباء المستوطنة في البلاد العربية بخاصة ، ذلك لأن الحاجة إلى الأجنبية مقصورة على الموجّهين إلى الدراسة الخارجية ، وليسوا كل خريجي الثانويات ، وعلى هذا ففي الإمكان إنشاء معاهد خاصة لتدريس اللغات لمن يراد له أو يريد الدراسات الغربية .

أما الحاجة إلى الثقافة الأجنبية لعامة الناس ، فيمكن تأمينها عن طريق دار للترجمة تنشأ في كل دولة إسلامية ، كما فعل المأمون في العصر العباسي ، وبهذه الطريقة نضمن ترجمة النفائس ، وتتفادى انتشار الخبائث والوساوس .

صرخة من الفلبين :

مما لا خلاف عليه أن العربية هي المدخل إلى علوم القرآن والسنة ، ولا سبيل إلى تثبيت الإسلام وثقافته إلا عن هذا الطريق ، ولذلك كانت مسؤولية العرب كبيرة نحو إخوتهم من غير العرب الذين يتطلعون إلى علمائهم للوصول إلى هذه الغاية المنشودة .

وأسمح لنفسي أن أنقل هنا بعض الأسطر المتصلة بهذا الموضوع من كلمة قدّم بها لمنهج دراسي ورد إلى الجامعة الإسلامية بالمدينة من (معهد ما راوي الإسلامي) في الفلبين .

يقول مسؤولو هـذا المعهد : (ثبت أن السبيل الوحيـد لبقاء الإسـلام وتمكينه في الفلبين وجود المدرسة العربيـة الإسلامية ، كما أن تربيـة الجيل الحديث من أبناء المسلمين تربية إسلامية ، وحماية الشباب من الانحراف ، ومن السير في ركاب المدنية الزائفة القائمة على الانحلال •• كل هـذا يتوقف على وجود هذه المدرسة •

هذا وفي السنوات الأخيرة ضعفت المدرسة العربية الإسلامية إلى درجة أن الطلبة والطالبات انصرفوا عنها ،كذلك فإن مدرسي الدين والعربية هجروا العمل في هذه المدارس لعـدم كفاية المرتبات ولصعوبة الحياة يضاف إلى ذلك عـدم استطاعة الطلاب دفع المصروفات والرسوم المدرسية •• لهذا كله أصبحت مهددة بالانقراض ••)

الشق الأول من هذه الكلمات يلخص مشكلة العربية لا في الأقطار الإسلامية غير العربية فحسب ، بل في العالم العربي نفسه أيضا • وهي حقيقة نلمسها يومياً، إذ نرى أضعف الناس صلة بالإسلام أجهلهم بلغة القرآن • وهو بلاء يزداد كل يوم كثافة •• إلا أن الجديد هنا أن هؤلاء الأخوة يردون ما يعانيه شبابهم مـن الانحراف إلى جهلهم هذه اللغة ، لأنها الوسيلة إلى الإسلام ، الذي لا مقوم لهم سواه ، وعلى هذا فضعف العربية بين مسلمي الفلبين مؤد إلى ضعف الإسـلام نفسه ، ومن ثم إلى تدهور أخلاق الجيل هناك •

ومما يوجع القلوب المؤمنة في هذا الكلام هو الفقر الذي صرف الطلاب والمدرسين عن تلك المدارس ، فبات الإسلام في الفيلبين مكشوفاً لكل رام من الأعداء أو من الحدثان ••••

والعبرة التي يجب الانتفاع بها من هذه الصرخة المفزعة هي تصور القصور الذي يتصف به المسلمون بإزاء العربية ثم فداحة الواجب الذي يقع على عاتق كل مسلم قادر على خدمتها من أهل العلم والمال ••

ولا نكران أن ثمة أمـدادا تأخذ طريقها من بـلاد العرب إلى بعض أقطار المسلمين للإسهام في تخفيف هذه النكبة ، ولكنها دون حاجة هذه الأقطار ، ولا بد من تنظيم الجهود في نطاق مؤسسة إسلامية عالمية ، تقوم بمسح دقيق لوضع كل قطر إسلامي على حدة ، ثم يأتي العون على ضوئهـا مدارس وكتباً ومدرسين ومراكز ثقافية ، ومنشآت صحية بصورة تؤمن الغاية ، وترد في الوقت نفسه عادية الغزاة ، من دعاة الصليبية والقاديانية والبهائية وما إليها من النحل والمحن ، وقـد سبق لي أن استصرخت الحكومات العربية في أكثر من مؤتمر اسلامي ، وفي أكثر من بحث علمي ، لمضاعفة الاهتمام بهذا الواجب ، وذلك بتحويله من مجرد عمل مرتجل إلى مجهود مخطط ، ترصد له نسبة مئوية معينة من موازناتها ، إلى جانب العون الشعبي الذي يجب أن ينهض به المتبرعون من المحسنين ، أسوة ببعض ما تعمله الهيئات التبشيرية ومن وراءها من الأنصار والحكومات والمؤسسات في دول الغرب • ولعل الله أن يوفق هذا المؤتمر العالمي إلى قبول هذه الفكرة ثـم السعي لإخراجها من نطاق الأحلام إلى حيز الواقع المشهود بتوفيق الله •

اليوم الدراسي :

بقي من صميم هذا البحث أمور لا نرى مندوحة عن مراعاتها لاستكمال عناصر الإصلاح المرجو لأنظمة التعليم الإسلامي ، وسأوجزها في الأسطر التالية :

إن ضغط اليوم الدراسي بقصره على منتصف النهار يشكل قضية تستحق النقاش وإعادة النظر ، ذلك أن الدافع الأول لهذا البتر ـــ فيما نعلم ـــ كان هو قلة المدارس بإزاء كثرة الطلاب ، فاقتضت الضرورة تنفيذ نظام الدوامين بتوزيع أعداد الطلاب إلى مجموعتين إحداهما للنصف الأول ، والأخرى للنصف الثاني • وطبيعي أن يكون المراد بهذا التدبير مواجهة الأزمة ريثما تتوافر الأبنية الكافية ، ولكن ألفة الواقع أحالته من تدبير عارض إلى تدبير ثابت حتى كاد يصير هـو الأصل الذي لا يقبل التعديل •

ونظرة واعية إلى عواقب هذا الوضع تكشف للمفكر الحصيف ركام المضار

التي جلبها على البيت المسلم وبالتالي على المجتمع كله ،ذلك أن الفراغ الـذي واجهه الطالب المسكين قبل دوامه الأبتر هذا أو بعده ، قد قذف به في متـاهة خطيرة تهدد تركيبه النفسي بالتشتت والضياع ، فمن العبث أن نكرهه على ملئه بالدرس وكتابة الواجبات ، ومن المستحيل أن نحجر عليه ضمن جدران المنزل .. وهكذا وجدها فرصة للعب غير المنظم يدمر به نفسه ويزعج الآخرين . وأقرب مثـال على ذلك تلك الزمر الصخابة من التلاميـذ ـ في مختلف المستويات ـ يشغلون الأزقة والساحات وحتى الشوارع بمطاردة الكرة والصياح وراءهـا ، بصورة تحرم الناس حق الراحة بعد عناء الأعمـال ، وتشوش على المصلين في المساجد ، التي لا تكاد تعرف زائراً لها من هؤلاء المضيعين إلا من رحم الله .

ولا أتحدث عما وراء ذلك من المفاسد الأخرى التي يجرهـا الفراغ على أولئك الضحايا ، فهي أخطر وأكثر من أن يوفيها حديث عابر ..

هذه المحنة ذات العقابيل المتزايدة لا سبيل إلى خلاص من شرها إلا بالعودة إلى نظام اليوم الدراسي الكامل .. يُقضى بعضه في الدرس ، ويُخصص بعضه الآخر للتطبيق وإنجاز الواجبات تحت إشراف المدرس والموجه ، ويضم بين هذه الحصص وتلك مواعيد موقوفة على اللهو البنـاء ، والأعمـال الحرة المحركة للمواهب .

قد يكون هناك أقطار للمسلمين لا تزال تعيش أزمة الأبنية المدرسية ، فلها عذرها باستبقاء ذلك التدبير الأعرج ، ولكن ثمة أقطاراً يسر الله لها ، فهي في غنية عن التزامه فلتتسابق للتخلص من قيوده الثقيلة رحمة بأجيالها ، وإنقاذاً لمجتمعاتها من أخطاره المؤكدة المجربة .

والعطلة الصيفية :

وما يقال عن النظام النصفي ينطبق على العطلة الصيفية بمقياس أوسع ، فهي متاهة أخرى كبيرة تضيع بها الأسرة وأبناؤها .. إنها فراغ رهيب يغرق في

خضمه كل ما تزود به الطالب من معلومات ومن توجيهات ، إلا أن يقدر الله له البيت الصالح الذي يجب أن يكون امتداداً لجو المدرسة الصالحة ، وما أدري كم تبلغ نسبة البيوت التي ينطبق عليها هذا الوصف في ديار المسلمين •

إن العطلة بواقعها الراهن والغالب قد أصبحت تعطيلا لمواهب الطلاب الذين منهم يتألف مجتمع الغد كله ، وكان بالوسع تحويلها حقلا خصبا لاستنبات البذور الطيبة التي تلقوها أثناء الأشهر الدراسية ، بيد أن هذا يستدعي تخطيطاً يستهدف اعتبار تلك الفترة مجال التطبيق العملي لأسلوب التربية الإسلامية الذي نكاد نفقده في هذا العصر ••

أجل نريد من العطلة الصيفية أن تحقق لنا كل ذلك •• ولكن علينا أولاً أن نتذكر حقيقة كبيرة نوشك أن ننساها تحت ضغط الأحداث ، وهي أن مناهج التعليم مهما تبلغ من العمق والتكامل ستظل معرضة للإخفاق ، إذا لم يقم عليها المدرس المؤمن الذي يوقن أنه راع ، وأنه مسؤول عن رعيته أمام الله أولاً ، ثم أمام المجتمع الإسلامي الذي ائتمنه على أنفس ما يملكه ثانياً •

تجربة رائدة :

من سنن الخير في هذه الأمة المميزة بالخيرية أن أئمة التعليم فيها كانوا أئمة الأخلاق والتقوى ، فكما يأخذ الطالب عنهم المعرفة يقبس الفضائل ، فيجمع بذلك بين خيري الدنيا والآخرة جميعا •

وإنه ليخيل إلي — من خلال تتبعي لأعمال ندوة العلماء في الهند — أن هذه المؤسسة الناجحة تحتفظ بالكثير من خصائص الطريقة الإسلامية المثلى في تنشئة الطلاب ، فهي ليست مدرسة وبرامج وعلماء فحسب ، بل هي إلى ذلك مصنع لتربية الضمير والخلق والأدب ، وكل الفضائل النفسية التي يدعو إليها الإسلام ، وتحقق بها السلف الصالح •• ولقد أتيح لي أن ألمس هذه الآثار من خلال طلابها

الموفدين إلى الجامعة الإسلامية بالمدينة ، أولئك الفتية الذين أعتبرهم في مقدمة طلاب العالم الإســلامي التزاماً لأدب الإســلام ، ورغبــة في العلم ، وتقديراً لمدرسيهم ، وتقديساً للغة القرآن ، التي لا يكاد يفوقهم في سلامة النطق بها عربي من نوابغ الطلاب .

إنها لتجربة رائدة نهضت بها تلك الندوة ، فقدمت للعالم الإسلامي أنموذجا للتربية والتعليم يستحق الدراسة ، ويمكنه أن يقيم لدعاة الإصلاح معالم على الطريق ذات دلالات لا تنكر .

لقد حفلت مناهج الندوة بكل جديد مفيد من المواد العصرية ، إلى جانب المقررات الإسلامية الضابطة ، مع مراعاة الاحتمالات النفسية لطالب العلم .. إلا أن عامل التفوق في عمل الندوة هو دستورها التربوي الــذي جمع بين التعليم والتطبيق على أفضل الوجوه . وإن في خريجيها ، الذين تسنموا أرفع المنازل بين أساطين العلم في العالم الإسلامي كله ، لأبرز الأدلة على أننا منها تلقاء واحد من أنجح المشروعات التعليمية في هذا العصر .

ولعل في هــذا الواقع المشهود ما يقنع المعنيين بقضايا التعليم الإســلامي بإمكانية الاستفادة من هذه التجربة الرائدة الناجحة ، بعد دراسة أوضاعها على الطبيعة .

وأخيرا :

لنتذكر أن كل خدمة تؤديها للتعليم الإسلامي هي خدمــة للإسلام ، وفي الوقت نفسه خدمة للإنسانية كلها على اختلاف مواطنها وألسنتها .

لقد سئمت القافلة الضائعة قيادة المغرورين الذين وطئوا سطح القمــر ، وأطلوا على عالم المرّيخ ، وعجزوا مع ذلك عن اكتشاف أنفسهم .. فهي تتساءل : أليس ثمة من نهاية لهذا التيه ؟.. أليس هناك من هادٍ يتجاوز بها نطاق الظلمات

إلى عالم النور ، فينقذها من قبضة أولئك الضائعين الذين (يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا ، وهم عن الآخرة هم غافلون) .

ولعمر الله لن يكون للقافلة من أمل للإنقاذ إن لم يكن المسلمون هم الأدلاء المنقذين ..

(وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون (٩)/١٠٥) .

النّصرانيّة في ضوء العلم والكشوف الأثرية



الحمد لله ، ونصلي ونسلم على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ، ونستفتح بالذي هو خير .

أما بعد ، فإن الذي حفزني على اختيار هذا الموضوع لمحاضرتي هذه الليلة أمور .. منها أني امرؤ مولع بهذا الضرب من البحوث التي تتعلق بشؤون المذاهب والفرق ، وقد شاء الله أن يكون أول كتيب أخرجته للناس رداً على أحد دعاة النصرانية ، بعنوان (فضائح المبشرين) وقد مضى على ذلك ما يقارب نصف قرنٍ . ثم كان آخر ما كتبت في هذا الصدد فصلين من كتابي (مشكلات الجيل ...) و (أفكار إسلامية) .. وهذا يعني أنني لا أزال أتتبع آثار هذه النحل ، وأشارك في المعارك ، التي شاء الله أن تستمر أبداً بينها وبين الإسلام .

ثم شيء آخر .. هو ما أراه من تحرك النصرانية في أطراف الجزيرة العربية عن طريق بعض مناطق الخليج .. حيث تقام الديورة والبيع والمؤسسات التبشيرية تحت ستار العلم ، ولا غاية لها سوى إفساد عقائد الجيل الناشىء من أبناء المسلمين ، ثم النفاذ إلى قلب الجزيرة ، الأرض التي أكد رسول الله ﷺ أن لا يجتمع فيها دينان ، ونفذ الفاروق رضوان الله عليه وصاته بإخراج أهل الكتاب من كل أرجائها .. فجاء اليوم بعض المضلّلين يفتحون لهم أبواب الجزيرة ، متجاهلين أمر رسول الله والخليفة الملهم .. ظناً منهم ، وساء مايظنون ، أن القوم هم القدوة ، التي ينبغي أن تحتذى ، لأنهم يمثلون الحضارة والمدنية ، ويمثلون هم التخلف ، فلا مندوحة ، والحالة هذه ، من أن يُحَلّوا أبناءهم بتقاليدهم ، ولا بد من أن يسلموا أفلاذ أكبادهم لتوجيهاتهم .

ولقد ضاعف حرصي على هذا الاختيار عثوري على منشور تبشيري استطاع التغلغل إلى مدينة رسول الله ﷺ ، فكأن مرسليه يتخيرون بعض الأسماء من جداول الهاتف أو الإعلانات التجارية ، فيوجهون بمناشيرهم ـــ جمع منشار ـــ إليها عن طريق البريد .. سواء قبل المرسل إليهم أم لم يقبلوا ، قرؤوا أم لم يقرؤوا . ولا بد أنهم يأملون بأن ينظروا في أوراقهم هذه مستغربين ، فيدفعهم

ذلك للاطلاع عليها . وفي ظنهم أن عندهم من الطرائف مايستهوي الخواطر ، فاذا ما قرأها مسلم مرة ، عاد فقرأ ما بعدها وما بعدها .. ولا يهمهم أن يتقبل القــراء دعوتهم ، بل ربما لا يطمعون بذلك ، ولكنهم يرضون مارضيه الشيطان لأهل هذه الأرض المباركة ، مما هو دون الكفر الصراح ، بما يدسون في قلوبهم مــن بذور التشكيك . وقد بات هذا واضحاً بعد الذي نشره الدكتوران عمر فروخ ومصطفى الخالدي في كتاب (التبشير والاستعمار في بلاد العرب) حيث نقــلا خطبة كبير المبشرين زويمر ، التي ألقاهــا في المؤتمر الــذي عقدوه في الأرض المقدسة ، عقب الحرب العالمية الأولى ، فكان منها قوله لزملائه (إنكم مخطئون عندما تظنون أن مهمتكم هي إدخال المسلمين في النصرانية . كلا .. إن مهمتكم الحقيقية هي إخراج المسلمين من معرفة الله . ويتحقق لكم ذلك بإفساد دينهم عن طريق التشكيك ..)

والغريب أن خطة زويمر قد بدأت تؤتي أكلها في تدمير حصوننا الداخلية ، بما يزرعونه من الأخطار الهدامة في قلوب بعض أبنائنا ، الذين تخرجوا على أيديهم في جامعات الغرب ، فعادوا يعلنون تنكرهم للإسلام ، بل يرفعون عقــائرهم في الطعن على كل مقدسات الإسلام .. ولا عجب في ذلك ، لأن النفس التي لا تكون مزودة بحقائق الإيمان ، لا بد أن تصير منهبة لجنود الشيطان .. وعلينا أن نعترف بمسؤوليتنا عن هذه النتائج لأننا لم نعر أبناءنا العناية الكافية ، ولم نزودهم بما يصونهم من سحر الدعايات الباطلة ، التي تدمر معاقلنا عن طريق الكتاب والإذاعة والتلفاز والصحف ، ثم مناهج التعليم التي فرضت على العالم الإسلامي ، وخطط الكثير منها مبشرون بالنصرانية .

أجل أيها الأخوة .. من أجل ذلك كله آثرت لمحاضرتي هذا الموضوع . يضاف إلى هذه البواعث سبب لا يقل عنها أهمية هو أننا ندوة تقدمها الجامعــة الإسلامية . وهي الجامعة التي تضم قرابة التسعين جنسية من مختلف أقطــار العالم ، ولا سيما العالم الإسلامي ، الذي هو محط أنظار الهدامين على اختلاف

هوياتهم ، وبخاصة دعاة النصرانية منهم ، وطبيعي أن خريجيها حين يعودون إلى بلادهم سيواجهون هؤلاء الغزاة ، فجدير بهم أن يتعرفوا أصول هذه النصرانية ، ليعلموا كيف يدفعون دسائسهم •• لأن أهم عوامل النجاح في كل عمل أن يدرس المعني به واقعه وظروفه ، وإلا فوجىء بما لا يتوقع ، وانتهى كفاحه إلى الإخفاق الذريع •

العالم في عهد المسيح :

عندما أهبط الله الانسان إلى هـذه البسيطة لم يدعـه هملاً ، بل زوده بالمخطط الذي يتعرف به طريقه ، ليسلكه على نور من ربه • ومن هنـا كان النبيون ، صلوات الله عليهم وسلامه ، هم قادة الانسانية • وكل قائد بعدهم ، إذا لم يترسم خطاهم ، ستنزل به القدم ، وسيسوق أمته إلى مهاوي الشقاء ، ذلك لأن النفس البشرية غير أمينة على مصلحتها ، إذا لم تكن مزودة بالكفاية من نور الوحي •• وهكذا قضى الله برحمته أن يرسل أنبياءه متلاحقين ، كلما خبا نور نبي ، أشرق بعده نور نبي • وقد استمر ذلك منذ نوح عليه السلام ، أي منـذ العهد الذي بدأ الانسان انحرافه عن سبيل التوحيد ، حتى عهد نبي الله عيسى عليـه السلام •

ومعلوم أن في طبيعة النفس البشرية طاقات جبارة عاملة فوارة ، نحسها في كياننا الباطني صراعاً متدافعاً لا يكاد يعرف الاستقرار • العقل يدعونا إلى شيء ، والشهوات تسوقنا إلى آخر • والعواطف تتنازعنا في اتجاه مغاير ، وعلى الانسان أن يكافح لتنظيم هذه الطاقات ليوفق بينها فلا يضل ولا يشقى •• وبالدين الحق يحقق هذا التوازن بين قواه المتصارعة • وقد اصطفى الله للانسان الإسـلام ، فبعث به رسله مبشرين ومنذرين • ولكن هذا الدين الرباني واجه وسيظل يواجه الانتفاضات الكثيرة من البدع والضلالات ومحاولات الشيطان ، الذي لا يسعه الصبر على هذه الحقائق خالصة مبرأة من التغيير ، لذلك كان لا بد في كل مرة تضطرب فيها مسيرة الانسانية ، فتنحرف عن المنهج المستقيم ، أن يتداركها الله

بمصلح يصحح وضعها • ففي زمن النبيين يكون المصحح هو النبي ، ثم يتولى الأمانة من بعده أصحابه ، ثم التابعون لهم بإحسان ، وأولئك هم الطائفة الظاهرة إلى يوم القيامة •• نسأل الله أن يجعلنا منها جميعاً •

وعلى هذا المنوال تتابعت الرسالات الإلهية حتى عيسى عليه السلام • وهنا لا بد لنا من نظرة جامعة إلى الجو الذي بُعث فيه هذا الرسول الكريم •

لم يأتِ عيسى عليه السلام بتشريعٍ مستقل ، بل كان مجدداً لشريعة موسى عليه السلام وفي الإنجيل الذي بين أيديهم حتى الآن نقرأ مثل هذا القول منسوباً إليه : (الحق أقول •• ماجئت لأنقض الناموس — أي توراة موسى — بل لأتممه) وتتميم الناموس تصحيح فهمه ، وإحياء ما اندثر من أحكامه •• وكانت بعثته عليه السلام في فلسطين أيام الحكم الروماني • والدولة الرومانية دولة وثنية عريقة في وثنيتها وقد بلغت الوثنية في ظلها ذروتها من النضج الفلسفي ، فلم تعد طقوساً سطحية ، كشأنها في جاهلية العرب ، بل كان لها روافد بعيدة الأغوار من الأخيلة والفلسفة والأساطير ، التي أفسدت الفطرة ، فتركتها مفتوحة أمام الغزاة من مختلف الأقطار • وإلى هذا كله كانت هذه الدولة الرومانية بمثابة الحامية للوثنية في الغرب والعديد من أقطار الشرق •• إلى كونها وريثة المجتمع اليوناني ، الذي كان بدوره قائماً على الوثنية الغنية بالفلسفة والأقاصيص الغريبة عن آلهتهم ، أولئك الآلهة الذين تتمثل في سلوكهم كل النزعات الخسيسة من الفجور والدعارة والسطو على الأعراض •• ثم هناك الوثنية العربية في الجزيرة ، والوثنية الشرقية في فارس والهند وأنحاء العالم الأخرى •• وفي هذه الفجاج كانت بقايا اليهودية ، التي خضعت للسلطان الروماني بعد عودتها من سبي بابل ، فباتت قلة لا وزن لها في سياسة البلاد • ولكن الحكم الروماني كان يراعي جانبها إلى حد ، ويراقب تحركاتها ، خشية الفتن التي اعتادتها •• وكذلك كان لليهود مصلحة في استرضاء الحكام ، فكثر النفاق في أوساط الأحبار ، الذين يسمون بالكتبة والفريسيين •

ذلك هو شأن الديانات والسلطة السياسية • أما الجانب الفكري فقد تقدم في كثير من الجوانب ولكنه ظل مصبوغاً بالطلاء الوثني ، إذ بقي تصور الانسان مقيّداً بالبؤرة القائمة على تعدد الآلهة ، فهو مشتت النفس بينها ، لا يعرف من يرضي ومن يغضب • وقد عَمَّقَ هذا التمزق في نفسه ما استقر في قلبه من سلوك هذه الآلهة الملوث بكل ألوان الفساد •• وذلك شأن غير الموحد أبداً ، وقد حدثنا الله تبارك وتعالى عن ذلك بقوله الحكيم : (ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ، ورجلاً سلماً لرجل • هل يستويان مثلاً ؟!!) وهيهات أن يستويا • لأن المشرك مشتت القوى بين معبوداته المتشاكسة ، على حين أن الموحد مطمئن القلب مستجمع القوى ، لأنه موقن أنه يتعامل مع ربٍ كريم رؤوف رحيم عليم ، لا يظلم مثقال ذرة ، ولا يكلف نفساً فوق طاقتها •

هكذا كانت الأوضاع في عهد المسيح عليه السلام ، وكان عليه أن يصطدم بكل هذه العقبات •

أما السلطة السياسية فلم يواجهها مباشرة ، لأنه معنيّ بالشعب الذي بعث لإصلاحه • كما ورد في الإنجيل الذي بين أيدينا على لسانه (إنما أرسلت إلى خراف إسرائيل الضالة) وهذا أمر طبيعي جداً ، لأن أكبر مهام النبي تصحيح العقائد ، ورد القطيع الشارد إلى طريق الله •• ومتى صحت العقيدة ، وانتظم السلوك ، صلحت أعمال النفس ، واستحال عليها بعد ذلك أن تقبل الذل أو الظلم أو الطغيان • وستسعى حتماً لإصلاح الأوضاع أياً كان شأنها • وهكذا كانت كبرى العقبات في طريق المسيح عليه السلام هي زيغ أولئك الأحبار المنافقين • ونحن عندما نقرأ الأناجيل ، وكتاب (أعمال الرسل) وغيره من أسفار العهد الجديد ، نلاحظ شدة المسيح على هؤلاء حتى ليصفهم بأبناء الأفاعي •• ولا غرابة في ذلك فالتوراة نفسها تصف أسلافهم بصلابة الرؤوس وغلظ الرقاب •• لأنهم قوم جفت مشاعرهم ، وقست قلوبهم لألفتهم البعد عن الحق •

وكثيراً ما يأتي هؤلاء الكتبة والفريسيون بسلعهم إلى داخل المعبد ، يتخذون

منه سوقاً للمبايعة والمراباة ، فيأتي المسيح إلى مناضدهم فيركلها بقدمه •• ومن هنا كان رد الفعل شديداً بوجهه ، لأنه أصبح خطراً على مصالحهم الاقتصادية ، بعد أن أخفقت معهم أساليب الحكمة ، فلم تزدهم إلا تصميماً على الضلال •

فالأحبار إذن ناقمون من عيسى عليه السلام ، وقد دفعتهم هذه النقمة إلى التوسل بالسلطة الرومانية ، يحرضونها عليه زاعمين أنه يحاول إحداث ثورة ضدها وأيدوا زعمهم بتجمع الأتباع حوله ، واقتحامهم الهيكل بكثرة وقوة وراءه • وقد سبق للرومان أن عانوا من دسائس اليهود وثوراتهم وغدراتهم ، فما المانع أن يقوم هذا الرجل بثورة جديدة يهدد بها مركزهم في الشرق الأوسط وبذلك اقتنع بيلاطس الوالي الروماني بضرورة الحد من هذه الحركة حفاظاً على السلطة التي هو مسؤول عنها أمام القيصر •• وهكذا تعاون الحكام والأحبار على عيسى عليه السلام والمؤمنين به ، وشرع المسؤولون بمطاردتهم حتى انتهى الأمر إلى ما أخبرنا به الله في كتابه الحكيم من رفعه عبده المسيح إليه •

هذا الجو المثقل بالإرهاب •• إلى أي حدّ ترك أثره في دعوة المسيح !••

لقد بلّغ هذا النبي الكريم رسالة ربه ، وجمع عليها أطيب الناس قلوباً ، وحملها هؤلاء بدورهم إلى غيرهم •• ولكن خوفَ الناس جورَ الظّلمة قد حال بينهم وبين دعاتها إلى حدٍ بعيد لأن الاتصال بهم يكلفهم البلاء الكثير • وليس هذا بغريب على أذهاننا نحن الذين عاصرنا غير قليل من مثل هذا الإرهاب، ولقد حدثني طبيب صالح ممن يعملون في هذا البلد أن الرعب قد بلغ بالمؤمنين في وطنه ــ الاشتراكي ــ إلى أن صار الرجل يخشى أن يضع في جيبه مصحفاً لئلا يتهم بأنه من الإخوان المسلمين ، بل إن الرجل ليضطر أحياناً إلى حمل قارورة الخمر جهرة ، ليدفع عن نفسه تلك النسبة إليهم ، وهو من صميمهم !• ففي ضوء هذا الواقع المعاصر نستطيع أن نتصور مدى ذلك الطغيان • الذي تعاونت فيه القسوة الرومانية والحقد اليهودي ، على أهل الإيمان ، فأكره دعاة المسيحية على المبالغة في التخفي حفاظاً على أنفسهم وإخوانهم ، حتى باتوا

على ريبة من كل شيء •• ومن هنا تسلل الغموض إلى صميم الدعوة ، وفي ظل هذا الغموض تسلل الدساسون ، ذوو الدعايات الباطلة ، وأصحاب التصورات الفلسفية والأساطير الوثنية •• إلى صفوف المؤمنين ، وكل منهم يروّج لأفكاره ، فاختلط الحابل بالنابل والحق بالباطل ، وبذلك انفصل جمهور المؤمنين بالمسيحية عن منابع الدعوة الأصلية ، وأصبح العارفون لحقيقتها قليلين ، وهؤلاء القليلون خائفون ومتباعدون ••

وهنا تبرز المشكلة الجديدة في تحديد مدلول هذه النصرانية المشوّشة ••

بولسية لا مسيحية :

هذه الديانة التي يطلق عليها الناس اسم النصرانية ليست هي ملة المسيح•• حتى العارفون من دعاتها يضحكون منا عندما نظنها كذلك •• لأنهم يعترفون بأنها أحق بالنسبة إلى بولس منها بالنسبة إلى المسيح • وأكثر من مرة سمعت هذا التصريح من بعض قسسهم ، ومن هؤلاء زميل مترهب ، كنت أحادثه وأناقشه بدلالات الإنجيل ، فيجيبني بقوله : أنتم المسلمين مخطئون عندما تجادلوننا بالإنجيل • إن ديننا ليس من الإنجيل ولكنه مقررات آباء الكنيسة ، والكنيسة هي المؤسسة المدينة في وجودها إلى بولس •

فمن هو بولس هذا ؟!

لم يكن هذا اسمه من قبل ، بل كان اسمه شاول ، وإنما سمي بولس بعد ادعائه الإيمان بالمسيح ، وكأنه يريد بذلك إيهام الناس أنه قد انسلخ من ماضيه الشرير بانسلاخه من اسمه القديم •

بقي أن نتساءل : أروماني هو •• أم يهودي ؟•• الحق أن أحداً لا يستطيع البت بحقيقة هُويته • ولكنا نرجح يهوديته من خلال صفاته النفسية التي تحمل الطابع اليهودي الأصيل المتميز بالبهتان ، وأول من وضع لها هذا التعريف الحبر

المهتدي عبد الله بن سلام ، أحد المبشرين بالجنة ، عندما قال : (يارسول الله إن اليهود قوم بهت ..) فشاول إذن يهودي الطبـاع ، ولكنه يضللنـا ويضلل المؤرخين ، إذ إنه يقع في يد السلطة فيزعم أنه روماني قح ، فاذا ما خلا إلى اليهود زعم أنه من نسل بنيامين !.. والذي يهمنا سِمَتُه النفسية التي تميز اليهودي في كل زمان ومكان .. ثم وظيفته العملية التي تحدد علاقته بالمسيحية من قبـل ومن بعـد .

هذا الرجل ، وإن لم تنص الكتب على نوع عمله ، يمكن لكل قارىء للعهد الجديد ، وبخاصة كتاب (أعمال الرسل) ورسالة بولس إلى أهل غلاطية ، يمكنه أن يقطع أنه كان ذا صلة وثيقة بجهاز المخابرات الروماني ، بل ينبغي أن يكون ذا نفوذ واسع في ذلك الجهاز . ومعلوم أن صاحب المخابرات في ظل الطغيان يملك سلطة القتل والجلد والتعذيب ، وحتى إذابة الأجسام البشرية بالأحماض الكيماوية مثلاً .. يضاف إلى ذلك أن الرجل كان مشحون الأضلاع بالحقد المركّب على المسيحية .. فلم يكن ليكتفي بمطاردتهـا والتضييق عليها ، بل كان يعاملهـا بوحشية اليهودي المتعطش إلى الدم ، فيبالغ في التنكيل والعسف .. وهو نفسه يعترف بذلك ! إذ يقول في رسالته لأهل غلاطية (إنني كنت أضطهد كنيسة الله بإفراط وأتلفها ..)

والظاهر أن هذا الرجل قد اقتنع أخيراً بأن الشـدة لا تقتلع الإيمان ، بل لا تزيده إلا رسوخاً وقوة ، فكان عليه أن يطور وسائله في مطاردة المؤمنين ، كما صنع نسيبه عبد الله بن سبأ فيما بعد ، إذ أيقن بعجزه عن مواجهة الإسلام بصريح العِداء ، فراح يزعم للأغبياء من الأعراب وأشباههم أن لكل نبي وصياً .. ومن هنا تفجرت السدود أمام سيول البدع القرمطية والرافضية وكل نحـل التشيع الغالية ، التي بلغ بها الزيغ إلى تأليه البشر ، وتكفير الصحابة الـذين أعلن الله رضوانه عنهم في كتابه الخالد .

وهكذا لجأ شاول إلى التآمر اليهودي المألوف .. ذلك أن تقارير عملائه

في دمشق قد أكدت له أن مركز الدعوة المسيحية يزداد قوة هناك ، فلم يجد بدأ من التحرك للقضاء عليه . وفي الطريق إلى دمشق عمد إلى خطة عجيبة لم يلبث أن بدأ بها مرحلته الجديدة في مطاردة المسيحية . ذلك أنه وهو على مقربة من دمشق ، زعم أن نوراً أبرق له بغتة من السماء فسقط على الأرض ، وسمع صوت السيد المسيح يقرعه على مسلكه .. وللحال أعلن توبته ، وسأل المسيح عما يجب عليه أن يفعل فأخبره أنه سيتلقى التوجيه اللازم بعد دخوله دمشق .. ولإتمام التمثيلية أعلن لمن معه أن عينيه فقدتا قوة الإبصار ، فاقتادوه إلى دمشق حيث قضى ثلاثة أيام ممسكاً عن الطعام والشراب ، ومتظاهراً بالعمى .. حتى جاءه المدعو (حنانيا) مأموراً من قبل المسيح ، فما كاد يضع عليه يده حتى استعاد بصره وأقبل على الطعام[1] وتحمل شاول مصاعب كبيرة حتى أقنع الذين كان يطاردهم بالأمس أنه أصبح واحداً منهم .. وقد ساعده على إقناعهم ما قص عليهم من أمر العمى والإبصار ، الذي اعتبروه أخيراً كرامة له تضعه في مصاف كبار القديسين .. ولا سيما أن القوم لم يكونوا على سوية عالية من الثقافة والعلم ، لأن معظمهم من الطبقة العاملة التي تمتاز بالطيبة والبساطة .

والمتتبع لهذه التمثيلية لا يستغرب أبداً أن يكون حنانيا نفسه أحد عملاء شاول ، من الذين اندسوا في خلايا المسيحيين لرصد حركاتهم وإخباره بها .. والمهم أن شاول ــ الذي سمي بولس فيما بعد ــ استطاع أن يستولي على ثقة كبار العاملين للدعوة ، وأن يستجرهم إلى عقد مؤتمر في القدس ، حيث أقنعهم أن هذه الدعوة لم تعد خاصة ببني إسرائيل ، بل ينبغي أن تفتح أبوابها لسائر الأمم . ثم لم يلبث أن شرع في خطته الثانية ، وهي إقناع هؤلاء بالتساهل مع مدعويهم من الوثنيين ، للإبقاء على الكثير من تقاليدهم الموروثة ، فلا يلزموهم بالختان ، ولا يكلفوهم ترك أعيادهم الوثنية .. ثم أعلن إباحته لكل محرم في شريعة موسى ، ولم يُبق منها إلا على أربع فقط هي : الدم والمخنوق والزنا

(١) انظر أعمال الرسل الاصحاح ٨و٩ .

وماذُبح للصنم •• أما ماعدا هؤلاء فلا قيد ولا حساب ، ولكلٍّ أن يعمل مايشاء، ذلك لأن بولس يقيم دينه على أساس الإيمان وحده ، فمجرد قبول المسيح فادياً ومخلصاً كاف ، لأن المغفرة بيد الكاهن ، فإذا ما اعترف المجرم للكاهن لم يضره ذنب ، لأن ماغفر في الأرض مغفور في السماء •• وبهـذا استولى الرجل على قلوب أولئك الطيبين ، وترك أثره عميقاً في رجال الدين • ومن هنا جاءت القاعدة المعروفة عند النصارى وهي أن ليس مايدخل الفم ينجس ، ولكن مايخرج من الفم هو الذي ينجس • وهذا صحيح إلى حد ، فالكلمة السيئة خبث لا يرضى عنه الله ، ولكن •• هل يظل الجسد طاهراً مهما تراكم عليه الخبث ؟!•• إن الله طهر نفوس المؤمنين ، كما طهر أجسامهم وثيابهم وأمكنتهم ، ليكونوا نماذج جميلة للنظافة والنقاء في السيرة وفي السريرة ، في المظهر وفي المخبر •• ولعل قليلين يعلمون أن هذه القاعدة قد أراحت النصراني من تحري الطهارة كلياً ، إذ أصبح كل شيء بنظره في حكم الطهور !•

رأيت ذات مرة رجلا من النصارى يحمل ولداً له وفي يده قطعة من البسكويت ، فبال الولد على ثوب أبيه ، وسال البول إلى الأرض ، وسقطت القطعة فوق البول ، فإذا هو يأخذها فيمسحها بسراويله ويدفع بها إلى فم ولده •• ومرة أخرى رأيت امرأة تقوم على أحد المطاعم مكان زوجها ، وقد قذر عليها ولدها ، وجاءها طاعم يريد شواء ، فقامت إلى اللحم وأصلحت له مايريد منه دون أن تغسل يدها •• وحدثتني امرأة مسلمة أنها كانت في أحد المشافي ، فرأت زميلة لها نصرانية تغسل شيئاً قذراً في وعاء للمسلمة ، فأنكرت عليها وعاتبتها لأنها نجست لها الوعاء •• فأجابتها هذه ، أما نحن فلا نجاسة عندنا •• وجاء القسيس فسألته المسلمة في ذلك ، فنفى نجاسته قائلاً : أولسنا نحمله في أجوافنا ، فكذلك هو إذا خرج منا !

وطبيعي أن الفضل في معظم هذه التسهيلات إنما يعود إلى بولس ، الذي لا يريد أن يثقل على أتباعه بالكثير من التحريم والتحليل •

ونشط بولس في الأقطار .. وكما شَغَلَ نسيبُه ابن سبأٍ أرجاء الدولة الإسلامية فيما بعد ، هكذا صنع بولس إذ راح يسوح في بلاد العرب واليهود والرومان ، وقد صحب في بعض رحلاته بطرس وبرنابا من الحواريين .. ولكن ما إن وصلا معه إلى أطراف الروم حتى دبّ الخلاف بينهم . وجعل يصف بطرس بالرياء والجهل ، ويوجه إليه الحملات الشعواء ، ويثبت ذلك في رسائله .. وبطرس هذا هو بطرس الصفا الذي فوض إليه المسيح رعاية كنيسته ـ بزعمهم ـ ولا ذنب له إلا أنه أنكر عليه بعض تصرفاته .. وكذلك كان موقف برنابا منه ، إذ أخذ عليه شذوذه عن المسيحية الحقة ، فأنبه ونصح له .. فرفضه بولس كما رفض بطرس ، وبذكائه العجيب وبطلاقة لسانه وبلاغته استطاع أن يستولي على قلوب العامة ، وترك هذين مهجورين لا يكاد يبالي بهما أحد . ثم شرع يتزلف إلى الطغاة من الحكام ، فنشر مذهب الجبرية في عقول أتباعه بمثل قوله : (لتخضع كل نفس للسلاطين .. لأنه ليس سلطان إلا من الله) . وهو مبدأ خطير ، لأن الناس عندما يؤمنون به سيتركون واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فيمدون الحكام بكل أسباب الطغيان . وجل القائل في كتابه الخالد : (كلا .. إن الإنسانَ ليَطغى ، أنْ رآه استغنى) .

إنجيل برنابا :

وهكذا تكوّنت البولسية ، وانحجبت ديانة المسيح ، إلا بروقاً متقطعة تظهر حيناً وتختفي أحياناً ، وكان لا مندوحة من الانقسام في صفوف الأتباع ، فبعضهم خضع لفلسفة بولس ، فأخذ نفسه بكل آرائه ، وبعضهم رفض نحلته ، وأقام النكير على مبدأ التثليث الذي حمله من مدرسة أفلوطين الاسكندرية ليغير به هيكل المسيحية كله .

وأول من تعرض لمناكير بولس عملياً هو الحواري برنابا ، الذي لم يكتف بتقريعه ، فأبرأ ذمته بكتابة مذكراتٍ عنه اشتهرت باسم (إنجيل برنابا) .

وكلمة (إنجيل) تعني بالعربية (البشارة) فهي ليست خاصة بالكتاب الذي

أنزله الله على عبده عيسى عليه السلام بل يمكن إطلاقها على أي كتاب يتضمن معنى التبشير • ولعل الإنجيل الموحى به قد سمي كذلك لما يتضمنه من البشارة بخاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين •

ولكتاب برنابا هذا غرضان صريحان ، أحدهما إيضاح الحقيقة المسيحية كما فهمها برنابا من السيد المسيح ، والغرض الثاني فضيحة بولس • إذ بدأ الكتاب بالتشهير به ، وختمه بمثل ذلك •

ولهذا الكتاب قصة طريفة ذلك أنه كان متداولاً بين الخاصة من النصارى حتى أواسط القرن الخامس الميلادي ، أي قبل مبعث محمد ﷺ بما يضاهي القرنين ، ومع ذلك لا يستنكف بعض مفكري النصارى ، حتى مترجمه إلى العربية ، أن يقولوا بأنه من قلم أحد المسلمين !•• وقد قرأت قبل سنتين في جريدة الحياة البيروتية تحقيقاً بقلم الدكتور صلاح الدين المنجد ، بمناسبة ذكرى ميلاد المسيح ، تناول به إنجيل برنابا وأرخ له ، وذكر موقف آباء الكنيسة منه وتحريمهم قراءته واقتناءه • قبل مبعث خاتم النبيين بأحقاب طويلة • والذين يلصقون إنجيل برنابا بالمسلمين لا يريدون سوى الطعن عليه وتشويه شهادته •• وإنما يهمنا أن تحريم الكنيسة لهذا الكتاب قد نفاه من الأيدي ، وكاد يذهب بأثره • لولا أن الله سبحانه قضى لحكمة يعلمها أن تظل نسخة منه محفوظة إلى أيامنا في مكتبة فيينا عاصمة النمسة ، وهي التي عثر بها سائح سوري اسمه الدكتور خليل سعادة ، إذ كان في زيارة لهذه المكتبة ، فما لبث أن ترجمها إلى العربية ، ثم قام المغفور له السيد رشيد رضا بإعادة طبعها •• وقد حدثت عدة محاولات لسحب نسخها كي لا تصل إلى أيدي القراء ، بيد أن ذلك لم يحل دون انتشارها ، لأن حجب أي كتاب في عصر المطبعة أمر يتعذر تحقيقه على أبرع المحاولات •

ويحسن هنا ألا تفوتنا الإشارة إلى أننا لا نعلم ذكراً لكتاب برنابا هذا في أي مرجع إسلامي سبق ترجمته •• وإذا صح ذلك كان أكبر رد على المتنكرين له•

البولسية والأفلاطونية الحديثة :

وقد آن لنا أن نراجع بشيء من التدقيق مضمون الدعوة البوليسية وعلاقتها بالفلسفة الاسكندرية ، التي وضع أسسها أفلوطين الاسكندري ، وجمع فيها أخلاطاً من فلسفات الشرق والغرب ، ثم عرفت باسم الأفلاطونية الحديثة .

يقول صاحب (المنجد) في تعريف صاحب هذه المدرسة إنه حاول التوفيق بين الفلسفة اليونانية والمعتقدات الشرقية .

وقد عرف عن أفلوطين هذا أنه أحد كبار الجوالين العالميين ، ضرب في أكناف الأقاليم المعروفة في عهده ، ثم عاد إلى الاسكندرية يحمل علوماً متضاربة ، قضى معظم ماتبقى من حياته في محاولة التنسيق بينها .. وكان الأساس الذي بنى محاولته عليه هو فلسفة أفلاطون، تلميذ سقراط وأستاذ أرسطو ـ اليونانيين ـ ومن هنا سمي مذهبه بالأفلاطونية الحديثة .

أما خلاصة هذا المذهب فأجملها بما يلي :ـ

١ ـ أنه تعالى واجب الوجود ـ بمعنى أن العقل لا يتصور الوجود خالياً من الله سبحانه ، ويرمزون إليه بمنشيء الكل .

٢ ـ أول شيء صدر من أعماله تعالى هو العقل المنتج ، وهو الذي يسميه اليونانيون بالعقل الفعال .

٣ ـ وعن العقل المنتج هذا صدر الروح الأعلى الذي منه صدرت الأرواح جميعاً .

٤ ـ عن هذا الثالوث (منشيء الكل ، والعقل المنتج ، والروح الأعلى) يصدر كل شيء .

وقد عمد صاحب هذه النظرية إلى تقريرها على هذا الوجه لأنه لم يستطع أن يتصور إمكان صدور المخلوقات كلها عن إرادة الله ، لأن الله كامل ، فلا يصدر عن الكامل إلا مايناسب كماله ، وفي المخلوقات مالايتناسب والكمال ، فلا بد

إذن من القول بالوسائط التي من شأنها تحقيق الخلق على أساس التسلسل ، بحيث يخلق كل واحد من هذه الوسائط ما يناسبه !• وهي زعمات بدائية لا سند لها من وحي ولا علم •• ولكنها افتراضات سوفسطائية يرد بها صاحبها على استفسارات في نفسه لا يجد قدرة على فهمها والاجابة عليها •

هذه النظرية البدائية هي التي تسربت إلى المسيحية فحولتها من دين أوحى به الله ، إلى ظنّيات لا يحاول القائلون بها فهمها ، فيكتفون بترديدها على سبيل التسليم المطلق •• وكان لبولس أثره الكبير في هذا التحويل ، لأنه تلميذ هذه الفلسفة ـــ كما يؤكد ذلك ويلز ـــ ومن هنا جاء قول النصارى بالأب والابن والروح القدس ، فواجب الوجود عند أفلوطين قد صار هو الأب عند النصارى ، وأما العقل المنتج فقد حل مكانه الابن ، واستحال الروح الأعلى إلى روح القدس •• وهكذا حلت عقيدة التثليث مكان عقيدة التوحيد •• وبذلك عُبّد الطريق لقبول كل تحويل يقول به ورثاء بولس من رجال الكنيسة •• ومن هنا جاء إجماع مفكري النصرانية على الإقرار بأن المسيحية المعروفة اليوم إنما هي من مخترعات بولس ، ولا علاقة لها بالمسيح إلا من جهة الاسم •

والأثر الأفلاطوني لم يقتصر على عمل بولس وحده ، بل ظهر ذلك أيضاً في أحد الأناجيل الأربعة ، التي يسمونها القانونية •• ذلك أن إنجيل يوحنا وحده الذي يركز على فكرة التثليث ، بخلاف الأناجيل الثلاثة الأخرى التي تجمع على الاعتراف بوحدانية الله سبحانه •• وهي عندما تستعمل لفظ البُنُوة لا تخصّ به المسيح وحده بل تجعله من صفات البر المميزة لأصحابها ، وهي عندهم بمعنى الحب والإيثار والتميز بالتقوى ، كما أورد الذكر الحكيم عن النصارى واليهود زعمهم بأنهم أبناء الله وأحباؤه •• لا يريدون بُنُوة الولادة والانبثاق والفيض ، ولكنهم يريدون أنهم المميزون بمرضاة الله واختياره • وفي إنجيل يوحنا يصف المؤمنين بالمسيح أنهم يصيرون بهذا الإيمان أولاد الله[1] •

---

(١) يوحنا صح ١ فقرة ١٢ •

وقد لاحظ مؤلفو دائرة المعارف البريطانية ذلك على إنجيل يوحنا ، فقالوا « إنه من عمل مزور سيىء النية من الإسكندرية .. وضعه لإظهار التعارض بين القديسَين متى ويوحنا ..) ولذلك فهم ينفون عنه الصدق البتة . والعجيب في أمر هذا الإنجيل الذي يبدأ الكلام بقوله الشركي (في البدء كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله ، وكان الكلمةُ الله ..) هو نفسه الذي يصرح في إصحاحه السابع عشر عن لسان السيد المسيح أنه كان يناجي ربه قائلاً : (وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوا أنك أنت الإله الحقيقي وحدك ، ويسوع المسيح الذي أرسلته ..) .

وعلى هذا فالحياة الحقيقية بشهادة إنجيل يوحنا هي الإيمان بوحدانية الله تبارك وتعالى ، وأن المسيح ليس إلا رسولاً من عنده .. وهكذا يضم النقيضين، فمرة يعلن التثليث ، وأخرى يؤكد التوحيد الخالص[1] .

---

(١) قبيل تقديم هذا الكتاب الى المطبعة نشرت (المجلة العربية) في عددها الصادر في ١٣٩٧/٧/٢٠ ترجمة مقدمة وضعها المفكر الفرنسي الدكتور موريس بوكاي لكتابه (La bible, le coran et La science) وفيها بعد الحديث عن احتكار رجال الكنيسة لحق الكلام عن الكتب المقدسة : يقول : (إن المتناقضات والامور البعيدة عن التصديق تظل باقية بلا حل في نظر كل من يريد الاحتفاظ بسلامة مقدرته على التفكير .. واننا لنأسف حقا لذلك الموقف الذي يهدف الى تبرير الاحتفاظ في نصوص التوراة والانجيل ببعض المقاطع الباطلة خلافا لكل منطق) . (فان الكنيسة قد حسمت منذ قرونها الأولى وبشكل نهائي : بين الأناجيل العديدة ، وأعلنت رسمية أربعة منها فقط ، رغم التناقضات العديدة فيما بينها في كثير من النقاط ، وأصدرت الأمر باخفاء الأناجيل الاخرى . ومن هنا جاء اسم الاناجيل المزورة) (وهنا فرق آخر جوهري بين المسيحية والاسلام ، فيما يتعلق بالكتب المقدسة ، ونعني بذلك فقدان نصوص الوحي الثابت لدى المسيحية ، في حين أن الاسلام لديه القرآن الذي هو وحي وثابت معا) .

ويقارن بين القرآن والكتب المقدسة الأخرى من حيث توافقها مع العلم الثابت فيقول : (ولكن تطور العلم كشف للمفكرين عن وجود نقاط خلاف بين الاثنين ــ كتبهم المقدسة والعلم ــ وبهذه الطريقة وجد ذلك الوضع الخطير الذي جعل مفسري التوراة والأناجيل يناصبون العلماء العداء ، اذ لا يمكن أن نقبل بأن رسالة إلهية منزلة تنص على واقع غير صحيح بالمرة : فليس هناك سوى امكانية واحدة .. هي عدم قبول صحة المقطع الذي يقول في التوراة بأمر غير مقبول علميا .. وسوف نرى فيما بعد أن القرآن يثير وقائع ذات صفة علمية وهي كثيرة جدا .. وأنه لا يختلف موضوع ما من مواضيع القرآن مع وجهة النظر العلمية .. إن القرآن لا يحتوي على أي مقولة قابلة للنقد بنظر العلم في العصر الحديث .. فمنذ البدء كانت العناية بالعلم جزءا لا يتجزأ من الواجبات التي أمر بها الاسلام ، وإن تطبيق هذا الأمر هو الذي أدى الى ذلك الازدهار العظيم للعلوم في عصر الحضارة الاسلامية ...)

موحدون ومثلثون :

أسلفنا الإشارة إلى عهد التخفي الذي استمر عشرات السنين ، وأثره في تشويه المسيحية ، وكان لا بد لهذه المرحلة من نهاية ، فجاءت في عهد قسطنطين ، الذي رأى أن كل العقبات التي أقيمت في وجه الدعوة لم تقف انطلاقتها ، فضلاً عن استئصالها .. فخير للدولة أن تترك لها سبيل الظهور لتتناقش مع الأفكار المختلفة .. فإذا أثبتت صلاحها أخذت سبيلها للانتشار العلني ، وإذا كانت الوثنية الرومانية المفلسفة هي الأفضل لم تخسر الدولة شيئاً . ومن هنا أطلق قسطنطين للنصارى حرية التحرك تحت سلطانه ، فكان عهد الانفراج الأول في تاريخ النصرانية ، تنفست فيه الصعداء . ولكن الذي حدث هو أن أناجيل كثيرة قد برزت ، وكل واحد يدعي أنه الحق . وبينها من التناقض ما يستحيل معه التوفيق .. لذلك دعت السلطة الرومانية كبار أحبار النصرانية إلى مؤتمر يصفون فيه خلافاتهم .. حتى كان مجمع نيقية ، وهي مدينة في الأناضول .

وفي هذا المجمع دوت الأصوات ، وتفجرت النظريات المختلفة ، بل المتباينة في شأن المسيح .. حتى استقر الأمر على فريقين أحدهما يقول بإنسانية المسيح وأنه رسول الله ، وعلى رأسه آريوس ، وقد انضم إليه ما يقارب ثلثي المؤتمرين ، يقابله فريق الأقلية القائلين بألوهيته ، وعلى رأسهم بطريرك الاسكندرية .. وكان طبيعياً أن يتجه قسطنطين إلى تأييد الفريق الأقرب إلى وثنيته ، إذ كان شديد التشبث بها حتى إن العديد من مؤرخي الكنيسة يذهبون إلى القطع بأنه مات وثنياً . وهكذا ضلعت الدولة مع دعاة التثليث . ثم لم تلبث أن دفعت بكل طاقاتهم لنصرتهم ، فأصدرت المراسيم وشهرت سيف العقوبات على كل مخالف لبطرك الاسكندرية ، حتى تفجرت المجازر الطائفية ، وغرقت شوارع الاسكندرية بدماء المخالفين ، وذهب رؤوسهم بين قتيل وشريد .. وانتهى بعض هؤلاء إلى العراق الفارسي حيث افتتحوا الجامعة المعروفة باسم مدرسة جنديسابور ، التي يقال إن الطبيب الصحابي الحارث بن كلدة أحد المتخرجين فيها .

ولكن هل يعني ذلك أن أنوار التوحيد قد انطفأت ، وأن النصرانية المثلثة قد انفردت بالبقاء ؟.. كلا .. والدليل على هذا هو أن صوت برنابا الذي انطلق في وجه بولس ، وصوت آريوس الذي ارتفع أيام قسطنطين ، لا يزالان حتى هذه الساعة يترددان في مختلف الأنحاء . وليست الانقسامات الكبرى والمستمرة في داخل الكيان النصراني ، سوى شهادة قاطعة بأن هذه النصرانية قد فُرّغت من القدرة على مخاطبة الفطرة ، وعجزت بالتالي عن أن تقدم للانسان أي حل ناجح لمشكلاته الروحية . إن انفصال البروتستنتية عن الكنيسة الرومانية البابوية إنما يشكل واحداً من الانتفاضات التي تعلن هذه الحقيقة ، ولكنه لم يحقق الحل المنشود ، لأنه ظل متشبثاً بالأصول البولسية المفلسفة دون الرجوع إلى منابع الوحي الصحيح .. وهكذا القول في السبئية وجماعة يهوه والمورمون وأحزابهم .. فكل انفجار من هؤلاء إنما يصور لوناً من النشاط العقلي المتطلع إلى الحقيقة المحجوبة .. ولكم كلفت هذه الانقسامات العالم النصراني من الضحايا على مر الأحقاب دون أن تنتهي به إلى مستقر .. وما هذه المجازر الوحشية القائمة على قدم وساق في ايرلندة سوى تعبير صارخ عن التناقضات الهائلة في هذه النحلة ، التي استنفدت أغراضها بالنسبة إلى حاجة الانسانية . ولعل أهم فرق هذه الانقسامات جدارة بالتفكير هم السوسنيون[1] الذين يسمون أنفسهم كنيسة الموحدين .. وهم بقية جماعات رفضت تقليد المثلثين ، وآمنت بالمسيح عبداً لله ورسولاً ، فقوبلت بكل وسائل الإبادة ، في شرق أوروبة وغربها ، حتى لم يبق منها سوى قلة ينتشر بعضها اليوم في أنحاء من أوروبة .

اتهامات صريحة :

ولكي تتكامل الصورة الضرورية عن أصول هذه النصرانية البولسية ، نلم فيما يلي ببعض الشواهد التي تكشف عن مصادر هذه الأصول في عقائد القدماء

(١) نسبة الى (سوسنيوس) مؤسس فرقتهم ابان القرن الـ ١٦/ اذ انكروا التثليث ونادوا بالتوحيد الحق فبطشت بهم الكنيسة ، وفر بقيتهم الى سويسرة ، ثم لاذوا بشرق اوروبة .. وتابعهم في المانية طائفة الاناباست الذين سحقتهم الكنيسة اخيرا . انظر كتابنا (مشكلات الجيل ..) ص ٢١٩ .

من الشعوب الوثنية ، مكتوبة بأقلام علماء ومؤرخين من النصارى أنفسهم • وكلهم يعلن أن هذا التثليث الذي تقوم عليه نصرانية بولس وبطريرك الاسكندرية إنما هو القدر المشترك بين معظم الوثنيات الضاربة في القدم •

يقول صاحب كتاب (الآثار الهندية القديمة) : (كان لدى أكثر الأمم البائدة تعاليم دينية تقول باللاهوت الثلاثي ••) ويقول المسيحي دوان في كتابه المسمى (خرافات التوراة والإنجيل) : إذا رجعنا البصر نحو الهند نرى أشهر عباداتهم التثليث • ويعبرون عنه بالأقانيم الثلاثة (برهما وفشنو وسيفا) ويؤمنون بأن هذه الثلاثة إنما تشكل ثلاث هيئات لشيء واحد ، تماماً كما يقول النصارى : (أب وابن وروح قدس إله واحد ••) ويقول فابر في كتابه (أصل الوثنية) : إن بوذيي الصين يعبدون إلهاً مثلث الأقانيم ويسمونه (فاو) وعن هذه العقيدة يقول دوان (إن شيعة فاو يزعمون أنه ، وهو العقل الأبدي عندهم) ، انبثق منه واحد ، ومن هذا انبثق ثان ، ومن هذا انبثق ثالث ،ومن الثلاثة صدر كل شيء ••) •

ومن هنا ندرك مدلول قول الله تبارك وتعالى في اليهود والنصارى (وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله •• ذلك قولهم بأفواههم ، يضاهئون قول الذين كفروا من قبل ••) •

وفي تقييده تعالى هذا القول بأفواههم إشارة معجزة إلى بعده عن العقل والفطرة •• لأن العقل يرفضه بقوة ، والقلب ينفر منه بشدة ، وهو تعليل رباني ما كنت لأدركه قبل وقوفي على أصول هذه الوثنيات ، وعلاقة النصرانية البولسية بها •

وفي كتاب (سقوط الحضارة) المترجم إلى العربية من مؤلفات الكاتب الإنجليزي الكبير (كولِن ولسن) طوائف من هذه الشهادات القاطعة عن أصول النصرانية البولسية ••

يقول كولن ويلسن (إن المسيحية لم ترتكز على تعاليم المسيح ، بل ارتكزت على عقيدة وهمية اخترعها بولس) وينقل عن نيتشه قوله : (لقد كانت دعـوة المسيح في جوهرها دعوة إلى النظام والقوة •• أما بولس فقـد حولها إلى دين صار ملاذاً للخائفين والمذعورين) ولذلك أطلق نيتشه على بولس اسم (باسكال اليهودي) (لأنه بنظره ميال إلى الخرافات والمكر) وينقل عن لسان ويلز قوله في (ملخص التاريخ) إن المسيح لم يبشر بالمسيحية المعروفة اليوم ، وإنما أحدثها بولس المتعلم بالاسكندرية ، ومنها أخذ تعاليمه التي استحالت فيها آلهـة قدماء المصريين (إيزيس وهورس وسيزاييس) إلى الأب والابن وروح القدس ولهذا ــ على رأي كولن ولسن ــ يأسف الكثير من أحرار الفكر ، لأن حركة الإصلاح البروتستنتية لم تكن لصالح فكرة المسيح ، بل كانت لصالح مسيحية بولس[1] •

وهكذا يجمع المؤرخون ومفكرو الغرب على تأثير بولس الكلي في مسيحية السيد المسيح ، وينطوي ذلك على اتهام صريح برجوع هذه النصرانية المستحدثة إلى مصادرها الوثنية ، التي تلقاها بولس عن فلسفة أفلوطين الاسكندري •

التقليد أساس البلاء :

ولا بد للعاقل الذي يقف على هذه الحقائق أن يسأل نفسه : مادام الأمـر على هذا المستوى من الوضوح ، فكيف يتقبله العالم المسيحي بالتسليم الضرير ، وبخاصة أولئك الذين يتولون تثبيت دعائم هذه النصرانية المحرفة ، ونشرها في العالم ، وهم عارفون بكل هذه الشواهد الدامغة ؟•••

الجواب : إنه التقليد الـذي من شأنه أن يلغي العقول ، ويسير بصاحبه مغمض العينين وراء غيره •• وهذا التقليد الأعمى هو الذي عزل القوم عن مصادر دينهم • ولن أغالي إذا قلت : إن جريان الشعوب النصرانيـة وراء كهنتها دون تفكير ، قـد أعفـاهم حتى مـن الاستظهـار لنصـوص كتبهـم المقدسـة

---

(١) انظر (سقوط الحضارة) ص ١٧٩ ــ ١٨٨ •

نفسها . وهذا (بيارصودج) المبشر الكبير ورئيس الجامعة الأمركية الأسبق في بيروت يعلن صراحة في كتابه : (الإسلام بنظر الغرب) قائلاً (نحن المسيحيين لا نقرأ سفر اللاويين ولا نصوصاً من رسائل بولس ، وإنما نعنى بالموعظة التي ألقاها المسيح على الجبل ، والقاعـدة الذهبية ، وبعض النصوص الجميلة التي تتعلق بالحياة الحديثة)[1] ولا غرابة فإن كبار كهنتهم إذا أرادوا إقامة قـداس لا يستغنون عن النظر في الإنجيل ، لأنهم لا يكادون يحفظون منه شيئاً .. وهذا ما يذكرنا بالنقيض المقابل عند المسلمين ، إذ يكاد يكون عدد المستظهرين لكتاب الله موازياً لعدد قرائه إذا لم يزيدوا .. ولا بد أن يكون لذلك علاقة وثيقة بقوله تعالى (ولقد يسرنا القرآن للذكر .. فهل من مدّكر !..) .

وبديهي أن يكون التقليد المحض هو الذي لا يزال يحجب القوم عن نور الرسالة الخاتمة ، لأن الركون إلى التقليد أخف حملاً من نشدان الحقيقة .. وقديماً أغلقت قريش أسماعها عن دعوة الله (وقال الذين كفروا لاتَسمعوا لهذا القرآنِ والغَوا فيه لعلكم تغلبون) . ولما قيل لفاتح مصر العظيم أبي عبد الله عمرو : كيف تخلفت عن الإسلام وأنت من أنت في عقلك !.. فأجاب مامؤداه : كنا نثق بعقول آبائنا ، فلا نكلف أنفسنا عناء التفكير ، فلمـا زالوا رجعنا إلى عقولنا وأدركنا ماكنا نجهل .

وقد ذكرتُ أن زميلاً من أتباع بولس كنت أناقشه في شواهد الإنجيل المبشرة بخاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليهم ، فكان مما قاله يومئذ : (أنتم المسلمين تخطئون عندما تجادلوننا بالإنجيل وبالكتب المقدسة .. لأن ديننا ليس من هذه المصادر بل هو مايقوله آباء الكنيسة ..) ولعل بعضكم سمع البـابا السابق يعلن في ثلاثمئة ألف من زوار الفاتيكان قبيل وفاته ، وهو على محفته فوق الرؤوس : إن على كل كاثوليكي أن يؤمن العذراء قد ارتفعت إلى السماء .. وهذا يعني أن كل من شـك في ذلك الخبر عرض نفسه للانسلاخ مـن رحمة

(١) (الاسلام بنظر الغرب) ص ٤٣ .

الكنيسة !.. وذكرتُ النبأ لزميل من القوم أستوضحه رأيه فيه ، فما كان منه إلا أن رفع قبعته ، وحنى هامته ، وهو يقول : ليس على الأرض كاثوليكي يشك في ما يقوله الحبر الأعظم .. قلت : ولكن الخبر من الأمور التاريخية ، ولم يسمع الناس مثله طوال ألفي سنة ، فمن أين للبابا علم ذلك ؟.. قال : ليس لأحد أن يسأل البابا : لمَ ؟.. ولا من أين . بل عليه أن يتلقى كل ما يقول بالقبول !

ولعل الأغرب من ذلك كله أن يشارك في هذا الضرب من التسليم المشلول حتى كبار المفكرين من أهل ذلك الدين .. ولنضرب مثلاً على ذلك كريسبي موريسون ، وهو أحد أعلام الفكر المعاصر في أمريكة ، ومؤلف كتاب (العلم يدعو إلى الإيمان) هذا العلامة الكبير يعلن في كتابه هذا أن ليس لزاماً أن يتفق الدين والعلم ، فالعلم للعقل ، وهو لا يقبل سوى الحقائق الثابتة ، أما الدين فهو من شؤون القلب ، ولا علاقة له بالحقائق العلمية !..) ولا تفسير لذلك إلا التقليد .. التقليد حتى في أوساط المفكرين الكبار منهم .. وهو أمر شديد الغرابة بنظر المسلم الذي يؤمن بأن الذي زود الانسان بالعقل هو الذي هداه سبيله بالوحي .. فهما على أتم الانسجام في قلبه ولله الحمد .

الدين والكنيسة :

ولنرجع إلى كلمة ذلك الزميل الذي لخص بها اعتقاده قومه بأن الدين ليس له مصدر عندهم سوى مقررات آباء الكنيسة . إن هذا المبدأ الخطير قد أطلق يد هؤلاء الآباء في مصير الشعوب ، وفي عنق الحضارة نفسها ، وجرَّ على الانسانية أكبر الكوارث .. ذلك لأنها بهذا المنطق فرضت نفسها على العقل والعلم فحجرت عليهما ، ولم تسمح لأي فرد أن يتلقى أي معرفة إلا عن طريقها هي .. ولما أحست أثر لثقافة الإسلامية المشرقة على أوروبة من طريق الأندلس ، أقامت بوجهها محاكم التفتيش ، وساقت إليها كل مفكر خالف أوامرها ومقرراتها، حتى في الشؤون الدنيوية المحضة .. ولا يزال العالم يذكر في أسى بالغ ضحايا هذه المحاكم من رواد النهضة الغربية .. ولا نكشف ستراً عن مجهول إذا قلنا

بأن كل الانتفاضات التي انفجرت بوجه الإيمان في عالم النصرانية ، وتسربت إلى عالمنا عن طريق المتتلمذين له من أبنائنا ، إنما كان مردها إلى ذلك الضغط الكنسي الذي شحن الصدور بالنقمة من الدين ..

أجل .. لقد جنى الحكم الكنسي على طمأنينة الانسان ، وكاد يتلف غراس المدنية التي بذرها الإسلام في دنيا الغرب ، أيام كان للكنيسة السلطة المطلقة ، بيد أنها سرعان ما انحنت للعاصفة بعد أن تغلب عليها الفكر المحرر فجردها من أسلحتها .. فباتت تتملق الشباب باسترضاء أهوائه ، وتكاد تؤيده في سائر انجاهاته .. حتى لتجد فيها القسس المخنفسين والراقصين ، وحتى لتقيم إلى جانب كل كنيسة جديدة مشرباً ومرقصاً ، لاجتذاب الهاربين منها ، وحتى لتفتي الدولة بإباحة اللواط ، على اعتباره من الحريات الخاصة ـ كما هو الحال في إنجلتره ـ وكان من ردود الفعل لهذا الوضع أن عزلت الكنيسة كلياً عن التأثير في مسيرة المجتمع ، بعد أن عجزت عن أن تمده بأي حل لمشكلاته المعقدة ، وأي علاج لأمراضه النفسية المدمرة . والنتيجة الطبيعية لهذا التميع هي أن يزداد الانسان بعداً عن هذا الدين يوماً بعد يوم ، لأن الدين الذي يفقد قدرته على الهداية وتقويم النفس ، وإبطال المفاسد الاجتماعية ، وتقديم الطمأنينة الروحية للفرد والمجتمع .. لا تستطيع سلطة في الأرض أن تضمن له البقاء .. وذلك هو الشأن أبداً في كل محاولة بشرية لإصلاح المسيرة الانسانية ، إذا هي فصلت عن مصادر الوحي الصحيح ، وصدق الله العظيم في قوله الحكيم لنبيه الكريم (قل : إن ضللت فانما أضِلُّ على نفسي ، وإن اهتديتُ فبما يُوحِي إليَّ ربي ..) .

الوثنية وعقيدة الفداء :

والآن ، وبعد أن فرغنا من تقصي الأصل الوثني لمبادىء التثليث الأفلاطوني، بات لزاماً علينا أن ننتقل إلى الأصل الثاني لنصرانية بولس ، ونعني به مبدأ الفداء . وها نحن أولاء نلخصه في النقاط التالية :ـ

أ ــ إن خطيئة آدم عليه السلام بأكله من الشجرة المحرمة قد سرت في أعراق الجنس البشري كله •

ب ــ إنه لا سبيل إلى التطهر من هذه الخطيئة الجَدّية عن طريق التوبة والعمل الصالح •

ج ــ إن الوسيلة الوحيدة لتخليص الجنس الآدمي من ذلك الرجس إنما هو بتضحية الأب ابنه فداء للانسانية الوارثة للإثم !•

وهكذا سلم الأب ابنه الحبيب إلى أعدائه ليصلبوه ، من أجل إنقاذهم وأبناء جنسهم • وبما أنه مكتوب في صحفهم المقدسة أن كل من علق على خشبة فهو ملعون ، فقد تحمل إلهم المسكين اللعنة من أجلهم •• بل صار هو لعنةً ، كما يزعم بولس في رسالته إلى غلاطية •

والأمر الذي لا ريب فيه هو أن عقيدة الفداء هذه تراث وثني عريق ، شأنها شأن التثليث الذي عرضنا لمصادره في ما تقدم •

فالوثنيون القدامى يكادون يجمعون على تقديم الذبيحة البشرية استرضاء لآلهتهم • يشترك في ذلك الرومان واليونان والمصريون والفينيقيون والهنود وغيرهم •

يقول دوان (يعتقد الهنود بأن كرشنا قدم نفسه ذبيحة ليخلص أهل الأرض من أوزار الخطيئة • وهو مصور في كتبهم مثقوب اليدين والرجلين ومعلقاً على الصليب) • وفي أغاني البوذيين الدينية التي يمجدون بها معبودهم بوذا يقولون: (عانيت الاضطهاد والامتهان والسجن والموت والقتل بصبر وحب عظيم لجلب السعادة للناس •) ويدعونه (الطبيب العظيم ، ومخلص العالم ، والمسيح المولود الوحيد ، وأنه قدم نفسه ذبيحة ليكفر آثام البشر •) •

ويروي المؤرخ موري في كتابه (الخرافات) أن المصريين يعدون أوسيريس أعظم مثال لتقديم النفس ذبيحة لينال الناس الحياة • والسوريون القدامى

يزعمون أن معبودهم تموز المولود من عذراء تألم من أجل الناس وفداهم بتقديم نفسه للصلب •

ونحن لو استرسلنا في هـذه النقول لضاقت الصفحات ، فحسبنا منهـا ماذكرنا ، ولئن دل هـذا إنما يدل على أن قول النصارى بصلب المسيح فـداء للجنس البشري ليس إلا صدىً لما جرى عليه عُبّاد الأوثان من أقدم الأزمان •

ولا شك أن مثل هذه الخرافات ينطوي على جاذبية لقصار النظر وأهـل الجهل ، الذين يستهويهم كل غريب من الأساطير •• وقد شارك بعض الـذين يُظن بهم العقل من النصارى في قبول هذه « المزاعم » على طريقتهم في الاستسلام الأعمى • لأن الرأي عندهم أن الدين ليس لزاماً أن يصطلح مع الحقائق العلمية ، وإنما هو لتعزية النفس وصرفها عن الواقع فقط ، الأمر الذي دعا ماركس لرمي الدين بكونه أفيون الشعوب ، وهو قول صحيح بالنسبة إلى سائر الأديان خارج نطاق الإسلام •• ولله الحمد •

وهنا أذكر كلمة لصديق سوري أقام في فرنسة ردحاً من الزمن ، وكان له زميل فرنسي متدين ، فسأله المسلم ذات يوم كيف يستطيع أن يؤمن بألوهية بشر ولدته امرأة ويأكل الطعام ويمشي في الأسواق ؟!•• فدهش الفرنسي لسؤال زميله ورد عليه بقوله : ألست كاثوليكياً ؟!•• وهذا يعني أنه كان يظنه مثله كاثوليكياً، إذ ليس من حق الكاثوليكي أن يُعمل عقله في مثل هذه الأمور ؟!••

الاكتشافان الحاسمان :

لقد مضينا حتى الآن مع النصرانية خلال مراحلها التاريخية ، فأدركنا أسسها المستمدة من أعمـاق الوثنيات القديمـة ، حتى أفلوطين الاسكندري ، وبولس اليهودي ، وأطللنا أخيراً على واقعها المؤسف حيث لا تزال كشأنهـا أيام الحكم الكنسي الرهيب ، تطارد الأفكار الحرة ، وتثير المجازر الطائفية ، كما هو الحال في إيرلندة والفيليبين •• وتستبيح تضليل المسلمين ، لترد من تستطيع ردّه إلى

الكفر بعد الإيمان . ولا يخجل دعاتها المحدثون من ترديد أساطير السفهاء ، الذين عجزت عقولهم أن تقدر كمال الألوهية ، فنسبوا إلى الله مايمارسونه في أنفسهم من الولادة والفداء والعجز !.. تعالى الله عما يقول الظالمون .

ومن هنا ننتهي إلى القسم الأخير من البحث الذي نريد أن نناقش به أهم مدّعيات المبشرين بهذه النصرانية البولسية في شأن المسيح عليه السلام وذلك على ضـوء أخطر اكتشافين تاريخيين من حقهما أن يأتيا على أسطورة الفـداء من القواعد .

أما الاكتشاف الأول فيعود إلى عام ١٨٢٠ م ــ ١٢٣٨ هـ أيام حملة نابليون على عكا ، اذ عثرت البعثة الفنية الملحقةُ بجيشه على صورة الحكم الجنائي الذي أصدره الحاكم الروماني بيلاطس البنطي على السيد المسيح ، وهو منقوش على صفحة من البرونز ضمن وعاء من الرخام الأبيض ، ومكتوب بالعبرية ، وذلك في مذبح دير الكابوشيين من ضواحي القدس ، حيث لا يزال محفوظاً حتى الآن . وها أنذا أنقل ترجمة هـذا القرار عن مجلة الإيمـان المسيحية التي تصـدرها البطريركية الارثوذكسية بدمشق ، وقد نقلتْه بدورها عن مجلة فرنسية .

يقول القرار : (نحن بيلاطس البنطي حاكم الجليل الأدنى ، المتسنم رئاسة مجلس الشيوخ ، نحكم على يسـوع الناصري بالموت على الصليب بين لصين للأسباب التالية :ـــ

١ ــ أن يسوع مضلل ، ٢ ــ أنه ضال ، ٣ ــ أنه عدو القانون الروماني ،

٤ ــ أنه يدعي نبوة الله بطلاً ، ٥ ــ أنه يدعي ملك إسرائيل بطلا ، ٦ ــ أنه دخل الهيكل والجموع تتبعه بسعف النخل ..

وبناء عليه فإن بيلاطس يأمر كرينوس كيونيليوس قائد المئة أن يقود المجرم إلى مكان العقاب ، ويحظر على أي شخص أن يسترحم السلطة بشأن هذا العقاب. فهاهنا تفصيل مسهب للأسباب التي سوغت قتل هذا المحكوم ، ولكنهـا

لا تعدو من الناحية الدينية اتهامه بادّعاء النبوة ، ومن الناحية السياسية بتهديد النظام ، لما يجتمع حوله من الناس ، الذين قد يكثرون حتى يشكلوا خطراً على الحكم الروماني •• ونحن لا يهمنا من هذا القرار إلا توكيده على نبوة المسيح الذي يعتبر صفعة محكمة للقائلين بألوهيته ، إذ لو نُسِب إليه شيء من ذلك لكان التركيز عليه أولى من سواه •• ويبقى أن تتذكر أن الوثيقة تثبت صدور الحكم ولا تُثبتُ تنفيذَه • ونحن لا نرى مانعاً من أن يكون السيد المسيح نفسه قد قدّم إلى المحاكمة أمام بيلاطس ، أو أن يكون هذا قد أصدر عليه حكم الموت ، ولكننا مقتنعون بأنه لم ينفذ ، وذلك اعتماداً على شهادة الله من فوق سبع سموات ، بأنهم ماقتلوه وما صلبوه ولكن شبّه لهم •

وأما الاكتشاف الثاني فقد أذيع نبأه صباح الثامن من ذي القعدة لعام تسعين • سمعناه من محطة لندن ، ثم من محطة إسرائيل ، وهو يقول بالحرف (اكتشف علماء الآثار الإسرائيليون مايصفونه بانه أول دليل مادي على صلب السيد المسيح) • ويقول هؤلاء (إن الصلب حدث قبل نحو ألفي سنة ، وهي تقريباً نفس الفترة التي صُلب فيها السيد المسيح • وقد نشرت مجلة علمية إسرائيلية دراسة تحليلية مفصّلة عن بقايا رجل كان مثبتاً بالمسامير على صليب ، وقد اكتشفت العظام في إحدى المقابر القديمة ، في الشمال الشرقي من القدس ، غير أن العلماء ــ أي الإسرائيليين ــ يقولون (إنه غير وارد مطلقاً أن تكون عظام السيد المسيح نفسه !••)

فهاهنا نبأ مثير من شأنه أن يبعث على التفكير الكثير ، بل من حقه أن يزيل الغشاوة عن كثير من العيون التي حُجبت عن الحقيقة ، لو بقي لهذه العيون قدرة الإبصار •

ولنجزىء النبأ إلى نقاطه الرئيسية نجد مايلي :ــ

١ ــ أن الكشف قد تم على أيدي خبراء إسرائيليين في الآثار •

٢ ـ أنهم اعتبروا هذا الكشف أول دليل مادي على صلب المسيح ، ودليلهم على ذلك مرور ألفي سنة على الأثر المكتشف •

٣ ـ أن الهيكل المكتشف هو بقايا رجل ثبت بالمسامير على الصليب •

٤ ـ أن هذا الكشف قد حصل على مقربة من القدس ، وهو غير بعيد عن المكان الذي حدث فيه الصلب المزعوم كما تذكر الأناجيل •

٥ ـ أن علماء اليهود يستدركون فيعلنون أن العظام المكتشفة لا يمكن أن تكون عظام المسيح نفسه • ولنرجع البصر في هذه النقاط لنرى إلى أي شيء تسوقنا :

فأولاً إن المكتشفين اليهود هم الذين يعلنون أن ما اكتشفوه يعتبر أول دليل مادي على صلب المسيح ، ثم يعلنون في النهاية إنكارهم أن تكون هذه البقايا هي عظام المسيح نفسه !• وهو تناقض عجيب بين مايثبتون ، وماينفون ، إذ من أين علموا أن هذا الكشف دليل مادي على صلب المسيح ، في حين لم يعثروا على أثر لهذا الدليل !•• وإذا كان دليلهم المادي هو كون البقايا ترجع إلى ألفي سنة ، فما أسخفه من دليل ، لأن الذين صلبوا في ذلك العهد كثيرون ، والصلب كان أشهر وسائل الإعدام الرسمية أيامئذ •• فاكتشاف بقايا مصلوب مجهول لا يثبت كون فلان أيضاً قد صلب ، إلا عند الذين طلقوا عقولهم البتة !•

على أن الكشف يظل مع ذلك ذا دلالة هامة ، إذ يثبت أن رجلا صـُلب في تلك الأثناء ، وفي ذلك المكان ، وأنه قد ثـُبت على صليبه بالمسامير ، وأن أسباباً قد هيأها الله لحفظ بقايا عظامه حتى عثر بها هؤلاء الخبراء !•• ولكن هل في شيء من ذلك مايدل على أن المسيح قد صـُلب حقاً ؟••• والجواب : كلا ! وحجتنا في ذلك النفي معتمدة على منطقنا الإسلامي من جانب ، وعلى أخبار الأناجيل عن قصته من الجانب الآخر •

فنحن بوصفنا مسلمين نؤمن بما أخبر به المعصوم ﷺ بقوله الثابت « إن

الله حرم على الأرض أجساد الأنبياء »[1] وقد ثبت ذلك من اكتشاف المسلمين لقبر النبي دانيال عليه السلام في العراق •• الذي أمَر الفاروق رضي الله عنه بالتعفية عليه ، حمايةً له من الجهلاء الذين سيتمسحون به ويَنذرون له حتماً لو عرفوا مكانه ، ولو كان ذلك الهيكل المكتشف خاصاً بالسيد المسيح لاستحال أن يكون بقايا عظام بَلِيَ لحمُها •

ثم تأتي قصص الأناجيل عن الصلب المزعوم ، فتقطع بأن المسيح قد خرج من قبره بعد ثلاثة أيام ، وارتفع إلى السماء ، فظلت حفيرته خالية من آثاره • وهم يحتفلون بذكرى هذه المناسبة حتى اليوم ويسمونها ذكرى قيام المسيح من القبر•

أما الدَلالة الوحيدة التي يمكن استخلاصها من ذلك الكشف فهي أن الصلب الذي أمر به بلاطس البنطي قد نفذ ، وكان المصلوب رجلا آخر غير المسيح ، الذي أكرمه اللهُ فأنقذه من ذلك المصير ، الذي يستحق صاحبه اللعنة ـ في ملتهم ـ !•• والذي نرجحه أن خبراء اليهود ، عندما نفوا أن تكون الآثار المكتشفة هي بقايا المسيح ، إنما أرادوا بذلك التزلفَ إلى العالم المسيحي، ليقابلوا حكم المجمع المسكوني الذي قرر تبرئتهم من دم المسيح ، بخدمة مناسبة لذلك القرار • وإلا فكيف يُقدمون على هذا النفي وهو مخالف لما يعتقدونه في المسيح ، إذْ يرمونه بالبهتان ، ويقررون في كتبهم المختلفة أنهم قتلوه بسبب ذلك، ولولا هذا التزلف المراد لوجدوا في كشفهم مايؤكد رأيهم في المسيح ، ويكذب مدّعيات المسيحيين أعدائهم التقليديين • ولكن مثل هذا التلون من خصائص النفس اليهودية التي لا تقيم للحق وزناً ، والتي لا تزال وستظل كما وصفها الحَبْرُ المهتدي عبدُ الله بن سلام رضي الله عنه عندما قال عن أقربائه اليهود (إنهم قوم بُهْت) !••

مقارنة ومناقشة :

والآن ، وبعد عرضنا لمضمون الاكتشافين نرى لزاماً علينا أن نعود إلى رواية

---

(١) ابو داود وابن ماجه والنسائي والبيهقي •

الأناجيل عن حادثة الصلب ، ثم ننظر إلى مابينها وبين هذين الاكتشافين التاريخيين من صلة تنير سبيل الباحث عن الحقيقة .

وسأكتفي هنا برواية إنجيل متى كما وردت في الإصحاح السابع والعشرين .

يقول متى : كان الوالي ـ بيلاطس البنطي ـ معتاداً في العيـد أن يطلق للجميع أسيراً واحداً يختارونه . وكان لليهود أسير مشهور من لصوصهم يسمى (باراباس) . ففيما هم مجتمعون قال لهم بيلاطس : من تريدون أن أطلق لكم : باراباس أم يسوع ؟..

وبينما هو ـ بلاطس ـ جالس على كرسي الولاية أرسلت إليه امرأته قائلة: إياك وذاك البارَ لأنني تألمت اليوم كثيراً في حلُمٍ من أجله ..

ولكن رؤساء الكهنة والشيوخ حرضوا الجموع على أن يطلبوا باراباس ويهلكوا يسوع .. هنا (قال لهم بلاطس : فماذا أفعل بيسوع ؟.. قال الجميع : ليصلبْ . فقال الوالي : وأي شر عمل !.. فكانوا يزدادون صراخـاً قائلين : ليصلبْ .

فلما رأى بلاطس أنه لا ينفع شيئاً ، بل يحدث شغب" أخذ ماء وغسل يديه أمام الجميع قائلاً" إني بري" من دم هذا البار . فأجاب جميع الشعب : دمه علينا وعلى أولادنا .

حينئذٍ أطلق لهم باراباس ، وأما يسوع فجلده وأسلمه ليصلبْ ..

فهاهنا أمور تقتضي المناقشة :

١ ـ في أحد الاحتفالات الرسمية برز الوالي بلاطس للناس ، فاستغل كهنة اليهود وزعماؤهم هذه الفرصة ودفعوا جموع الغوغاء من أتباعهم للتظاهر .

٢ ـ وكان من عادة الوالي أن يطلق للناس أحد سجنائهم في ذلك الاحتفال، فخيّرهم بين باراباس ويسوع .

٣ ــ كان بلاطس شديد الرغبة في إطلاق يسوع تقديراً لفضله ، واقتناعاً ببراءته ، واستجابة لشفاعة زوجته ، التي كانت مذعورة برؤيا عن ذلك البريء •

٤ ــ حاول الوالي إنقاذ يسوع بمختلف الوسائل الممكنة ، حتى لقد غسل يديه شهادة منه بصلاحه ، ولكن محاولته لم تزد أعــداء يسوع إلاّ إصراراً على قتله •

٥ ــ لقد خشي بلاطس أن يتطور الموقف فيجر إلى فتنة سياسية تضعه في موقف المسؤولية أمام دولته • إذ لا يستبعد أن يرفع أولئك الزعماء اليهود أمره إلى القيصر ، زاعمين أنه يتساهل مع رجل يهيىء للثورة على الحكومة الرومانية • فلم يسعه إلا النزول على طلب الغوغاء فاسترضى عواطفهم بإطلاق باراباس •

٦ ــ وبإطلاق باراباس تختم القصة ، وتخبرنا بمنتهى الاختصار أن بلاطس جلدَ يسوعَ وأسلمه للصلب •

وبعد تلخيص المشهد على هذا النحو من التفصيل نبدأ مناقشة الرواية ، فنقــول :

هل كان باراباس ويسوع حاضرين أمام الجماهير المتظاهرة ، التي وُجهت للمطالبة بإطلاق الأول وإعدام الثاني ؟••

والجواب : كلا •• بل كانا في المعتقل •• وإنما حدث الحوار بشأنهما في غيابهما ، إذ ليس في روايات الأناجيل مايشير إلى وجود أي منهما هناك •

وعلى هــذا فالمعقول أن يكون بلاطس قــد استحضر باراباس وأطلقــه للجماهير •• التي لم يعد لها مصلحة في البقاء ، بعد أن ظفرت برجلها المرغوب ، فانفضت لتدع لبلاطس تنفيذ الشق الثاني من مطلبها ، لاسيما بعد أن أعلن لهم قراره بجلد يسوع وصلبه ••

ولكن •• هل نفذ بلاطس ذلك القرار بيسوع فعلاً ؟••

إن بلاطس في صورة الحكم المحفوظ في مذبح دير الكبوشيين يبدو شديد القسوة على يسوع ، حتى لا يسمح لأي شخص أن يسترحم السلطة بشأنه ..

وإذا نظرنا إلى شخصيته كما لمحناها من خلال رواية الإنجيل رأيناها على غاية من الرقة والعدالة والرحمة .

فكيف نوفق بين الوصفين .. دون أن نضطر إلى تكذيب أيٍّ منهما ؟..

الظاهر أن بلاطس ظهر في النص الإنجيلي على حقيقته شديد الميل إلى يسوع لأنه لم يرَ فيه إلا مخايل الخير وجماع الفضائل ، على الرغم من وشايات اليهود ، وصخب غوغائهم .. فلما أكره على مراضاة هؤلاء الأشرار ، أطلق لهم من أرادوا إطلاقه ، ولكي يتجنب دسائسهم عليه صاغ ذلك القرار القاسي ثم أذاعه ليوهمهم أنه منفذ ما أرادوه من صلب يسوع دون رحمة .

بقي أن نتساءل : من هو إذن ذلك الذي نُفذ فيه حكم الموت على الصليب ؟!..

وجوابنا على هذا التساؤل بارز في وصف الله تبارك وتعالى له بقوله (ولكن شُبِّه لهم) فهاهنا فعل ماضٍ مبني للمجهول يعني أن القتل قد وقع على شخص حتماً ، ولكنه غير الشخص الذي أراده اليهود ، ولا مانع لدينا من أن يكون بلاطس هو الذي لبس عليهم ، فساق إلى الصلب شخصاً آخر من المستحقين للموت ، إيهاماً لهم بأنه مطلوبهم وهو غيره .. بل لا مانع أن يكون المصلوب بالفعل هو يهوذا الأسخريوطيّ ، الذي كان يتظاهر بالإيمان ، وهو على دين الفريسيين أعداء المسيح ، ليتجسس عليه ، وليترقب الفرص الصالحة للتخلص منه ، فلما شاء الله رفع عبده ابن مريم عليه السلام ، سيق هذا الشرير مكانه إلى القتل .. كما أوضح ذلك برنابا في إنجيله الذي سبق ذكره .

ويروي كَتَبَةُ الأناجيل أن هذا المسوق إلى الإعدام كان شديد الخوف من الموت ، وقد جعل يضرع إلى الله أن يصرف عنه كأس المنية . ويبلغ به الجزع

قمته فيصرخ : إيلي •• إيلي •• لِمَ شبقتني ؟!•• « ومعناها بالعربية (إلهي •• إلهي •• لم تركتني ••) » •

إنـه يتعجب من ترك الله إياه تحت رحمة قاتليـه دون أن يهيىء له سبيلاً للنجاة •• وقد تتعجب من تعجبه ، لأن المتوقّع من خائن مثله أن يستشعر الندم في مثل هذا الموقف الرهيب ، إذ يتجلى لضميره سـوء فعله ، وعظم جريمته ، فيستغفر الله لذنبه في كثير من الانكسار بدلاً من مثل هذا السؤال المشـحون بالاستغراب لهذا المصير ، كأنه بريء لم يغمس يده ولا لسانه في إثم •

ولكن عجبنا سرعان ما يزول عندما تتذكر خصائص النفس اليهودية ، التي لا تعرف طعم العـدالة ، ولا ترى في جرائمها مهما بلغت ما يستدعي النـدم أو الاستغفار •

لقد اقترف هذا اليهودي جريرته في الوشاية برسول الله ، خضوعاً لأمـر الأحبار ، الذين يعتقد بأنهم لا يخطئون ، وأن طاعتهم مقدمة على طاعة الله •• أجل حتى على طاعة الله ، وهذا التلمود بين أيدينا ـ وهو كتاب فقههم الأعظم ـ يعلن أنه إذا اختلف الله والحاخام فالصواب مع الحاخام ، والطاعة له •• وبنـاء على ذلك فيهوذا السـاعي لقتل المسيح موقن في صميمه أنـه يستحق عون الله ونصرته ، لأنه عامل في طاعة الحاخامين •• فمن حقه أن يتعجب من ترك الله إياه فريسة لجنود بلاطس !••

أجل إنه الإصرار على الجريمة حتى اللحظة الأخيرة من الحياة ••

ولا غرو •• فإن اليهودي مستعد لنسف الكرة الأرضية بمن عليهـا ، إذا استيقن أن في ذلك مصلحـة لجنسه أو لنفسـه •• وفي تلمود اليهود أن بني إسرائيل هم وحدهم الجنس المختار ، وكل من عداهم من سكان البسيطة فبمثابة الحمير خلقوا لركوبهم • وليست أموال الناس سوى حقهم الخـاص ، لهم أن يحصلوا عليه بكل الوسائل • وقد ثبت من عشرات الحوادث في الشرق والغرب

أن فطيرهم الـذي يتناولونه في ذكرى خروجهم من مصر لا يعتبرونه مقدساً مُجْزِئاً إلا إذا عجن بـدم آدمي .. ولذلك فهم دائبون أبـداً على اختطاف الأطفال ، وإذا لم يتح لهم الأطفال فالرجال ، لاستنزاف دمائهم وتعبئتها في قوارير توزع على أحبارهم ليمزجوا بها فطيرهم[1] .

وقد رأينا حيي بن أخطب يوم قريظة يساق إلى القتل جزاء نكثه العهـد وتأليبه الكفار على المؤمنين ، ومع ذلك لم ييئس ولم يندم ، بل قال لرسول الله ﷺ : (أما والله مالمت نفسي في عداوتك) قال هذا وهو موقن أنه النبي الـذي يجدونه مكتوباً عندهم .. ولكن عصبيته اليهودية أعمت قلبه وأغشت بصره ، كما فعلت في نفس يهوذا الأسخريوطي ، فلم يعد يرى أو يحس إلا من خلالها . ذلك لما أوقع الأحبار في أخلادهم بأنهم شعب الله المختار ، فليس عليهم في الأميين سبيل ، وأنهم ورثـة ملكوت السماء ، فلن تمسهم النـار إلا أياماً معدودات . وغرهم في دينهم ماكانوا يفترون .

وإذا نحن تذكرنا هـذا كله لم نستبعد أن يكون المصلوب هـو يهـوذا الأسخريوطي اليهودي المتآمر على نبيّ الله عيسى .. وبالتالي لا نستغرب أن تصدر عنه مثل تلك العبارات التي أطلقها بين يدي الموت .

والمهم الذي انتهينا إليه هو أن الوثيقتين التاريخيتين قد شاء الله أن تظهرا في الوقت المناسب ، لتكونا شاهدي عدل على أن الانسان الذي بنيت عليه قصة الصلب والفداء وتأليه المسيح لا وجـود له إلا في أوهام المقلّدين ، الـذين لا يريدون مفارقة ماتوارثوه عن آبائهم الأولين ، ولو كانوا لا يعقلون شـيئاً ولا يهتدون .

---

(١) انظر كتاب المرحوم عبد الله التل و (الكنز المرصود) .

وأخيرا :

إن حديثاً كهذا في أسس النصرانية وآثارها لا بد أنه سيبعث في صدور البقية من أحرار العالم النصراني الكثير من التردد والتدبر • ويومئذ سيدركون حتماً الأسباب الكامنة وراء عجز هذا الدين عن تصحيح الوضع العالمي ، وإنقاذ الفرد المسيحي في الشرق والغرب من الضَّياع ، الذي بات يهدد الحضارة كلها بالتقويض ، والانسانية جميعها بالانهيار •

لقد واجه العالم الكنسي في عصر النهضة الأوروبية غلياناً انتهى برفع يد الكنيسة مطلقاً عن قيادة المجتمع ، ثم هدأت العاصفة قليلا بعد أن استرد العقل الغربي حريته في البحث والتعبير • ولكن الغليان لم يزل يكتسح تلك المجتمعات على مختلف الأشكال والمستويات • وليس انتشار الهيبية ، والغوصُ في وحول البهيمية ، والتفلت الثوري من حظيرة الإيمان ، إلا بعض الأدلة الحاسمة على أن هذا الدين البولسي قد استنفذ أغراضه ، وأثبت عجزه الكلي عن الاستجابة لهتاف الفطرة ، وتأمين إروائها ••

أجل •• لقد أفلست° نحلة بولس نهائياً حتى لم يعد في وسعها أن تقدم للنفس المسيحية التائهة أي بصيص مقنع يضيء لها الطريق إلى الأمن الروحي •• وقد آمن سدنتها بهذا الإفلاس ، فلم يعودوا يجرؤون حتى على إعلان الاستنكار لانحرافات شعوبهم وحكوماتهم نحو الفجور ، الذي أصبح محمياً بالتشريعات القانونية •

قبل عشر سنوات اضطر المجلس الكنسي الأعلى في بريطانية إلى الموافقة على تشريع برلماني يعتبر اللواط عملاً مشروعاً •• وفي هذه الأيام — بتاريخ ١٨ يناير ٩٧٤ — يصدر القاضي الاتحادي في ولاية (نيوهامب شير) الأميركية ، حكماً صريحاً بإعطاء الطلاب الجامعيين الحق في ممارسة عملية اللواط في منطقة

الجامعات ـ[1] وفي هذه الأثناء نفسها يصدر برلمان ألمانية الغربية قانوناً يبيح للرجال تبادل الزوجات[2] .

وفي استوكهولم ـ عاصمة السويد ـ أرقى دول شمال أوروبة ـ صدر مرسوم يبيح للأخ تزوج أخته[3] .

وفي السويد نفسها (استعانت إحدى المدارس بطبيب ذي اختصاص بأمراض النساء ، لتقديم مشورته بوسائل منع الحمل لطالبات المدرسة اللاتي في حدود الرابعة عشرة فأكثر ، وقد تقرر تعميم هذه الخدمة في عدة مدن أخرى من السويد)[4] .

وليس هذا كله سوى نماذج يسيرة للنكسات الخلقية التي توشك أن تدمر أركان المجتمع المسيحي ، بعد أن يئس هذا المجتمع من صلاحية الدين ، الذي عليه وحده يتوقف علاج الغرائز وتوازنها ومنعها من الانفجار .

وأي جدوى بقيت لدين يفتي بإباحة الفجور ، ولا يستطيع رجاله أن ينطقوا بكلمة في إنكار هذه الموبقات ، التي تسير بالحضارة كلها إلى الهاوية !..

ولعل قمة العجائب في دعاة هذه النصرانية المنبوذة في الغرب ، أن يتناسوا انهيار شعوبهم ، ويتجهوا بكل طاقاتهم لنشر هذه النصرانية نفسها في أوساط المسلمين ، كأنهم يتعمدون القضاء على كل أمل للبشرية باسترداد وعيها ، والخلاص من ظلماتها ..

ولا يقل عن ذلك غرابة موقف الاستعمار من هؤلاء المبشرين ، الذين يحتقرهم في بلاده ، ويمدهم بأنواع العون والتشجيع في بلاد المسلمين .

يقول الدكتور عبد الحليم محمود في كتابه (أوروبة والإسلام) إن المصريين

---

(١) انظر (الوعي الاسلامي) عدد ربيع الاول ٩٤ ص ١٥ .
(٢) مجلة الاعتصام .
(٣) جريدة هيرالدتريبون ٧٤/١/١٨ .
(٤) جريدة الحياة ٧٤/٣/٥ .

عندما أمموا قنـاة السويس وجـدوا في ميزانيتها السنوية ثلاثـة ملايين جنيه مرصودة لمعونة التبشير المسيحي في نطاق الشرق الأوسط •• أي في بلاد العرب•

وفي أحـد الأقطار الإفريقية جمـع الاستعمار ٣٥٠٠٠ طفـل وأسلمهم للمبشرين ينشئونهم على النصرانية المتعصبة ، حتى إذا غادر الاستعمار ذلك القطر وضع أزمته في أيدي هؤلاء الحاقدين على الإسلام •• الناشطين لهـدمه بكل ما أوتوا من قوة •• وفي السنغال وتشاد ونيجيرية أمثلة بارزة على هذا التدبير الشيطاني •

ويرى الدكتور أن أحـد وسائل المبشرين في حربهم للإسـلام استجرار الشباب المسلم للزواج بالأجنبيات ، اللواتي قلما ينسين أضغانهن على الإسلام ، فيعملن ليل نهـار على إنجـاب الجيل الـذي يحارب دين آبائه وهو يحمـل هُوِيَّتَهم •• وفي وسع كل ذي عينين أن يشهد في كل مكان من بلاد المسلمين نماذج لا تحصى من هؤلاء المستهينين بحقوق دينهم ووطنهم وأمتهم ــ وعواقب هذا الوضع الرهيب معروفة في تجربتنا بالأندلس ــ •

والمعركة بين الإسـلام والتعصب الصليبي لا تقف عنـد جهود المبشرين وأضاليلهم وحدها ، بل تتخذ صوراً وخططاً لا عداد لها ، لعل من أخطرها وأبرزها تحكم الأقلية النصرانية بالكثرة المسلمة ، أو استبعاد هذه الكثرة عن أزمة السلطة والمراكز الحساسة حتى في الوظائف الصغيرة أحياناً ، كما يحدثنا الدكتور عبـد الحليم محمود عن سائح مسلم حل أحد الفنادق في شهر رمضان ، وعند الغروب جاءه الخادم بالطعام وهو يقول له : إن أبي يصوم مثلك •• فسأله السائح : وهل أبوك مسلم ؟•• فأجاب : نعم وأنا تنصرت للحصول على هذه الوظيفة !••

فانظروا وفكروا أيها المسلمون إلى أي مدى بلغ التعصب الصليبي ضـد الإسلام •• وهذا لبنان العربي المدلّل ، على الرغم من أن المسلمين فيه يشكلون كثرة هامة ، ومع ذلك فليس لمسلم الحق في تنصب رئاسة الجمهورية ، ولا قيادة

الجيش ، ولا الطيران .. وليس لهم الحق حتى في تعطيل يوم الجمعة .. ورئاسة الوزارة المسماة لمسلم ، لا تزيد عن صورة خالية من الحياة ، لأن السلطة الفعلية لرئيس الجمهورية المسيحي ، وليس رئيس الوزارة المسلم سوى أداة لتنفيذ المخطط الذي تريده الكنيسة المارونية ، ومن ورائها الفاتيكان ، فكأن الشاعر لم يصف غير مسلمي لبنان بقوله :

ويُقضى الأمر حين تغيب تيم ولا يُستأمرون وهم شهودُ

ولنتصور الإجحاف الذي يعيشه مسلمو لبنان يكفي أن نذكر أن سجلات النفوس مفتوحة لكل مسلم يقبل أن يتنصر ، فضلاً عما يناله من مغريات لا حدّ لها . على حين أن المسيحي الذي يريد اعتناق الاسلام يحارَب حتى في رزقه وقد يفصل من وظيفته ، ولا يسمح له أبداً بإثبات إسلامه في سجلات الدولة .

وهناك عشرات الألوف من مسلمي الأكراد اتخذوا من لبنان موطناً لهم منذ عشرات السنين ومع ذلك لا حق لهم بتابعيته ، على حين يبذلها لمئات الألوف من أبناء النصارى الذين هاجروا إلى الأميركيتين قبل عشرات السنين ، وأصبحوا مواطنين أميركيين أصلاء .

وفي وادي خالد من أراضي البقاع اللبنانية عشرات الألوف تناسلوا هناك منذ مئات السنين ومع ذلك لا يسمح لهم بالجنسية اللبنانية لسبب واحد هو أنهم مسلمون ..

أجل .. ذلك هو واقع النصرانية : ماضيها وحاضرها ، وموقفها من الإسلام في كل مكان .. إنها تهاجم الإسلام في أعماق وطنه ، فلا تجد أي رادع ، بل تجد من بعض حكامهم ، كما هو الحال في أندنوسية والخليج ، كل أسباب العون ، حتى تسليمهم أفلاذ أكبادهم ينشئوهم على الأسس التي يريدها ويخطط لها دعاة الاستعمار والنصرانية ..

إنهم لا يتورعون عن استخدام أي وسيلة تبلغهم مأربهم من الإسلام ..

إنهم يركزون على الفتاة المسلمة ليعلموها كيف تنسلخ من أخلاق دينها ، ثم كيف تغير بنية البيت المسلم ، عندما تصبح ربة منزل وأم أولاد •• إنهم يدربونها منذ الطفولة على الاستهانة بالحشمة الإسلامية ، فتنخلع من زيها الوقور النبيل ، لتعرض مفاتنها على الأعين الأجنبية ، ليسهل عليها بعد ذلك أن تتجرد من كل القيم العليا التي زيّنها بها ربها ••

وكما أفسدوا المرأة المسلمة في معظم أقطار الإسلام ، أفسدوا الكثير من الشباب الذي ينتسب إلى الإسلام ، إذ اقتلعوا من قلبه اعتداده بشخصيته ، واعتزازه بمميزاته ، ليجعلوا منه مجموعة من القرود ، لا همّ لها إلا تقليد أولئك الضائعين المائعين ، في سراويلاتهم الفضفاضة من أسفل ، الضيقة من أعلى ، المنجرّة على الأرض •• وفي صورهم المزورة تحت الشعور النسائية ، والسوالف المستطيلة •• التي يثير منظرها الغثيان ، وهم راضون بهذا التشويه المزري ، لأنهم فقدوا الإحساس بكرامة الإنسان المسلم ، ولم يعودوا يفقهون قول ربهم في تكريمهم : (ومَن أحسنُ قولاً مما دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني مِن المسلمين !•) •

ذلك ما يقوم به العالم الصليبي في مواجهته للإسلام •• وإنه ليصب الملايين بين أيدي الدعاة الذين أعدهم لتهديمه ، فينطلق هؤلاء لتحقيق مهمتهم ، مستعينين بكل ما استحدثه العلم من مدارس ومعاهد وجامعات ومستشفيات ، وبكل ما ابتدعه أهواء الشياطين من تقاليع لا ترقب في الفضيلة إلاً ولا ذمةً •• لا يريدون من ذلك وهذا سوى تدمير البقية الباقية من حصون الإسلام ، وتحويل الجيل المسلم إلى سراب من الضائعين والضائعات ، الذين لا يصلحون لشيء خارج نطاق اللغو والعبث •

وإنه لتخطيط دقيق لا يبطل عمله إلا تخطيط أدق منه •• فأين هو تخطيط المسلمين لرد هذه الغارات عن دينهم ووجودهم !••

ماذا بذل أثرياء المسلمين من أجل نشر الإسلام في أوساط النصارى !••

وهل بوسع أحد أن يدلني على بعثة تبشيرية إسلامية واحـدة ، هجرت مستقرها لتنشر دين الله الحق في ديار الغرب ، الذي يجر وراءه مواكب البشرية ونحن معهم إلى الهاوية !..

إن الظلمات لكثيفة مطبقة ، ولكن قليلاً من الوعي ، والسعي لتدارك مافات جدير بتبديدها من سماء العالم الإسلامي .. فهـل نحن إلى وعينا عائدون !.. وبفضائل ديننا عاملون !.. ولإنقاذ الانسانية التائهة ناهضون !..

إن في آفاق العالم الإسلامي لتباشير تبعث الآمال .. والأمل أول طـريق العمل ، ولا ييئس من روح الله إلا القوم الكافرون .

والحمد لله رب العالمين ..

خطوات جديدة في طريق الحقيقة :

منذ إلقاء هذه المحاضرة ـــ ١٠/١/١٣٩٤ ـــ حدثت شؤون كثيرة تؤكـد ماذهبنا إليه من أن هذه النحلة البولسية قـد استنفدت أغراضها بالنسبة إلى مصلحة الإنسان .. وبخاصة في الغرب ، حيث أصبح التفلت من سلطان الدين نوعا من الظواهر العادية ، وانفصام الإنسان عن روح الدين مدعاة لسقوطه في امتحان الحياة ، إذ يصير عرضة لضروب التمزق النفسي ، حتى يفقد أخيراً كل أثر من الحصانة العقلية والروحية ..

بيد أن من حسنات هذا التطور ـــ وفي كل تطور حسنات وسيئات ـــ عودة انيقظة إلى قلوب طال استسلامها لخدر التقليد ، فراحت تعيد النظر في موروثاتها الدينية لترى الحقيقة التي شد ماجافتها وتعامت عنها .. ولعل في رأس هـذه الحسنات ذلك المؤلَّف الذي (كتبه سبعة من أبرز علماء اللاهوت في انكلترا ، ومن أبرزهم أستاذ في جامعة اوكسفورد هو الأستاذ موريس وايس ، وزميله مستر دينيس ناينهام ، ونشر بعنوان (أسطورة تجسيد الاله) .

تقول المجلة العربية في تعريف هذا الكتاب •

(هذا الكتاب تحدثت عنه صحيفة « درستبيغل » الألمانية ، وقالت : إن نسخه نفدت كلها في لحظات ، ثم أعيد طبعه •• وقد أثار صدوره ضجة كبيرة في الأوساط الكنسية والدينية في بريطانيا العظمى وخارجها، لأنه يقيم البراهين على أن عيسى بن مريم (ع) ليس ابن الرب ، وإنما هو بشر كبقية البشر ، ولكن الله عز وجل كرمه وميزه عنهم ••) وتقول المجلة الألمانية عن عمل المؤلفين لهذا الكتاب انهم استعانوا (في تأييد نظريتهم بالبحوث العصرية التي تناولت محتويات الأناجيل ، فقد ثبت لعدد كبير من الخبراء والعلماء أن السيد المسيح لم يقل في حياته إطلاقا أنه الرب أو ابن الرب •• وهذا اللقب وغيره مثل (ابن الشر) و (ابن داوود) انما أضفي عليه من قبل أنصاره وأتباعه الذين أرادوا بهذه اللغة الشعرية والميتولوجية أن يفسروا كم كان هذا الإنسان خارقاً وفوق العادة ، وخصوصا كم كان تأثيره كبيرا على الآخرين •••) إلى أن تقول : (إن الألقاب التي أطلقها النصارى الأوائل على عيسى بن مريم (ع) ليست ابتكاراً ابتكروه ، وإنما اقتبست من الحضارات اليهودية واليونانية والرومانية في ذلك العصر •• ذلك أن العالم الوثني لم يكن يستنكر أن يأخذ الرب شكل انسان •• بل إن المثقفين منهم كانوا يعتقدون أن اسكندر الكبير المقدوني ، وكذلك أباطرة الرومان ، ينحدرون من سلالة الآلهة ••• ولكن ماكان يبدو مقبولا وطبيعيا ومسلّما به في تلك الحضارات وفي تلك الأزمنة لم يعد مسلما به في عالم القرن العشرين ولذلك •• إن اتخاذ الرب شكل انسان ••• يبدو الآن لمعظم معاصرينا غير معقول ولا مقبول ••)[1]

وبعض هذا القول كان ــ من قبل ــ كافيا للحكم على صاحبه بالموت حرقاً ، أما اليوم فيجري على ألسنة كبار من علماء اللاهوت أنفسهم دون أن يجدوا

---

(١) انظر ص ١٥ من المجلة العربية عدد ــ ٤ ــ من السنة ــ ٢ ــ •

في ذلك حرجا ، بل إن الجماهير لتتلقف أقوالهم هذه بلهفة تنم عما في صدورهم من شكوك في ماكانوا عليه • والمجلة حين تشير إلى استعانة المؤلفين السبعة بالبحوث العصرية لتأييد نظرتهم ، إنما تشير إلى أن ثمة حركة فكرية تثور حول هذا الموضوع • وتكتتب فيها البحوث الكثيرة •• وكذلك قول بعضهم عن السبب في إسباغهم على السيد المسيح تلك الألقاب (الميتولوجية) بأنه عائد إلى غلو الأتباع والأنصار في شخصيته (ع) وإلى شيوع النظريات الوثنية التي لا تستنكر إعطاء الأشخاص الممتازين الصفات الالهية ••• كما فعلوا مع الإسكندر والفراعنة وأباطرة الرومان والفرس واليابان وعلي ابن أبي طالب •• وكما فعل الهندوك في هذه الأيام حين رفعوا غاندي إلى مقامات الأساطير ، بسبب مايرونه من رياضاته النفسية التي ميزته عن كبار رجالات عصره ••

وأنه لَلتَّعليلُ الصحيحُ لكل ضروب الغلو التي تخرج الإنسان المميز عن نطاق الإنسانية إلى عالم الأوهام التي ترفضها الأفهام والأحلام •• وإنها لخطوة في طريق الحقيقة ، التي تتطلع إليها الضمائر ، ستعقبها خطوات وخطوات لا تتوقف إن شاء الله حتى تكتسح أنوارها أسداف الظلمات ••••• وليس ذلك على الله بعزيز •

* * *

الرسالة الإسلامية

في مواجهة الفساد العالمي قديماً وحديثاً

قدم الى المؤتمر الثالث (للسيرة النبوية) في الدوحة .

الحمد لله ، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ومصطفاه محمد رسول الله ، المبعوث رحمة للعالمين ، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين •

مقدمة البحث

العالم قبل البعثة النبوية :

لكي نتحدث عن أثر الرسالة الإسلامية ، في مسيرة الحياة البشرية على اختلاف جوانبها ، لا بد لنا من رصد دقيق لواقع هذه الحياة قبل إطلالة الفجر المحمدي •• ولو أتيح للمفكر المدقق أن يطالع أكداس الأسفار ، التي كتبت عن تلك الفترة ، وأن يستنطق ركام الآثار التي خلفتها الشعوب ، معبرة عن أوضاعها وأوجاعها ، لما بلغ ذلك إلا لمحةً يسيرةً مما انطوى عليه قوله سبحانه في وصف ذلك الواقع : (ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ، ليذيقهم بعض الذي عملوا ، لعلهم يرجعون / ٣٠/٤١) •

ففي هذا الإطار المحدود من البيان الإلهي صور غير محدودة من الخراب الذي صارت إليه أحوال المجتمعات البشرية حتى ذلك العهد ، وهي معروضة في أربعة معالم كل منها مرتبط بما سبقه أو وَليَه ، ارتباط السبب بمسببه أو المسبب بسببه •

فها هنا فساد عام يكتسح تلك المجتمعات في كل مكان من هذه البسيطة ، يتساوى في ذلك سكان البر وجزائر البحار • وفي كلمة (الفساد) إيحاء تام بانقلاب الأوضاع ، إذ كل شيء في هذا الوجود قائم على الكون والفساد ، وهو أشد مايكون ظهوراً في التجمع البشري ، حيث تتجلى نتائج سلوكه في النماء أو الانحلال • فكلما كان ذلك التجمع أشد تماسكا وأكثر التزاما للتعاون الصحيح ،

كان نصيبه من الأمن والازدهار أتم وأكمل ، فإذا زاغ عن هذا الطريق اضطربت مسيرته ، وتعرضت سلامته للخطر ، كشأن الخلية الحية التي ضربهـا السرطان فاختل نظامها ، وبات كل نمو فيها يشكل تهديداً جديداً للحياة •

أما كيف حدث هذا الفساد ومن أين جاء ؟••• فهو حصيلة التحرك البشري الخاطىء •• إنه ثمرة انحراف الناس عن الخط السوي إلى مزالق الغي والبغي ، فكان من حق العدالة أن تنزل بهم العقوبة المناسبة ••

ومن ذلك لم تتخل عنهم رحمة الله حتى في موقف العقاب هذا ، ذلك أنهـا لم تذقهم إلا بعض الذي عملوا لا كلّه ، ثم إن العقاب نفسه لا يراد به إلا مجرد التأديب والتنبيه ، لعلهم يثوبون إلى ما عزب من وعيهم ، فيرجعون إلى التي هي أحسن بهم ، وأجدى عليهم ، وأهدى لهم •

وفي الحديث الصحيح الذي أخرجه مسلم وأحمـد يقول ﷺ : (إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم ، عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب ••) وهو توكيد لمضمون الآيـة الكريمة عن انتشار ذلك الفساد ، الـذي شمل العرب والعجم ، ـ وليس في ذرية آدم إلا العرب والعجم ـ وفيه مزيد من التفصيل عن مقت الله سبحانه لكل من على ظهر الارض ، لا يستثني من مقته إلا عدداً قليلاً من أهل الكتاب • ولعل في وصفهم بـ (البقايا) إشـارة إلى تناثرهم في أمكنة متباعدة • وقد رأينا هؤلاء البقايا في ماعرضته كتب السيرة من حديث عن الحبر اليهودي الصالح ابن الهيَّبان ، والقسس الذين لقيهم سلمان رضي الله عنه خلال تطوافه في رحلة البحث عن الحق ، إذ كان كل منهم إذا أشرف على الموت يوجهه إلى واحد لا يعرف غيره على مثل ماهو عليه ، حتى انتهى إلى قس عمورية الذي أشعره بانتهاء هذا الفوج من رجال الله ، ولكنه بشره باقتراب زمن النبي الخاتم ، ونصحه بشد الرحال إليه بعد أن حدد له مكان بعثته وهجرته ••

وقد وصف فضيلة الشيخ أبي الحسن الندوي في كتابه (ماذا خسر العالم

بانحطاط المسلمين) حال ذلك العالم آنئذ ، فشبهه ببناء أصيب بزلزال قلب أوضاعه ، فإذا كل شيء هناك في غير محله ، وإذا الفساد قد عم ناسه جميعاً ، إذ فسدت عقولهم ، ونظام تفكيرهم ، واختل ذوقهم وإحساسهم ، فهم يسجدون للشجر والحجر ، ويخضعون لأنظمة جائرة جعلت من الذئب راعياً ، ومن الخصم قاضياً ، ومن المجرم سيداً حظيا ، ومن الصالح محروماً شقياً •• وقد امتلأت كتب التاريخ بصور هذا الاختلال البشري الشامل لكل دولة ومدينة في ذلك العالم المقلوب ، من أدنى الارض إلى أقصى الصين •• ومع أن العرب أقرب الناس إلى سلامة الفطرة قبيل البعثة النبوية فقد كانوا يعيشون في جحيم من الرعب لا نهاية له ، ذلك لأن قسوة البادية ، وضنك العيش ، وضغط النظام القبلي كل أولئك كان يزج بهم في حروب مستأصلة ، يقتل فيها الأخ أخاه ، ويتعاون الأنسباء على البعداء ، فما تكاد تجف الدماء ، ولا تفتر حملات الثأر وما وراء ذلك من شقاء وشحناء • وقد أطبقت الظلمات على أفكار الناس ، فلا يستهدفون أملاً ، ولا يهتدون سبيلاً •• إلا خيوطا من أضواء يرسلها بعض الشعراء والخطباء والحنفاء في حِكَمٍ بتراء لا تعدو كونها تعبيراً عن حاجة الفطرة إلى نور لا تعرف من أين ينبثق ••

وقد كان الواجب يتطلب من أهل الكتابين أن ينهضوا بعبء الإرشاد والإصلاح ، ولكن الواقع خيَّبَ هذا الرجاء لأن الأحبار والرهبان كانوا أبعد الناس عن الاتجاه الصحيح ، فزادوا مساحة البلاء على العامة بوقوفهم وراء الطواغيت ، ولا سيما في مصر والشام ، حيث طورد دعاة التوحيد ، وفرضت الدولة الرومانية فلسفتها الوثنية على رعاياها المسيحيين •• ومن أجل ذلك صبت ألوان التعذيب على كل مخالف لتقاليدها الوثنية من ذوي العقيدة السليمة في المسيح عليه السلام ••

وهكذا طغت سيول البلاء على الأرض ، فالناس في كل مكان مدفوعون في منحدرات الشقاء ، لا يملكون القدرة على التماسك ، لأنهم أصبحوا مقطوعي

الصلة بهداية الخالق •• فكل خطوة ينقلونها تزيدهم بعداً عن ساحل النجاة. وقرباً من النهاية • وقد ضاعف الخطرَ فسادُ التصور البشري ، إذ بات العقل الانساني مقيداً بأحكام البيئات وسلطان العادات ، فلا سبيل للخلاف عن طريقه ، بل لا أمل بالخلاص إلا بمعجزة إلهية توقظ الضمير البشري من غلوته وتضيء للعقل الحائر طريق الحق ليسلكه على بصيرة •

ولا جرم أن وضعاً كهذا تتكاثف فيه الظلمات ، حتى لا يلمح امرؤ يده من خلالها ، لا ينتظر أن تنشأ فيه حضارة انسانية تأخذ بيد المجموعة البشرية في الطريق الآمن •• وإنما هي تراكمات متباينة من تجارب عرضت للأجيال خلال رحلتها الحائرة ، التي لم تستهدف غرضاً خارج حدود المنفعة العابرة • ومن هنا كان على الاسلام إنشاء النموذج الكامل للحضارة الربانية ، التي أطلت بالانسانية كلها على تاريخها الموحد الجديد •

وعلى ضوء هذه الحقيقة سنتحدث عن أثر الرسالة الإسلامية في بنيان الحضارة ، التي استهدفت منذ يومها الأول إعادة الانسان إلى حقيقته السلبية ، فكان عليها أن تجابه أشرس التحديات ، التي تريد لهذا الانسان أن يظل أبداً في غمرات الضياع ••

الانسان في ميزان الإسـلام :

عندما يراد الحديث عن (الحضارة) يتبادر إلى الأذهان ذلك البناء الهائل الذي يتضمن مجموع الإنجازات البشرية خلال التاريخ •• تلك الإنجازات التي تصور مراحل التطور الفكري للانسان منذ بدأ وجوده على هذه الأرض •

وحسب مواقع المجموعات البشرية من الأرض تتفاوت مركبات هذه الحضارة ، بحيث يكون لكل واحدة خصائصها المميزة إلى جانب العناصر المشتركة بينها جميعا •

وعلى ضوء هذه الكلية يمكننا أن نتبين بوضوح موقف الإسلام من الحضارة العامة ، ونوع الحضارة التي تنتمي إليه بخاصة •

وطبيعي أن يبدأ ذلك من منطلق القيمة الأساسية للانسان بالنسبة إلى الكون والحياة والأشياء والأعمال .

وأول ما يواجهنا من هذا الجانب ذلك الامتياز الذي أسبغه الله على جنس الانسان ممثلاً بأصله الأول ، حين خلقه بيديه ، ونفخ فيه من روحه ، وكرمه بإسجاد الملائكة له ، ثم أهبطه إلى الأرض مزوداً بخاصية المعرفة ، ومشحوناً بالأشواق القدسية إلى موطنه الأعلى ، الذي منه خرج بوسوسة العدو ، الذي حسده على امتيازاته ، فآلى ليغوينه وذريته أجمعين . فهو منذ اللحظة التي وطىء بها وجه هذه البسيطة قد أوتي العلم بأن مهمته الكبرى هي تشييد ملكوت الله ، والانتصار على عدو الله ، لتتاح له العودة إلى جنته الموعودة .

وقد أتم الله نعمته على هذا الجنس ، فلم يدعه لنفسه يتخبط في مهامه الحياة بغير دليل ، بل بشره وحذره منذ يومه الأول ، إذ وجهه إلى المخطط الذي يعصمه من الزيغ والزلل ، وذلك بقوله الحق : (فإما يأتينكم مني هدى ، فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا / طه ١٢٣ ــ ١٢٤) .

ومن ثم مضت قافلة البشرية في شعاب الحياة ، فكان من طبيعة الأشياء أن تختلف بها الخطا ، فيثبت على السبيل السوي من حفظ على نفسه الوعي لذلك المخطط ، فظل معتصماً به فسلم وسعد ، وغلب الشيطان على الغافلين فأقصاهم عن ساحة النور إلى مستنقعات الظلام .. ولما آذن الفجر المحمدي بالإطلال كانت الأرض كلها كما وصفها رب العزة بقوله سبحانه : (ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ، ليذيقهم بعض الذي عملوا ، لعلهم يرجعون / الروم ٤١) فلم يبقَ ثمة آثار من النور الذي حمله رسل الله إلى عباده ، خلال القرون ، إذ جرف الفساد سكان الجزر وأهل اليابسة دون استثناء بسبب انحرافهم عن سبيل الهدى ، واستسلامهم لأهوائهم بعيداً عن وحي الله ، وبذلك كانت بعثة محمد ﷺ أكبر حدث في تاريخ البشرية ، لأنها كانت منطلق الضوء الجديد الذي

رحم الله به عباده ، فأبان لهم الطريق القويم الذي بعد به عهد القطيع التائه ..

ومن هنا كان المسلم هو الوارث لرسالات الله ، وهو الرائد الذي كلف مهمة القيادة لإنقاذ العالم من قبضة الطواغيت ، الذين لم يراعوا في الانسانيـة إلا ولا ذمة .

ومع تصرفات الرعيل الأول من تلاميذ هذه البعثة المباركة انطلقت تباشير الحضارة الصحيحة ، التي جاءت انموذجا كاملاً للغاية التي حددها كتاب الله في قوله المبين لرسوله الأمين ﷺ (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ٢١/١٠٧) .

وإنما كانت حضارة الإسلام هي الحضارة الصحيحة لنهوضها على قواعد الربانية التي تربط نفس المؤمن بمصدرها الأسمى ، فتمنحه بصيرة خاصة يرى الكون كله من خلالها وحدة متكاملة ، كل جزء منها يعمل مع غيره لإبراز عظمة الله وحكمته ورعايته ..

وفي نطاق هذه الرؤية يتحرك المؤمن للإسهام مع مجموع الكون في ضبط مسيرة الحياة ، ضمن حـدود النظام الأفضل الذي به وحـده تشرق الأرض بنور ربها ..

عقيدة وسلوك ونظام :

ذلك لأن لحضارة المسلم أبعادها الثلاثة ، فهي أولاً عقيدة تتمثل في عبادة الله وحده ، واعتبار كل شيء من علوي الوجود وسفليه مخلوقاً مثله لهذه العبادة الخاصة الخالصة ، ثم سلوك نظيف ينبثق من هذه العقيدة المضيئة فلا يفارقها قيد شعرة أثناء رحلته الدنيوية كلها ، حتى إذا مسه طائف من الشيطان ، فزاغ به لحظة عن سواء السبيل ، لا يلبث أن يتذكر فيستعيد مكانه مـن الموكب المبارك .

ثم ذلك النظام الذي لم تنقطع مؤشرات هدايته عن الانسان منذ قذف به

إلى هذه الأرض •• فهو منه أبداً على بينة من الطريق والهدف والعمل ، فلا يضل ولا يشقى ما اعتصم بحبله ••

وبقليل من التأمل يدرك المفكر أن انسانا من هذا الطراز سيكون من مميزاته الكبرى إسباغه خاصة العبادة على كل عمل يقدم عليه ، فإذا أسلم الآخرون أزمتهم للمصادفات تعصف بهم ذات اليمين وذات الشمال ظل هذا الانسان المختار مسلماً وجهه إلى ربه ، ملتزما معالم المنهج الذي لم يغادر صغيرة ولا كبيرة من المشكلات إلا وضع لها حلاً خاصا ، أو مندرجاً تحت قاعدة عامة ••

وإذن فلا انفصام لدى هذا المسلم بين سلوكه الروحي ، الذي يستهدف تحقيق الكمالات الخلقية ، وسلوكه المادي الذي يفرضه يقينه الحتم بأن الله قد سخر له مافي السموات والأرض ، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة ، فمنحه بذلك القدرة على الإبداع والإتقان والعطاء الذي يجمل الحياة ويوفر الهناءة لسائر الأحياء ••

ومن هنا كانت منجزات هذا الانسان صادرة بأسرها عن منطقة الوعي ، الذي حدد مهمته بأنها إنشاء الكيان الأمثل ، الجامع بين أنواع الفضائل دون تحديد ، ومن أجل ذلك كان المسلم ، في كل زمان ومكان رسول هداية ، وباني حضارة ، وداعية سلام ورحمة ، يأمر بالمعروف ، الذي تتطلع إليه الفطر السليمة ، وينهى عن المنكر ، الذي به تفسد الحياة ، وتتفكك عرى الانسانية ••

الإسلام هو الحضارة :

ولقد رأينا بعض المفكرين المحدثين يفصلون بين الحضارة والمدنية ، فيعتبرون من أشياء الحضارة كل ما يتصل بالفنون والآداب والدين والفلسفة ، وما إلى ذلك مما يسمونه اليوم بالعلوم الانسانية ، لاقتصارها على الجانب المتصل بالنفس الانسانية فرداً وجماعة •• ويجعلون الجانب الخاص بالصناعات

والرياضيات والكيمياء والفيزياء والكهرباء ، وما إليهن من العلوم الباحثة في أسرار المادة من متعلقات المدنية .

وعلى أساس هذا التقسيم يفرقون بين ما ينبغي أخذه وما ينبغي تركه من منجزات الثقافة الغربية .. الغربية مطلقاً سواء كانت غربية أو شرقية ، كتابية أو وثنية .. فالحضارة الغربية هذه في ضوء هذا التفكير من الأمور التي لا يجوز أن يسمح لها بالتسلل إلى وجود المسلم ، لأنها حصالة مواريث عقلية واجتماعية تحدرت إلى أصحابها من مئات الروافد الخاصة ، وقد تفاعلت معها خلال التاريخ حتى كونت منهجاً سلوكياً يفصلها عن سائر الجماعات ، ولا يقبل امتزاجاً مع أي منهج لأي أمة أخرى لا تشاركها في هذه المواريث .

أما المدنية ، فلتعلقها بالجانب المادي الصرف ، تعتبر بنظر هؤلاء المفكرين عنصراً حيادياً لا سلطان له على السلوك الاجتماعي ، إلا في حدود ضيقة وسطحية ، ليس من شأنها أن تمس الخصائص الذاتية للأمة ، أو تغير من تكوينها الفكري والتصوري .

والحق أن في هذا التقييم الواقعي لَحَظّاً كبيراً من الحقيقة ، ندرك أهميته من خلال معايشتنا للاحتكاك القائم بين تيارات الانسانيات المقتحمة على العالم الإسلامي من هنا وهناك ، وبين مواريثه الروحية التي بدأت تترنح في صدور الكثيرين تحت ضغط هذا الغازي ، الذي فاجأه على حين غفلة وعلى غير استعداد ..

بيد أن الشخصية الإسلامية الثابتة أبداً في وجه الأعاصير لا تقبل التفرقة بين الحضارة والمدنية ، كما هو الشأن في الثقافات الدينية الأخرى ، حيث يسمح للانحدار الخلقي أن ينتشر ويستبحر بجانب (الطقوس) الروحية التي استحالت رموزاً خالية من كل أثر فعلي .. ذلك لأن وحدة الحياة والانسان والكون ، في ضوء الرؤية الإسلامية ، تجعل كل عمل سواء كان خلقياً أو صناعياً موجهاً إلى

تحقيق المثل الأعلى •• فليس في مجتمع الإسلام فصام ذاتي ، ولا تمييز عنصري، ولا سياسة ذات وجهين ومكيالين ، ولا علم مسخر لمصلحة شعب دون آخر •• فهو لأصحابه قوة واستعلاء ، ولغيرهم إذلال واستغلال •• بل هو الإسلام الذي لا يفرق في عدالته بين العدو والصديق ، ولا يخص بنور العلم قريباً دون بعيد ، لأن تقييمه قائم على أنه الوسيلة إلى مرضاة الله ، وأن مهمة أولي العلم من أهله دائماً وأبداً توسيع دائرة النور من جهة ، وتصحيح مسار الناس من حولهم ، وبأقصى مايستطيعون ، من جهة أخرى ابتغاء التحقق بالخير الذي وصف الله به العالمين العاملين في قوله الكريم (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتو العلم درجات ـ ٥٨/١١) •

وبهذه الخصائص المتفردة المتكاملة كان (الإسلام هو الحضارة) كما يقرر الشهيد سيد قطب (رحمه الله) ولا مندوحة من قبول هذا التقرير إذا أيقنا أن الهدف الأقصى من الحضارة هو تعاون المواهب البشرية لبناء المجتمع الأسعد والأطهر •

ولكي تتضح هذه الصورة أكثر فأكثر نتذكر أن مفهوم الآخرين للحضارة لا يتجاوز مجموع الإنجازات التي حققتها الأجناس البشرية على مر العصور ، دون تفريق بين الموافق منها لمصلحة الانسان والمناقض ، فكان حصيلة ذلك الضياع أن استحالت تلك الإنجازات إلى ركام هائل من التناقضات ، يختلط فيها الخير بالشر ، والسم بالترياق ، لأنها في منطلقاتها الأولى لم تتصل بالضمير المؤمن ، فلم تقم وزناً لصالح الجماعة البشرية ، وإنما نتجت عن خبرات مرتجلة كان الدافع إليها تحقيق المنفعة العابرة لفرد أو رهط ، دون اعتبار لما وراءهم وهكذا صار الأمر بهذه الخبرات إلى التصادم المستمر ، ومن ثم إلى الصراع خلال مجموعات الناس ، فبدلاً من أن تقارب بين الواحدة والأخرى ، إذا هي تبالغ في تمزيقها ، وتسرف في المباعدة بين أجزائها •

إنها الصورة المكثفة للحضارات التي أنتجتها التجارب البشرية عبر القرون

المتطاولة ، في معزل عن النور الإلهي ، الذي أكرم الله به الانسان ، فأقام له الصوى في الطريق الذي لا يضل سالكه .

ونظرة واعية إلى واقع الحياة البشرية الراهنة تكشف لنا هول الشقاء الذي تعانيه في ظل هذه التجارب العمياء ، التي أحالت الوجود ساحة عراك شيطاني ، يأكل فيها القوي الضعيف ، ويمزق الضعيف الأكثر ضعفاً ويترقب كل فريق غفلة الفريق الآخر ليجعله أثراً بعد عين .. ويحشد الجزء الأكبر من ثروات الأرض ، ومبتدعات العلوم للتسابق في حلبات التدمير والتخريب ونشر الرعب ، حتى لم يعد في الأرض على رحبها ملجأ لانسان يريد الأمن والعافية ..

ربانية وترابية :

أجل .. إن في ركام هذه المخلفات الهائلة لبروقاً من الخير تنطلق خلال الظلمات ، فتذكر الانسان بما غفل عنه من حقيقته ، إلا أنها لا تلبث أن تنطفىء فيعود الظلام أشد ثقلاً .. فبلاغات عن حقوق الانسان ، وملاجىء للعجزة والأيتام ، ومدارس وجامعات ، ويوم للأم وآخر للطفل .. ومالا يحصى من مظاهر الإحسان ..

ومع أنها لا تعدو كونها بقايا لمعات من فضائل الرسالات الإلهية ، فهي شهادات ناطقة بفضائح هذه الحضارة . ذلك لأن اعترافها بحقوق الانسان لم يكن سوى رد فعل لحرمان الانسان في ظلها كل حق ، وليست ملاجىء العجزة إلا صورا كئيبة لانهيار الأسرة في كنفها ، حتى لا يجد الوالدان العاجزان لدى أبنائهما مجالاً للرحمة والرعاية ، فتقوم الدولة بإيوائهما كما تقوم برعاية الحيوان عندما يصير إلى الوهن .. وربما انقطعت الصلة بينهما وبين أهليهما بمجرد نقلهما إلى الملجأ ، فلا يلتقون بعد ذلك إلا في حفلة الدفن ..

أما مأساة الأيتام في عهدة هذه الحضارة فأهول وأشنع .. ذلك أنها أطلقت عقال الشهوات حتى امتلأت الأرض بالفجور ، ومن ثم باللقطاء الذين

لم يذوقوا رائحة الأبوة قط ، فكان على الدولة ، التي أقرت التشرد ، أن تقوم بمسؤولياتها في إيواء ثمراته وتغذيتهم وتعليمهم ، بعد أن حرمتهم حقهم من حنان البيت[1] .

وما الداعي للاحتفال بيوم الأم لو كان للأم الولد الذي يحوطها ببره وتقديره .. على طريقة المسلمين الذين يؤمنون بأن الجنة تحت أقدام الأمهات ..

والطفل .. أليس مجرد تخصيصه بيوم واحد للرعاية دليلاً جازماً على أنه كان محروماً منسياً من كل ذلك طوال العام !..

ونظرة إلى واقع الدراسة العلمانية في مراحل التعليم جميعها تكشف الخلل الرهيب الذي تقوم عليه بالنسبة إلى نفس الانسان وعقله .. إنها تمزق الوشيجة الطبيعية التي تصل فطرة الانسان بخالقها ، ثم تلقي في روعه أنه ليس سوى لبنة في بناء ، أو سناً في آلة ، فليس له من دنياه إلا مايطفىء شهوته ، أو يحقق متعته، وعلى الدنيا والناس كلهم بعد ذلك العفاء .

وأين جامعات هذه الحضارة من كرامة العلم التي يتمثلها المسلم وهو يقرأ قول ربه عز وجل : (إنما يخشى الله من عباده العلماء ٣٥/٢٨) أو يتأمل في قول الرسول الأعظم ﷺ (تعلموا العلم وتعلموا له السكينة والوقار)[2] و (فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد)[3] .

ولا غرابة أن يختلف المفهومان بإزاء العلم ، حتى يكون في أحدهما وسيلة الدارس إلى جيفة يغالب عليها الذئاب ، على حين هي في الثاني المصباح الذي يهتدي به ويهدي ، فهو إنما يطلبه لاستكمال إنسانيته ، وللسمو بطينته إلى منازل الملأ الأعلى من ذوي الحكمة والمعرفة كما عرضها الشاعر المؤمن في هذه الصور الأخاذة :

---

(١) في ص ٢٧ من العدد ٤٣٣ من مجلة المجتمع مايلي (١١٠ آلاف امرأة في بريطانية خضعن العام الماضي لعمليات اجهاض قانوني وغير قانوني . وفي بريطانية ٦٠٠ الف طفل لا آباء لهم) .

(٢) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ص ١٢٥ ج ١ .

(٣) المصدر نفسه ص ٢٦ ج ١ .

هــذب النفس بالعلوم لترقى وترى الكل ، فهي للكل بيت
إنما النفس كالزجاجة والعقـ ...... ل سراج ، وحكمــة الله زيت
فــإذا أشــرقت فــإنك حي وإذا أظلمــت فــإنك ميت

فلا مسوغ للخلاف إذن على أن الفرق بين حضارتنا الربانية وحضارتهم الترابية هو الفرق بين أحوال الأحياء وأحوال الموتى .. وعبثاً يراد من هــذه الارتفاع إلى مستوى تلك إلا أن تدب الحياة في أوصال الأموات ، فينظروا إلى الواقع ببصر جديد جديد . (أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس ، كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ؟.. ــ ٦/١٢٢) .

وما أدري كيف قفزت إلى ذهني هنا صورة الانسان الأول وقد أكملت يد البارىء الحكيم تصويره ولكنه لم يزل تمثالاً من الطين ، حتى شــاء الله تمام الفضل عليه فنفخ فيه من روحه ، فإذا هو آدم دماً ولحماً ونطقاً وفكراً وخيالاً وتأملاً .. وطاقات لا محصي لها إلا مبدعها من العدم سبحانه .. وتتداعى مع هذا المشهد صور الحضارة الترابية ، وقد حشدت إنجازاتها ومركباتها الهائلة ، فإذا هي تمثال يهول ويروع ، ولكنه ميت لا حياة فيه ، وسيظل كــذلك حتى ينفخ الإســلام من روحه ، فينتفض ليتخلص من قيود الموت ، ومن ثم يتحرك في طريق النــور ، ليكون كشأن حضارتنا القرآنيــة هدى ورحمة وسلامــاً للعالمين ..

فبالإسلام إذن يمكن لهذه الحضارة المخربة للانسان أن تتحول إلى البناء الحق .. أما أن تنقلب الأفهام ، حتى يسمح لسموم هذه التركيبة المرتجلة أن تتسرب إلى مجتمع الإسلام ، فتلك هي المحنة التي تهدد الانسانية كلها بالدمار ، لأن ذلك سيبطل يومئذ عمل الحضارة الإسلامية في الشهادة والهيمنة والتصحيح العالمي .

في الخبر الذي أخرجه الدارمي عن رسول الله ﷺ أنه خط خطاً ثم قال : هذا سبيل الله ثم خط خطوطا عن يمينه وعن شماله ، ثم قال : هذه سبل على كل

سبيل شيطان يدعو إليه • ثم تلا (وإن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتَفَرَقَ بكم عن سبيله) •

وفي هذا التمثيل تصوير محكم لالتزام المؤمن طريقه العاصم من الزيغ حين تشتبه على الناس المسالك ، وتضطرب بهم الأهواء ، فيكون هو الوحيد المطمئن إلى موقفه • وقد أدرك الرعيل الأول هذه الحقيقة فاستعصم بها ، فذللت لهم كل عصي ، ومكنت لهم من أزمة العلم والحكم ، فأثبتوا أنهم خير أمة أخرجت للناس •• ثم خلف من بعدهم خَلْف فرطوا بأمانة الله ، واستهوتهم موبقات الشعوب المنحلة فشغلوا بها عن رسالتهم ، فإذا هم نهب لكل طامع ، وغرض لكل رام ، قد شردهم العدو كل مشرَّد ، فانتزع منهم أوطانهم ، ورد من استطاع منهم عن دينه •• وبدلاً من أن يتعظ اللاحقون بالسابقين ، فيتجنبوا مسلكهم ، ويثوبوا إلى سبيل الله ، ويعتصموا بمنهج رسول الله ، إذا هم ــ إلا من رحم الله ــ يوغلون في التيه ، فيتوزعون بين عدو من الشرق وغاز من الغرب ، ويجربون كل خطة تجلى إخفاقها ، إلا خطة العودة إلى الله •• ولا حول ولا قوة إلا بالله ••

معركة تتجدد :

مع مطلع الهجمة الاستعمارية ، قبل قرن ونصف ، تجددت المعركة بين هذه التيارات الوافدة وبقايا القيم ، التي استطاع العالم الإسلامي الاحتفاظ بها ، على الرغم من مئات الكوارث والهزائم والزلازل ••

وقد تفاوت أثر هذه الهجمة قوة وضعفاً وقرباً وعمقاً في أبعاد الشخصية الإسلامية •• فمن ذهول أخل بموازين التفكير لفترة طالت في بعض الأنحاء ، وقصرت في بعضها الآخر إلى إفاقة ردت إليها بعض الوعي ، فجعلت تقارن بين ما ترى وما تحس ، إلى يقظة توشك أن تثبت وجودها تلقاء الهجمات الجديدة التي يشنها عليها فريق من الشباب المضيع ، يتكلم لغة المسلمين ، وينتسب إلى معدنهم ، ولكن التربية الغربية ، التي نشأ عليها في محاصن أعداء الإسلام ، قد

جعلته يمرق منه كما يمرق السهم من الرمية ، فهو يؤمن بكل ما هو مخالف لتراث أمته ، ويسخر بكل عريق من فضائلها ، وينكر عليها كل حق في أي من ميادين الحياة .. وقد وزعه موجهوه على مختلف الجبهات من حلبات المعركة ، ودفعوا به إلى قمم الحكم ، حتى بات هو الذي يوجه دفة الحياة في عالم الإسلام ، فلا يقبل منه مادون التخلي عن قيمه الربانية جميعاً ..

وقد وصفتُ هذه المعركة بالتجدد لا البدء ، لأن الغزو الفكري للعقل الإسلامي قد بدأ فعلا منذ مطلع النصف الثاني من القرن الهجري الأول ، وكان ذلك عن طريق الدعوة السيئة ، التي دست في أخلاد الغوغاء فكرة تأليه الانسان ممثلاً في شخص الخليفة الرابع ، الذي قابل هذه الثائرة بما تستحقه من القسوة .. ثم ما لبث الفتح الإسلامي لبلاد فارس أن أطلق شرارة الاحتكاك بالأفكار المجوسية الفارسية ، وما اتصل بها من مؤثرات الوثنية الهندية ، فإذا هناك أفاقون لم يرضهم بقاء الوحي على صفائه ، فشرعوا في محاولاتهم تعكيره بما أثاروه من شبهات في قلوب الجهلة من الأعراب وأشباه الأعراب .. وسرعان ما اتسع هذا الفتق إذ وجد من يقول بالرجعة ويستبدل بفكرة البعث إيماناً بالتناسخ الذي تزعمه الوثنيات الهندية .. ثم مضت الفتن في طريقها يؤججها الحقد اليهودي والدسائس المجوسية ، وتعمل عملها الخفي في تمزيق الصفوف بتمزيق الأفكار ، التي جعلت تخص المجتمع الإسلامي المركب من عشرات الألوان والمواريث .. وأخيراً جاءت الروافد الفلسفية من تراث يونان لتعمق الهوة ، فتصعد الحوار إلى ضرب من الصراع الذي انتهى إلى العديد من المآسي .. حتى بلغت الفتنة ذروتها على يد المعتزلة التي أرادت إخضاع الوحي للعقل ، وحاولت إكراه المخالفين على الذوبان في نحلتها بكل الوسائل التي تملكها القوة المستبدة ، ولولا الهمم الخارقة التي جوبهت بها من قبل أولي العزم من أئمة المسلمين ، لانتهى الإسلام إلى المصير نفسه الذي صارت إليه اليهودية على

أيدي مؤلفي التلمود ، والنصرانية بأيدي بولس وأشياعه من تلامذة الفلسفة الأفلوطينية من بعد ..

على أن هذا المسلسل من الصراع المستمر بين الإسلام والتيارات الغربية قد سجل أكبر أحداثه منذ مطلع القرن الجاري وحتى اليوم ، إذ ترك من الندوب والجراحات في كيان الإسلام ما يوازي جماع آثاره الماضية بل أكثر ، وكان للتقدم التكنولوجي في الغرب ثقله في ذلك ، لأن الغزاة قد استغلوا كل منجزاته المادية في حرب الإسلام ، على حين لم يستطع العالم الإسلامي على امتداده النهوض على قدميه بعد في هذا الميدان فكان لتخلفه ، وحاجته المستمرة إلى صناعة الغرب وعلومه المدنية ، أكبر الأثر في كل انتصار حققه الزاحف الغربي خلال دياره ..

النشء الضائع :

لقد أناخ الاستعمار الصليبي على صدر العالم الإسلامي عشرات بل مئات السنين ، استطاع أثناءها تحطيم الكثير من طاقاته ، واستلاب الكثير من خيراته، وزلزل الكثير من إمكاناته ، ولكنه عجز عن إلحاق الهزيمة الحاسمة بمقوماته الروحية ، حتى إذا اضطر إلى إخلاء مواقعه للمقاومة الإسلامية ، التي لم تخمد جذوتها قط غادرها بعد أن زرع أرجاءها ألغاما لم تلبث أن شرعت تنفجر فتنسف وتدمر ، وتعمل خلال جيل واحد مالم يستطعه هذا الاستعمار خلال أجيال .

لقد أدرك أساطين الغزو الصليبي ، ومن ورائه اليهودية أنهم لا بد تاركون هذه المواقع ذات يوم ، وأن إخلاءهم أرض الإسلام من وجودهم ، أيا كان هذا الوجود سيعطي الإسلام فرصة العودة إلى التاريخ كرة أخرى .. فكان عليهم أن يتداركوا هذا الخطر من داخله بما يحول دون انطلاقه .. وقد تم لهم ما أرادوا إذ لم يزايلوا مراكزهم في قلب العالم الإسلامي إلا بعد أن أنشؤوا على أعينهم ذلك الجيل الذي يريدون منه أن يتولى عنهم مهمة تثبيت وجودهم إلى الأبد ..

بدأ هذا النشء محدود العدد ، ولكنه يملك من الإمكانات مثل الذي يملكه قاطع الطريق المسلح بالرشاشات والقذائف ، فيها يستطيع السطو على القوافل الكبيرة ، وإلقاء الرعب في الجموع الكثيرة •

فأبناء (ذوات) استطاعوا استهواءهم بالمناصب البراقة ، ثم استجروا أبناءهم للتعلم في مدارسهم التي أعدت للهدف البعيد ، ومن ثم ساقوهم إلى ديارهم ، حيث أسلموهم إلى شياطين عرفوا كيف يغسلون أدمغتهم من معاني دينهم ، ويشحنونها بما طاب لهم من سمومهم •• فلما عادوا إلى بلادهم وجدوا الطريق معبدة لتسلم القيادة في خدمة أولئك السادة •• حتى إذا حان موعد جلاء هؤلاء الدخلاء كان كل شيء معداً لمواصلة المسيرة الشيطانية في الطريق المرسوم •

وإلى جانب أولئك المنظمين آخرون اختارهم العدو لدعم سيطرته عن طريق القوات المسلحة ، فما زالوا يتقلبون في ظلاله حتى انتهوا إلى المراكز العلى من ذلك السلك ، فلما كانت ساعة الصفر لم يجدوا صعوبة في الاستيلاء على كل شيء ••

وعلى أيدي هؤلاء وأولئك انطلق الروح الشيطاني يمارس عملية التحويل والتغيير ، التي تناولت كل مرفق من مرافق الحياة العامة ، على صورة لم يعهد مثلها من قبل •• وهاهو ذا العالم الإسلامي دون استثناء أي جزء منه ، يواجه هذه العملية الشاملة ، كما يواجه الانسان الحريق يلتهم داره وفيها كل عزيز عليه •

لقد ألف المسلمون طلائع هذه المحنة من قبل ، أيام كان أحفاد الصليبية يجتاحون ديارهم بعد أن تحطم في أيديهم السلاح ، ولكنهم لا ينسون أن اولئك كانوا ينفذون خطتهم في كثير من الأناة والحذر والتدرج ، فلا ينزلون ضرباتهم في المواطن الشديدة الحساسية بطريقة مباشرة ، بل يداورون ويحاولون حتى يتمكنوا من ضعضعة البناء قبل الانقضاض عليه •• أما وقد غاب وجههم وتوارى

شخصهم ، فلا مانع أن يعدلوا أسلوبهم ويسلكوا إلى غايتهم كل سبيل دون تحفظ ، مادامت الأيدي التي أعدوها لهذه المهمة هي التي تتولى ذلك عنهم .

بالأمس كان الهجوم على الإسلام عن طريق التعليم الذي فرضه المستعمر بلغته ، وعن طريق النماذج التي يضخمها من أبطاله القوميين ، دون أن يتعرض للقيم الإسلامية ، أو يسيء إلى رجال الإسلام ، إلا في حدود ضيقة .. وقد ترك للمسلمين أن يتعهدوا أجيالهم بالتوجيه الروحي والثقافي الذي يحفظ عليها أصالتها .. وعلى الرغم من إعماله قوانينه الوضعية في سياسة بلادهم ، لم يمس كيانهم الاجتماعي في نطاق الأسرة ، فترك لهم أن يتحاكموا إلى شريعة القرآن في كل ما يتصل بهذا الجانب ، وهكذا ظل البيت المسلم محافظاً على قواعده ، ومقوماته وشخصيته ، ومن هذا البيت انطلق شباب الإسلام يناجزون العدو ، ويواجهون أسلحته بصدورهم حتى أدركهم الله بالنصر الموعود ، فطهروا أوطانهم من جنوده ، بعد أن سقوا هذه الأوطان بالسيول من دماء الشهداء .

كذلك كان الأمر من قبل .. أما بعد جلاء جيوش الاحتلال عن أرض الإسلام ، فقد أوشك التعليم أن يستحيل إلى تجهيل ، وقد طغت تيارات الفكر الدخيل على كل شيء حتى باتت هي المعيار الذي تعرف به الأقدار .. والأسرة التي صمدت طويلا في وجه الأعاصير قد شرعت تتداعى تحت وطأة الهجوم الذي تشنه وسائل الإعلام في الشارع والمدرسة والأندية ، وتقتحم على الناس حتى مهاجعهم ، لتجردهم من بقية المقومات التي تعهدت صيانتهم من الذوبان في مراحل الحدثان كل هذه الأزمان .

لقد أوشكت معايير الإسلام أن تختفي في الكثير من جوانب المجتمع الإسلامي أمام هذا الغزو الكاسح ، حتى إن البيت المحافظ ليفتح صدره في رضىً لأزياء الأعداء وطرائقهم في المسكن والمعيشة والتبذل .. وكأن هؤلاء المسلمين لا علاقة لهم بتحذير رسول الله ﷺ المؤمنين من مجاورة الكافرين

ومخالطتهم لئلا تتسرب إليهم بعض أخلاقهم ، حتى ليقول : (أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين[٤]) •

وكأني بهم لا يقرؤون قول ربهم في تعليل ذلك التحذير (والله يريد أن يتوب عليكم ، ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً ٤/٢٧)•

قيمنا في خطر :

والتعليم والبيت والإعلام هي الأركان الثلاثة التي عليها ينهض بنيان الحضارة •• ولا سبيل لبقاء حضارة فقدت أحد هذه الثلاثة • ولا شيء أكثر تعرضاً للفساد والخلل من هذه الثلاثة •

وقد رأيت فيما أسلفنا ـ مكانة البيت في معيار الغرب ، حيث لا يتجاوز معنى الحظيرة ، يلتقي فيه الأفراد كما يلتقي القطيع على العلف والاستجمام ، ليستأنف الكدح من بعد وهو أوفر قوة وأكثر إنتاجاً ، حتى إذا استوفى الصغير منه سن الاستقلال غادر ذلك البيت إلى غير رجعة •• وإذا استهلكت الشيخوخة قدرة الكبير نفي منه إلى المكان الذي يهيئه للقبر • على حين لا ينفك البيت المسلم ـ ولله الفضل والمنة ـ تلك الواحة الظليلة التي يجد فيها المسلم السكن، ويمارس في كنفها أفانين المودة والرحمة ، فمنها يتلقى أول دروس الفضائل ، وفيها يتدرب على أطهر وأنظف أساليب الحياة •

وكذلك لاحظت هناك الفرق بين عمليتي التعليم في معاييرنا ومعاييرهم •• فبينا هو ـ في أسمى تصوراتهم ـ وسيلة الانسان إلى إدراك ماحوله ، وتحقيق رغباته في متاع الدنيا ، يحتل في قلب المسلم مكان القداسة ، لأنه سبيله إلى التعامل النظيف مع الحياة والناس والأشياء ، حتى يحقق في نفسه النموذج الأمثل للعدالة المثلة في التوجيه الإلهي (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ، ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ، إن يكن غنيا أو فقيرا فالله

---

(٤) أخرجه ابو داود والنسائي والترمذي •

أولى بهما ، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ، وأن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملوا خبيراً ٤/١٣٥) .

والبيت النظيف مدعوماً بالتعليم الدافق من منابع الوحي ، لا بد أن يزود المسلم بالحوافظ العاصمة من مختلف القواصم ، فيكون طبقاً لما وصفه رسول الله ﷺ (كمثل النحلة أكلت طيبا ووضعت طيبا ووقعت فلم تكسر ولم تفسد)(٥) فهو صورة حية من قيم دينه ، إذا تكلم أو علّم أو كتب ، فأمر بمعروف ، ونهي عن منكر ، ودعوة إلى حق ، وإذا سمع اللغو أعرض عنه تنزهاً عن مجاراة السفهاء ، وإذا أخذ في عمل أدى له حقه من الاتقان الذي أمر به رسول الله ﷺ .. وأبى في ذلك كله أن يتقبل فساداً ، أو يكون سبباً إلى فساد .

على أن هذه الصور المشرقة ، وإن بقي الكثير من ألقها هنا وهناك ، فلا مندوحة عن الإقرار بما اعتراها من تخلخل خلال المرحلة الراهنة من تاريخ الإسلام .

لقد بدأ هذا التخلخل أول الأمر في مناهج التعليم ، إذ تولى أمرها أولئك الذين كفروا بالقيم الأصيلة فراحوا يتبنون كل نظرية عمل بها العدو أو دعا إليها ، حتى ولو ثبت فسادها بشهادة أهلها .. وكانت الخطوة الأولى في هذه السبيل إقامة ضرب من التعليم الجديد منفصل عن تراثنا التعليمي المستمد من منابع الكتاب والسنة وتجارب السّلف . وهكذا وجدت الأمة نفسها فجأة تلقاء هذه الثنائية المتباينة : مناهج تعد الفرد المناسب للخدمة الرسمية مقابل الرواتب المغرية ، وأخرى مقطوعة عن الحياة العامة ، تهيىء للمجتمع متطوعة يلقنون الناس المعلومات التي تصح بها عبادتهم ، دون أن يكون لهم حظ في راتب حكومي .. وسرعان ما أثمر هذا الازدواج تمزقاً جديداً في وحدة الأمة تبعاً للتباين الفكري الذي يمثله كل من الفريقين .

---

(٥) من حديث طويل رواه الامام احمد ج ٢ ص ١٩٩ عن عبد الله بن عمرو .

حتى الراقصون يفضلون :

وطبيعي أن تكون حصيلة هذا التباين بالدرجة الأولى إيغال القابضين على أزمة التوجيه العام في استقطاب الطاقات لصالح الخط الذي ينتهجون ، ومن ثم في عزل الآخرين من حفظة التراث الإسلامي عن مراكز التأثير في حركة المجتمع ما وجدوا إلى ذلك سبيلا •

ولعل أقرب مثال على هذه الوقائع حرمان أصحاب التعليم الإسلامي من أي حق في الخدمات الرسمية في معظم بلاد المسلمين ، وان تفاوت مدى هـذا الحرمان بين إقليم وآخر • ففي تركية مثلاً يضطر حامل الإجازة الجامعية في العلوم الشرعية إلى الخدمة في الفنادق ليقي نفسه وأهله شر البطالة ، وفي الهند وباكستان ــ حتى عهد بوتو ــ لا يجد خريج المعاهد الإسلامية مجالاً للعمل خارج نطاق الوعظ والإرشاد ، وتلقين أطفال المسلمين بعض سور القرآن •

وفي ظل الحكومات الاشتراكية مطلقاً لا يختلف وضع الدارس الشرعي عن ذلك ، إذ لا حق له في أي وظيفة حكومة ، إلا أن يتخلى عن التزامه الديني ليصل إلى عمل ما تحت مظلة الحزب الحاكم •• ولعـل الكثيرين سمعوا ذات يوم مراسل صوت أميركة في القاهرة يعلن في أخبار الفن أن خمسة وأربعين راقصاً قد تخرجوا ــ وتخرجن ــ في معهد الباليه فضموا لفورهم إلى الفرق القومية ، على حين لا يكاد يجد خريج الأزهر سبيلا إلى التعيين إلا بعد شياط وهيـاط وزمان قد يستوعب السنين ••

وبين يدي ــ وأنا أسطر هذه الصفحات ــ رسائل من مدرسين في بعض أنحاء العالم الإسلامي يذكرون لي أنهم لم يتناولوا أي أجر منذ عدة أشهر •• وليس هذا عني بغريب ، فقد زرت معاهد إسلامية مكافحة في الفيلبين ، وعلمت أن راتب بعض المدرسين فيها لا يتجاوز سبعة الدولارات في الشهر ، وقد تتابع الأشهر دون أن يحصلوا حتى على هذا القدر الهزيل •

وليس حظ الكثيرين من نظرائهم بخير من ذلك في باكستان والهند ، حيث

يقف دخل الواحد منهم في الغالب عند حدود روبيات قليلة • ومرد ذلك كله إلى تشابه حالة المدارس الإسلاميـــة من حيث اعتمادها على تبرعات المحسنين غير الثابتـــة ••

مزيد من الزحف :

هـــذه الأوضاع الرهيبة التي تواجـــه التعليم الإسلامي في معظم بـــلاد المسلمين ، قد انتهت به إلى مأزق شديد الحرج ، إذ بات المقبلون عليه عبارة عن متطوعين لا يأمنون أن تستمر لهم تلك المعونات الشعبية إلى الأبد ، وبخاصة بعد التطور الكبير الذي مكن لربيبي التعليم العلماني من الاستحواذ على سائر المرافق المدنية • وهانحن أولاء نرى بعض آثار هـــذا التطور في البيوتات التي توارثت أمانة العلوم الشرعية جيلاً عن جيل ، وقد قطعت حتى اليوم شـــوطاً مديداً في البعد عن منهجها العريق ، فهي توجه أبناءها إلى كل مسلك غير المسلك الذي ألفته •• فأبناء كبار الفقهاء أطباء أو مهندسون أو دكاترة في الفلســـفة والأدب وحتى في الموسيقا ، ونتيجة ذلك بارزة في مصير المكتبات الإسلامية الخاصة حيث تعرض للبيع في أسواق المخلفات •• لأن ورثتها لا يقيمون لهـــا وزناً ، ولا يعيرونها أكثر من نظرهم إلى شيء استنفد أغراضه ، ولم يعد بقاؤه مما يتفق مع (التقدم) التكنولوجي السريع ••

ولا أصلح من مثل هذا الجو للمزيد من الزحف على البقية من حصون الإسلام •• وهكذا أصبحنا نرى حكاما يحملون هوية المسلمين ، وربما خططت لهم قبور يوسدونها بعد عمر طويل في مساجد المسلمين ، ليتخذ منها المضللون مزارات مقدسة •• نراهم يعلنون الحرب السافرة على الإسلام ، فيرمون نبيه بالكذب ، وينكرون الوحي الذي أنزله الله على قلبه من فوق سبع سموات ، ويتخذون من ذلك وسيلة للعـــدوان على بقايا الشريعة الإلهية بإلغاء حـــدود الميراث ، ويشجع عدوانهم آخـــرين من الأفاقين فيزعمون إلغـــاء الفوارق بين الجنسين ، ويعاقبون من اعترض مزاعمهم بإحراقهم أحياء في الساحات العامة •• وتتصل ثورة الغرور فاذا بأحدهم يرفع عقيرته اليوم بإلغاء نصف الإسلام ، إذ

أعلن اكتفاءه بالقرآن ورفضه لحديث رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، بحجة أن في هذا الحديث مالا يصل إلى فهمه •• وقد فاته أنه يقحم نفسه في غير ميدانه ، وأنه بإنكاره الصحيح الثابت من سنة رسول الله ﷺ إنما يرفض كتاب الله نفسه ، الذي يشهد لنبيه بأنه (ما ينطق عن الهوى ٥٣/٣) وأن متابعته صلوات الله عليه وسلامه شرط في مرضاة الله الذي يقول في كتابه الحكيم (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ٣/٣١) ولا سبيل لاتباعه ﷺ إلا بالاستمساك بسنته قولاً وعملاً وتقريراً ، ولو أمكن ضياع سنته ﷺ لانتفى إمكان اتباعه ، ولانتفى بالتالي توافر البيان الذي لا مندوحة عنه لمراد الله الذي يقول لرسوله : (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس مانزل إليهم ١٦/٤٤) •

وترتفع في هذا الجو المحموم صيحات العملاء من هنا وهناك وهنالك •• فمسؤول كبير في إحدى دول الإسلام الكبرى يصرح بأن تطبيق الشريعة الإسلامية يمزق الوحدة الوطنية •• وهو ترديد لذلك الصوت الآخر الذي يعلن في كل مناسبة أن بلاده مفتوحة لكل فكر إلا أن يكون هذا الفكر دعوة لإحلال أحكام الله مكان القوانين التي أعلنت افلاسها بألسنة قضاتها أنفسهم •• وحسب أمته التي تطالبه في كل مناسبة بتحكيم شريعة الله ، أنه يترك لها حرية العبادة ـ على طريقة الماركسية التي تحبس الإسلام في نطاق المسجد ـ •• والويل للمتطلعين إلى ماوراء ذلك ، فسيكون نصيبهم الفرم ••

وفي هذه الغمرات المائجة تنطلق صرخات الناعقين بتحرير المرأة من روابط الأسرة ، وتغريها بالتمرد على قوانين الطبيعة ، لتقذف بها إلى الهاوية التي ابتلعت من قبلها المرأة الغربية ، فسلختها من أنوثتها وأحالتها كناسة تجمع القمامة من الشوارع العامة ، أو وقادة في الأفران العالية ، أو سكرتيرة توفر المتعة والخدمة لسيد المكتب أو لصاحب العمل ، أو (فنانة) تثير شهوات الفارغين في السهرات الحمراء ، مقابل تصفيق الأوشاب وكلمات الإعجاب ••

وربما تطور عبث هؤلاء بالمرأة وبالمجتمع المسلم المخنوق المسحوق إلى حد تسخيرها لإفساد الوسط التعليمي ، بحلولها مكان المعلم في مختلف مراحل التعليم •• ولا يحتاج المفكر إلى كبير ذكاء كي يدرك ما وراء هذا الاتجاه من تخطيط يراد به القضاء نهائيا على بقية الرجولة في الجيل القادم ، وذلك عن طريق إزالة الضوابط الباقية من فصيلة الحياء في صدور الجنسين •• والغريب أن هؤلاء يقدمون على هذه التجربة بعد أن ثبت خطرها المدمر في أميركة وروسية ، حيث يحاولون التخلص من آثارها بكل الوسائل المتاحة لهم •

والحق أن أصحاب هذا التخطيط قد أثبتوا تفوقهم على سائر إخوانهم أولئك ، فهم لم يجاهروا بالحملة على أصول الدين ، وفق ما ذهبوا إليه من الهجوم المكشوف ، بل عمدوا إلى الوسيلة التي تحقق لهم كل ما يريدون دونما ضجة ولا تبجح ••

ولنتذكر هنا أن كل المحن التي نزلت بالعالم الإسلامي من قبل على أيدي المتفلسفة ، والفرق المنسلخة عن جسم الإسلام ، وعن طريق الزحف المغولي والصليبي الذي فتك بالملايين ، ومحا المدن ، وأخرج الإسلام من الأندلس بعد استقرار ثمانية قرون •• هذه المحن كلها عجزت عن تدمير البيت المسلم لأنها عجزت عن استجرار المرأة المسلمة إلى مفارقة القيم التي ائتمنت عليها •• ولذلك استطاع هذا البيت فيما بعد أن يحرك الطاقات النائمة ، فتنطلق من جديد لمواجهة الغزوات الاستعمارية ولإحياء روح الجهاد في أعماق الشباب ومن ثم تتابعت قوافل الشهداء حتى حقق الله النصر الموعود بطرد العدو اللدود • ولنقارن ذلك بالأخطار التي نحن مهددون بها عندما تنجح جهود المغررين بالمرأة في الإجهاز على البيت المسلم •

أول البلاء الذي ينتظر المجتمع الإسلامي في ظل هذا التخطيط الرهيب هو انسلاخه من القيم التي ساعدت على بقاء الإسلام حتى اليوم •• وحين يتجرد

البيت المسلم من قيم الإسلام فسيكون مزرعة غير مباركة لإنتاج الجيل المشوه ، جيل الخنافس والإمعات الذي لا يشعر بالانتماء إلى هذه الأمة ، بل سيكون ولاؤه كله لشهواته ولصانعي المغريات من الأعداء الـذين ما برحوا يزرعون الألغام في طريق الحضارة الربانية ، منذ بعث الله محمداً لإخراج العرب ، ثـم لإخراج العالم بالعرب ، من الظلمات إلى النور •

وما أحسن قوة تستطيع أن تحقق لإسرائيل الحماية الآمنة ، والبقـاء الدائم ، والتوسع الموصل إلى أهدافها القصية ، بمثل ما يفعله لها هذا الجيل الذي فقد هويته الإسلامية ، وأصبح على أتم الاستعداد للسير خلف كل ناعق•• ويومئذ لن نجد ، والعياذ بالله ، حاجة للكلام عن حضارة للإسلام ، لأنـه لن يكون هناك أنموذج يسعه أن يمثل بعض ملامح الإسلام •

شبابنا وقضية الحضارة :

وهذا يعني أن للمسلم الحق دوره الفعال في قضية الحضارة ، وله موقفه المعين من مضامينها سلباً وإيجابا ، لأنه بحكم عقيدته وسلوكه شهيد على النـاس وله صلاحية الحكم على تصرفاتهم ، لبيان مدى موافقتها أو مخالفتها لميـزان العدالة والصحة ، فإذا هو تخلى عن صفته هذه ، واندمج في القطيع التائه ، فقد أهليته للحكم والشهادة ، وعاد جزءاً من الالهة الكبيرة التي تدور بالناس على غير هدى •

وبتعبير موجز : إن موقف المسلم من الحضارة المعاصرة هو موقف الناقد البصير الذي يحدد القيمة ويشير إلى مواطن الخطأ ، ويدعو إلى التصحيح ، كمثل الطبيب الحاذق الأمين يشخص حالة المرض ثم يواجهه بالعلاج الناجح ، وإذا وجد في الإصابة ماينذر بسريان العدوى بذل جهده لحجر المصاب ، حماية للمجتمع من انتشار الوباء •• يستوي في ذلك الفرد المسلم والجماعة المسلمة والدولة المسلمة •

وسواء كان الفرد شاباً أو شيخاً أو امرأة ، لأن الإسلام أوجب المسؤولية على الجميع دون استثناء ، فكلهم راعٍ وكلهم مسؤول عن رعيته . ولأن المسلم مزود بالوعي السليم لكل الحقائق ، فبفطرته والتزامه روح الإسلام يحس كل شذوذ عن جوهر الحق والخير فينفر منه ، ويعلن إنكاره إياه بالحكمة والموعظة الحسنة .

على أن للشباب المسلم مزيداً من هذه المسؤولية المشتركة ، فهو بما ينطوي عليه من الطاقات النفسية والجسدية أقدر على التحمل من غيره ، وأسرع إلى الاستجابة ، وإذا داخله الاقتناع بحقيقة مابذل لها من ذات نفسه ماتقتضيه من الجهد دونما إحجام أو تردد .

وفي قصة أصحاب الكهف من القرآن العظيم درس أي درس عن أهمية الشباب وإقدامه على التضحية مهما كبرت ، في سبيل الحقيقة التي انشرح لها صدره ..

هؤلاء الفتية الذين آمنوا بربهم وزادهم هدى ، قد رفضت فطرهم السليمة ضلال قومهم ، فتنادوا لحماية وجودهم من لوثات الوثنية ، وتميزوا عن المجتمع الزائغ بالمسلك النقي ، وبذلك خسروا مناصبهم الرفيعة بين ظهرانيه ، مؤثرين الفقر على الغنى ، والتراب الخشن على الأثاث الوثير .. ولكنهم ربحوا راحة الضمير وخلود الذكر ، إذ جعلهم ربهم مثلاً صالحاً للأجيال ، يتعلمون منهم كيف يؤثرون الحق على مرضاة الخلق ، بل على كل شيء ..

وما كان شباب الرعيل الأول من صدر الإسلام سوى النماذج المثلى لهذا الطراز المميز بالخيرية على سائر الخليقة . لقد احتوتهم الجاهلية في ظلماتها أولاً ، فاتخذت منهم وقوداً للفتن ، وأدوات لنصرة الطغيان وعاشوا كأسلافهم الضائعين خارج حدود التاريخ ، حتى أظلهم فجر النبوة ، فإذا هم خلال اليسير من السنين أئمة الهدى وقادة البشرية ، ينطلقون في جنبات الأرض مبشرين

المظلومين بالخلاص (من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ••) •

نماذج من شباب الإسلام :

وهل نحن في حاجة إلى عرض الأمثلة من أولئك العمالقة ، وكلهم في العظمة والتفوق سواء •• فمن تختار منهم ، وبمن نذكر من ذلك الجيل الخالد ، وليس منهم رجل أو امرأة إلا وهو كما قلت في آثار المدينة المنورة •

تروى الأعاجيب من أنباء مدرسة	فيها الأمينان جبريل وخير نبي
ربى بها الوحي جيلاً لا كفاء له	على البسيطة من عجمٍ ومن عرب

عندما أحدق شباب محمد ﷺ بأسوار الاسكندرية ، بعث المقوقس إلى قائدهم يدعوه لإرسال وفد يحاوره ففعل ، وكان على رأس الوفد المؤمن الصحابي الجليل الأسود البشرة عبادة بن الصامت ، فاستكبر ممثل الطاغوت الرومي أن يحاور (ملونا) ولما اضطر إلى ذلك جعل يساومه على فك (الارتباط) بالوعد والوعيد •• فما كان جواب عبادة إلا أن قال له : أبالدنيا تغرينا •• وإن أحدنا ليكتفي منها بحفنة من سويق ؟ أم بالموت تخوفنا •• ووالله مامنا أحد خرج من بيته إلا وهو يدعو الله أن يرزقه الشهادة في سبيله !••

وكان ذلك كافياً ليعلم المقوقس أنه تلقاء طراز من الخلق لا تعرف له رومة ولا أثينا ولا الدنيا كلها من قبل ذلك مثيلاً ••

وفي مشهد مماثل دخل وفد المسلمين بقيادة المغيرة بن شعبة على رستم قائد جيوش الإمبراطورية الفارسية ، فلم يكتف المغيرة بالكلام ، بل عمد إلى الفعل المثير فزاحم رستماً على سريره •• ولما نازعه حرسه في ذلك أجابهم : ويحكم ، أيتخذ بعضكم بعضا أرباباً ؟•• أما نحن فليس لقائدنا على أحدنا من ميزة ، بل كلنا في الكرامة سواء •• وما دمتم على هذه الحال فلا بد أن هلاككم على أيدينا إن شاء الله ••

وكانت قذيفة محكمة لم تلبث أن عملت عملها في صدور القوم ، إذ عرفتهم لأول مرة فساد النظام الذي يحكمهم ، وسمو الدين الذي صنع من هؤلاء الفقراء القوة التي لا تقهر ..

وسأل هرقل قيصر الروم قواده عن أسباب هزائمهم الدائمة أمام مقاتلة المسلمين .. فقال أحدهم : مامنا رجل إذا لقيناهم إلا وهو يتمنى أن يقتل أخوه قبله ، وليس منهم واحد إلا وهو يحب أن يقتل قبل أخيه .

فهتف هرقل : لئن صدقتني الوصف ليَملكنَّ ما تحت قدميَّ هاتين ..

وسمع الفاروق رضي الله عنه وهو يتجول خلال أزقة المسلمين حواراً بين أم وابنة لها ..

تقول الأم : امزجي اللبن ببعض الماء يرتفع محصوله ..

وتقول البنت : ولكن أمير المؤمنين ينهى عن الغش ..

وترد الأم : وهل يرانا أمير المؤمنين ؟.

وتجيب البنت : ولكن الله يرانا يا أماه ..

ويمثل وفد سمرقند بين يدي حفيد الفاروق ، المنحدر من هذه الفتاة العظيمة ، أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ، يشكو إليه قائد المسلمين محمد بن القاسم ، مدعياً أنه اقتحم حاضرته دون إنذار سابق ، فلم يتمالك أن كتب إلى قاضي الجيش الإسلامي يأمره بالتحقيق في هذه الشكوى ، حتى إذا صحت كان عليه أن يأمر المسلمين بمغادرة المدينة خضوعاً لأمر الله الذي حرم على المؤمنين أن يفجئوا عدواً بقتال قبل أن ينبذوا إليه على سواء ..

حضارة الإيمان وحضارة المادة :

وهل أمضي مع هذه النماذج خلال التاريخ ، فأردفها بواحد من عهد صلاح الدين وأعزها بآخر من أيام يوسف بن تاشفين ، وثالث من مآثر

العثمانيين و .. ومالا أحصي من الروائع الممثلة لجلال هذا الدين .. ولعمر الحق إن في كل منها لصورة واضحة الملامح تنطق بأجلى بيان أن هاهنا حضارة ربانية تهيمن بخصائصها المتفردة على تصرفات الأفراد والجماعات ، فتؤلف منهم المجتمع النموذجي الذي كونته التربية النبوية على منهج السماء ، ليقود الانسانية إلى الجادة ، التي عبّدها رسل الله منذ آدم إلى خاتم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

ثم إن في كل منها لتشخيصاً بارزاً لمهمة الشباب المسلم بالنسبة إلى مشكلة الحضارة .. إنها مهمة الانسان الذي يملؤه اليقين بالمسؤولية نحو خالقه ثم نحو نفسه وأهله والخليقة كلها ، على اختلاف أشكالها وأجناسها .

وعندما تتصور المرحلة الرهيبة التي تجتازها الانسانية أيامنا هذه ، تحت أعباء الأخطاء المتراكمة ، والأهوال المتوقعة ، لانتردد في القول بأنها مهمة المنقذ الذي بيده وحده ، مصور النجاة لهذه الانسانية المعذبة ، بعد أن أوغلت في تخريبها تلك الحضارة التي ينسبونها ظلماً إلى المسيحية ، وهي التي أعلنت الحرب على المسيحية منذ فرضت عليها الدولة الرومانية سلطانها الغشوم ، فاتخذت منها معرضاً لكل مواريثها الوثنية ، حتى انتهى بها الأمر أخيراً إلى العزلة التامة عن حياة المجتمع ، فهي تتطلع إليه من بعيد يتخبط في وحول التحلل دون أن تملك له ضراً أو نفعاً .. وإلا فأين أثر الكنيسة الغربية وهي ترى إلى القوانين الوضعية تبيح نكاح الأخوات ، وإجهاض الحاملات ، واتخاذ الخليلات ، وتبادل الزوجات .. وما إلى ذلك من الموبقات المنذرات بنهاية الأديان والحضارات !..

بلى .. والله .. إن كل شيء ليهيب اليوم بالمسلم : أنْ أقدم ، فلم يبق للانسانية من منقذ سواك والويل لك ولأمم الأرض معك إذا أغفلت مهمتك ، وظللت على إحجامك وترددك ..

بيد أن هذه المهمة تتطلب من الشباب المرشح لها أن يرتفع إلى مستوى المسؤولية التي تقتضيها . ورأس الأمر وعموده أن يلتزم خط السلف الذي

اعتصم بحبل الله فأعزه الله ، وأن يتجنب الهبوط إلى منحدرات الإمَّعات ، الذين ضاقت بهم مسارب الحياة •• وذلك هو أول الطريق إلى استرداد مكانته السليبة في قيادة الفكر البشري الحائر إلى منهج القرآن ، الذي شهد الله والملائكة وأولو العلم أنه الهادي أبدا للتي هي أقوم ••

لقـد كثر حديث العارفين عن جمال الحضارة الإسلامية وإمكاناتها التي لا نفاد لها ، فأعادوا وأبدؤوا : وأجملوا وفصلوا •• واشرأبت أعناق التائهين والمظلومين تتطلع في لهفة لعلها تقع على بعض هاتيك البشريات مجسمة على أرض الواقع •• وكادت تيئس وتعتبر ذلك الحديث لا يعدو أن يكون لوناً من أحلام اليقظة ، لولا خيوط من النور لا تزال تنطلق في العتمات من سلوك الطائفة الثابتة على عهد الله ، والصادعة بالدعوة إلى الله لا يضرها من خالفها ، ولا يصدها عن أداء واجبها نحوها إرهاب الظالمين ، ومفتريات الكاذبين •• ولكنها تظل خيوطا مبعثرةً يرسلها أفـراد ، على حين تتلهف الشعوب المضللة إلى نمـاذج تؤلف المجتمعات ••

الاسلام السجين :
وكيف السبيل إلى إطلاقه ؟

وتتساءل ، ويتساءل معنا الضمير الانساني في كل مكان : هـذا المفهوم المثالي للحضارة الربانية •• ما السبيل لإخراجه إلى حيز التطبيق ، في مواجهـة الواقع الرهيب الذي يحدق بالفكر الإسلامي ، وبخاصة في ديار الإسلام ؟••

لقد زاحمت قوانين الانسان المغرور شريعة الله ، حتى أزاحتها نهائيا عـن سياسة المجتمع الإسلامي •• وهي تريد اليوم أن تقضي على ما تبقى من أحكامها حتى في نطاق الأسرة ••

واستبعد الإسلام عن مناهج التعليم ، حتى أوشك أن ينحصر في مايسمونه بالتوجيه الخلقي •• أو التربوي ••

وطورد النظام الإسلامي في مجالات الحكم ، حتى لم يبقَ له عند معظم حكام المسلمين سوى ظهورهم في مساجد المسلمين مرتين في كل عام لأداء مراسم العيدين ..

وحوصرت الكلمة المؤمنة حتى لم يعد يسمح لها بالدفاع عن نفسها أمام الهجوم الذي ينصب عليها من دعاة الفجور والبهتان بكل وسائل الإعلام ..

هذا الحصار المحكم حول الإسلام السجين .. كيف السبيل إلى اختراقه ، لإعطاء الاسلام حق الاتصال بالعالم .. بل بأبناء الإسلام ؟..

الحق أنني واحد من هؤلاء المتسائلين ، غارق في مثل حيرتهم ، لا أكاد ألمح بصيصاً من الضوء يدلني على المخرج ، أو يقدم لي جوابا على أي من هذه التساؤلات .. ولعل أعضاء هذا المؤتمر المبارك يشركوننا نحن الحيارى في موقفنا الأسيف المغلق هذا ..

العودة الى المسجد :

على أنني لا أكاد أواجه هذا الانغلاق المؤس حتى يتوهج في قلبي قول ربي : (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم ، مستهم البأساء والضراء وزلزلوا ، حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه : متى نصر الله ؟.. ألا إن نصر الله قريب /٢/٢١٤) .

وأتذكر قوله تعالى لرسوله ومن معه من المؤمنين يوم الأحزاب : (إذْ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، وإذْ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ، وتظنون بالله الظنون . هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً ٣٣/١٠ ــ ١١) .

فيلوح لي الفرج قاب قوسين أو أدنى ، وإن كنت أجهل كيف وأين ومن أين .. ولكنني أدرك بملء وجودي أن النصر المنشود في مثل هذه الحال موقوف على أمرين ، أولهما انقطاع الأمل من كل أنواع الحيل ، بحيث لا يبقى أمام

المؤمنين إلا إمداد الله ، وثانيهما تصفية القلوب من لوثات الذنوب بتوبة نصوح تشد الأعين نحو علام الغيوب وحده ..

ولقد والله تلاشت الآمال حتى اليأس ..

وبدأت الصراعات الصادقة ترتفع من كل نفس ..

ونظرة إلى ردود الفعل الواسعة في أوساط المسلمين ، الذين يعيشون تحت كابوس الرعب ، تؤكد أن وراءه عملية تطهير ربانية تخص ضمائر الغافلين لتردهم إلى هويتهم التي نسوها في زحمة الأحداث والأهواء فإذا هم اليوم يملؤون المساجد في كل مكان ، ويعاودون الاتصال بالمنابع التي شحنت قلوب أسلافهم بالطاقات التي فتحوا بها الأرض لدعوة الله .. والغريب في هذه (الرجعة) أنها لم تقتصر على جماهير العامة وطلبة العلم الشرعي فحسب ، بل لعل هؤلاء كانوا أقل الثائبين إلى الوعي نسبة ، ولكنها استقطبت العديد ممن كانوا ، حتى أمس القريب ، من أشد المناوئين للدعوة الإسلامية حرباً لها ولأهلها ، وتكاد تستولي على أزمة الفكر العالي في أوساط الكليات العلمية بوجه أخص ..

انتفاضتان مباركتان :

ولقد تطورت هذه الانتفاضة في بعض ديار الإسلام ، فإذا هي تنتقل من نطاق الانفعال إلى مجالات الفعل ، فتدفع بشباب الإسلام إلى استقبال قذائف الطغيان بالصدور العزلاء إلا من سلاح الإيمان ، وقد استعذبوا طعم الشهادة ، حتى فقد الموت هيبته في قلوبهم ، فهم يتسابقون إلى لقاء الله فرادى وجماعات لا يبالون أسقطوا على الموت أم سقط الموت عليهم .. فيثبتون لأعداء الإسلام أن جهودهم الضخمة والمتلاحقة خلال العشرات من السنين كانت أهزل وأعجز من أن تقضي على الذات الإسلامية .

ولقد أذهلت هؤلاء المفاجأة حتى راحوا ينادون بالويل والثبور ، وينذرون أقوامهم بأن ثقافة الغرب قد انهزمت نهائيا أمام الوقفة الإسلامية الجديدة .

وما أحسبهم صدقوا قط كشأنهم في هذا النذير • لأن المعركة لم تكن من نوع الصراع على السلطة ، كما يريدون أن يقنعوا السذج ، بل كانت بين اتجاهين وثقافتين متباينتين ، ثقافة علمانية تريد تجريد المسلمين من كل قدرة على مقاومة الفساد والاستغلال ، حتى يظلوا ومافي أرضهم من الكنوز ، مجرد مطية لتأمين متعة العدو والذياد عن بيضته • وأخرى تريد تثبيتهم على خط النبوة ، محافظين على انتمائهم الأعلى إلى رسالة محمد ﷺ ليكونوا كما يحب لهم ربهم (خير أمة أخرجت للناس) •

وإني لأكتب هذه الكلمات وأمامي خطاب الفريق محمد ضياء الحق ، الذي أذاعه من قاعة الجمعية الوطنية في الثاني عشر من ربيع الآخر عام ١٣٩٩ هـ ليزف إلى العالم الإسلامي بشرى عودة باكستان إلى النظام الرباني ، الذي طالما تطلعت نحوه بل ماكانت لتوجد في خريطة العالم لولا تشبثها به ، ومع ذلك تواطأ حكامها السابقون جميعاً على أن يسلخوه عنها ، حتى قيض الله لها هذا القائد الشجاع ، فرد إليها هويتها السليبة ، على الرغم من آلاف الدسائس التي يثيرها في طريقة أعداء الله في داخل باكستان وخارجها •

وما أحكم كلمته وهو يركز على أهمية التعليم في تكوين الشخصية ، إذ يقول : (إن الكتب والمناهج الدراسية عملت على إبعادنا عن محور الإسلام ، فكان لزاماً علينا أن نعيد صياغة السياسة التعليمية على النحو الذي يحفظ لنا صبغته القدسية ، ويكون هدفها الرئيسي إنشاء الجيل الجديد على إيديولوجية باكستان والإسلام)[٦] •

وقد شاء الله تباركت أسماؤه أن ترافق حركة البعث الإسلامي في باكستان قيام الكيان الإسلامي الجديد في إيران •• الذي افتتح وجوده برد ذلك القطر العزيز إلى طريقه الطبيعي بالنسبة إلى قضية فلسطين والحضارة الزائفة ، فأعلن

---

(٦) نقلناه بتصرف بسبب سوء الترجمة •

سلفاً قطع النفط الإيراني عن إسرائيل ، ومقاطعتها دبلوماسياً ، ثم جاءت البشريات تترى ، وفي مقدمتها تحويل إيران إلى دولة مواجهة لإسرائيل ، بعد أن لبثت ثلاثين سنة بمثابة الدعامة الكبرى التي تمدها بأسباب البقاء .. ثم إعفاء المرأة الإيرانية من التجنيد في الجيش ، وإلغاء التعليم المختلط .. وهما من البدع التي فرضتها على إيران سياسة (التحديث) التي أريد بها القضاء على جذور الإسلام في الشعب الإيراني ..

على أن أبلغ ماقدمته الثورة الإسلامية في إيران من دروس توكيدها أن الإسلام هو الغالب ، لأنه مظهر قوة الله التي لا تقهر ، وان العالم الإسلامي لا يصلح إلا بالقيادة الدينية المبرأة من كل تبعية لغير الله ورسوله .

إنها المبشرات ثم الفتح :

وبعد .. فهل ثمة من ريب في أننا تلقاء الطلائع المرتقبة للمستقبل السعيد ، الذي بشر الله به ـ على مر القرون ـ عباده التوابين في قوله الحكيم : (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ٢٤/٥٥) ..

ولا جرم سيكون ذلك الفتح الموعود آية استجابته الخاصة لضراعات الأوابين ، الذين يقول لهم : (ادعوني أستجب لكم) ومظهر رحمته العامة للانسانية كلها ، التي نهكها الضياع ، وضاق بها الكون على رحبه ، حتى باتت كالمخلوق الأسطوري ، الذي انتفخ جسده على حساب قلبه ، فغدا مهيب الظاهر ، سقيم الباطن ، يفتك بالضعفاء ، وتفتك به الأدواء ..

وجدير بالأرض يومئذ أن تفرح وتبتهج ، لأن ذلك إيذان بعودة النور المحمدي إليها ، بعد أن أوشكت الغياهب تطمس فيها كل معالم الخير في البر والبحر .

لقد ارتد العالم إلى ماكان عليه من الفساد العام قبيل فجر الإسـلام ·· وكشأنه بالأمس يتطلع لهفان إلى المنقذ الموعود ، دون أن يعلم من أين يطل عليه· ولو هو قد ثاب قليلاً إلى هتاف فطرته لأيقن أن منقذ الأمس هو منقذ الغد ، وألاّ سبيل إلى الشاطىء الأمين ، إلا بالأوبة إلى قيادة الصادق الأمين ، الـذي أرسله الله رحمة للعالمين ·

وليس على الله بعزيز ، وهو المالك لكل شيء ، والقادر على كل شيء ، أن يجعل ذلك الفرج المرجو هديته العظمى إلى المؤمنين ، مع مشرق القرن الخامس عشر الذي سنستقبل مطالعه في مثل هذه الأيام المباركة من محرم الحرام ··

أجل ·· إن في استعادة الإسلام مكانه الطبيعي من قيادة الفكر العالمي ، بعد تلك الغيبة الطويلة عن الميدان الذي طال إليـه حنينه ، لمثاراً للاستغراب العميق عند اليائسين من رحمة الله ·· بيد أنه سيظل حق اليقين في قلوب الذين ينظرون إلى الأحداث بنور ربهم ، ويستشرقون صور الغد الحبيب في حكمـة نبيهم : (بدأ الإسلام غريبا ، وسيعود كما بدأ فطوبى للغرباء[7]) ·

وأي غربة أكبر من أن يقوم بين أبناء المسلمين من يؤثر حكم الجاهلية على شريعة الله ، ويحاول خنق كل صوت يرتفع بالدعوة إلى الله ، في حين يرى بعينيه إلى أنظمة البشر ــ في كل مكان ــ تعلن إفلاسها ، وتلعن كل تجربة منها سابقة ولاحقـة !··

(ولينصرن الله من ينصره ·· إن الله لقوي عزيز ·· الذين إن مكناهم في الارض أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور ــ سورة الحج) ·

---

(٧) رواه مسلم ·

الأزهر بين الماضي والحاضر

هذا المعقل الإسلامي متى يستعيد مركزه القيادي العالمي ؟!



أول ما أطل الجامع الأزهر مع القاهرة على الوجود كان الهـدف منه بث النحلة العبيدية . التي اتخذت منه مركزاً لتوزيع دعاتها ، ومن السياسة الحاكمة مستنداً لإسباغ الصفة الرسمية على أصناف المحدثات التي زرعتها الأيـدي الخفية ، لتحويل مسيرة الإسلام من جادة الوحي إلى شعاب البدع . ثم شـاء الله أن يقف هذا الزحف ، فجعل الأزهر منطلق الثقافة الحية للعالم الإسلامي كله، ينير سبيله بالعلم المستمد من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فينتشر في الأرض على امتدادها هداية للضالين ، وضياءً للمدلجين ، وشفاء ورحمة للمؤمنين .

وبذلك انتهى عهد الهجمة العبيدية على الإسلام ، بزوال الدولة التي كانت تحميها وتفرضها ، بعد أن أبرزت كل خفي من أهدافها ، بما أعلنته على الملأ من تأليهها لرجال رضوا بأن يقول بعض المنافقين في أحدهم :

ما شئت لا ماشاءت الأقـدار ... فاحكم فأنت الواحـد القهار

وبعد أن مكنت لألوان من المضللات لا تزال تتراءى في تقديس القبور ، واللجوء إليها في الخطوب ، لا في مصر وحدها بل في مختلف الأقطار التي تسللت إليها تلك البدع ، على أيدي حملتها من المجوس واليهود والمأخوذين بسحرهم من الاغرار ، وبخاصة في الشام واليمن والحجاز .

ومنذئذٍ مضت سفينة الأزهر الميمون ، تمخر العباب على بركات الله بقيادة عمالقة من علماء الإسلام أعادوا لدين الله الكثير من عظمته السليبة ، وأعانوا على تثبيت حضارته المميزة في كل جانب من حياة المسلمين على تباين مواطنهم ، حتى بات الأزهر خلال هذه الحقب منارة الفكر الإسلامي ، إليه تعشو الأبصار ، ومنه تُستوحى الأفكار ، وإليه ينتسب العلماء الأحرار . وكاد يحتكر تقدير السواد الأعظم من المسلمين ، فلا يقيمون وزناً لفقيه لم يتخرج من رحابه ، أو لم يقدر له أن يتلقى العلم على أقطابه .

ولقد كلأ الله بعنايته ذلك الصرح الشامخ فلم يخل قط من واحد أو آحاد

من أولئك الأفذاذ الذين صانوا كرامة العلم ، وجاهدوا للحفاظ على ضوئه مشعاً هادياً على مرّ القرون . وحسب المفكر أن يتذكر أسماء بعض أعلامه ، الذين كانوا زينة الدنيا والدين ، مابين عهد ابن خلدون وابن حجر والسيوطي والمقريزي و ... إلى أيام الشرقاوي وعمر مكرم فمحمد عبده ومحمد الخضر حسين ، حتى يدرك أهمية الأزهر في حياة العالم الإسلامي ، وحتى يعلم أن من حق هذا الصرح على كل مسلم أن يسهم في الحفاظ على سمعته من كل سوء وبكل ما أوتي من قوة ..

٢ ـ وكما كان الأزهر معقل الثقافة الإسلامية على مدى الأحقاب يصحح الفكر ويسدد الخطا ويضبط المسيرة الاجتماعية للمسلمين في نطاق الحضارة الربانية ، كذلك كان لعلمائه أثرهم الفعال في مواجهة كل طغيان سياسي يحاول أصحابه الانحراف بالمجتمع عن طريقه القويم ، ومهما يتناس الناس مآثر العلماء في هذا الميدان فلن ينسوا موقف القاضي العالم العز بن عبد السلام من حكام مصر أيام المماليك ، إذ أبى أن يقر لهم تصرفاً حتى يبيعهم بالمزاد العلني ويرد ثمنهم إلى بيت مال المسلمين .. وكذلك موقف علماء الأزهر أيام الغزوة الفرنسية إذ كان الأزهر هو الذي يتولى قيادة المقاومة في وجه الغزاة ، وهو الذي ينظم طاقات الشعب للدفاع والهجوم ، وقد أسهم في هذه المعركة شيوخه وطلابه على السواء.

ولا يزال اسم سليمان الحلبي مخلداً في تاريخ الكفاح الأزهري ، منذ أقدم هذا الطالب المؤمن على اغتيال القائد الفرنسي (كليبر) ثأراً لكرامة الأزهر التي عدا عليها باقتحام جيوشه حرَمَه ، ولدماء الضحايا من أبناء مصر العزيزة الذين سقطوا برصاص هؤلاء الغادرين ..

ولم يكن دور الأزهر في مقاومة الاحتلال الإنجليزي بعد ذلك وفي تغذية الثورة العرابية ثم ثورة ١٩١٩ بأقل منه في مواجهة جيوش نابليون .. على الرغم من كل المثبطات التي أحاطت بذلك المعقل الإسلامي وبخاصة في أخريات ذلك العهد ..

وطبيعي أن ذلك الصمود التاريخي في وجه الأحداث إنما يعود بالدرجة الأولى إلى احتفاظ الأزهر بمقوماته الإسلامية ، التي كانت له بمثابة الحصن الحصين ضد كل المغريات والمغيرات طوال عهوده الماضية ..

٣ ــ كذلك كانت مقومات الشخصية في صدور علماء الإسلام ، أيام القوة والعزة ، استمساكاً بالحق ، واستعلاء على البهارج ، واستيقاناً بعظم المسؤولية أمام الله ، حتى لقد كان بينهم من يهتف بالملك الجبار نجم الدين أيوب على مسمع ومشهد من كبار الأمراء ، الذين كانوا يقبلون الأرض بين يديه ، فيدعوه لتغيير منكر في مملكته .. فلا يلبث أن يرسم بإزالته على الفور ..

ويحاول نابليون ــ بعد مئات السنين ــ استقواء شيوخ الأزهر بتعليق الأوسمة على صدورهم ، فما كان منهم الا أن رفضوها بإباء وهم يعلنون أن تلك الصدور لا تتسع لأوسمة الكافرين .. فكيف بالكافرين المذلين للمسلمين ...!

ولكن .. خَلَفَ من بعد أولئك العمالقة خَلْفٌ عجزت مناكبهم عن احتمال أعباء العزة ، فإذا هم ــ إلا من رحم الله ــ مبهورون بمغريات الدنيا تستهويهم الابتسامة من ذوي السلطان ، وترجفهم العبسة من وجه الظالم فلا يتمالكون أن يصفقوا له مع المصفقين ، ويزمروا مع المطبلين .. حتى ليكادون يعودون بالأزهر إلى مطالع طفولته ، أيام كان مدرسوه مــن بني النعمان ، واليهودي بن كلس يجعلون من كلمات خلفائهم مصادر للتشريع في العقائد والأحكام لها صفة القداسة والعصمة والإلزام ..

وما ندري متى بدأ هذا التحول في حيــاة الأزهر ، ولكن المعلوم لدى الاكثرين أنه بلغ أشده منذ اليوم الذي تسللت فيه الدعوات الحزبية إلى صميمه، فراحت تتوزعه بين مختلف الانتماآت السياسية .. فهذا ملكي ، وذاك وفدي ، وذلك سعدي .. وآخرون يميلون مع الإنعامات والعلاوات كيف تميل .

وسرت العدوى إلى كل جانب فإذا الاضرابات في بعض السنين ــ تعم

أرجاء الأزهر ، لا احتجاجاً على الاحتلال الإنجليزي ، ولا استنكاراً للفساد المستشري في مختلف جوانب المجتمع المصري ، بل استصغاراً للمكافآت واستكثاراً للجرايات •• وبهذا وذاك فتحت في أسوار ذلك المعقل التليد فتوق لم يلبث أن استغلها المغرضون ، فإذا هم ينفذون من خلالها لتدمير ما تبقى له من مواريث الإباء والاستعلاء •

٤ ــ وجاءت ثورة العساكر عام ١٩٥٢ فكانت انقلاباً جارفاً زلزل قواعد المجتمع المصري ــ والعربي جميعاً ــ ومع أن الأزهر قد حاول التماسك أمامها بادي الأمر فلم يسمح لها بالسطو على حرمه إلا أن هذا التماسك مالبث أن شرع بالتراخي أمام ضغطها وإغراءاتها ولا سيما بعد مصادرتها أوقافه الخاصة بالطلبة والمدرسين ، فإذا هو أخيراً مستسلم لمراكز القوة ، لا يكاد يخالف لها أمراً ولا نهياً •

وليبارك الله ذكر الشيخ محمد الخضر الحسين الذي سجل أنبل المواقف في وجه هذا الضغط •

لقد وقع اختيار العساكر على هذا الشيخ دون توقع منه ظناً من مرشحيه أن وضعه الصحي سيحول دون مباشرته أعباء المنصب • فيكون التصرف في يد ذلك (الآخر) الذي هو على أتم الاستعداد لتحقيق كل مايراد منه •

ولكن شاء الله غير ذلك فرد للشيخ الخضر الكثير من الحيوية التي كان يفتقدها • ومن ثم نهض بأعباء ولايته في تصميم المقدم على الله ، لا يبالي سوى مرضاته • فتتابعت المحاولات لترويض إرادته فما ازداد إلا صلابة في ما يعتقد أنه الأفضل لمصلحة الازهر ، وأعلن كلمته المستمدة من عزيمة الصديق (رض) :
(إذا لم ينل الازهر على يدي مزيداً من القوة فلن يصيبه مزيد من النقص ••)

وفي كل مجابهة مع أصحاب المحاولات كان يقدم استقالته التي يحملها

في جيبه أبداً ، ويعلن لهم تصميمه بقوله : (لن أختم شيخوختي بما يشينها عند الله ، وليس لي من حاجة في هذه الدنيا أكثر من ثوب يستر عورتي ، وكأس من اللبن يسد جوعتي ، وقد تكفل الله لي بهما ••) •

وهكذا كان عليهم أن ينفضوا أيديهم من هذا القيد ، ويبحثوا عن آخر ألين عريكة وأكثر طواعية حتى وقعوا على طلبتهم •

ولا حاجة الى استقصاء البواعث التي بوأت الشيخ هذا الموقف ، بإزاء المساومات السياسية ، فهو إنما فعل ذلك بدافع الإيمان أنه إنما يمثل الإسلام ، وليس هو بالموظف الذي يلقي إلى مصطفيه بالزمام ••

وسرعان ما برز في حياة الأزهر عهد جديد يوشك أن تنفصم صلته كلياً بماضيه المعهود ، إذ بات كأي مؤسسة تعليمية خاضعة لأوامر الدولة •• حتى فتاواه التي كانت إلى الأمس القريب هي المرجع الحاسم في سائر أنحاء العالم الإسلامي ، قد استحوذ عليها سلطان السياسة ، فلا تكاد تفارق خطها المرسوم ، ولو أدى بها ذلك إلى التناقض •• وأي تناقض أكبر من أن يقرأ الناس في عدد ربيع الآخر لعام ١٣٨٥ من مجلة (نور الإسلام) فتوى علماء الوعظ والإرشاد في الأزهر ببطلان زواج المسلمة بالشيوعي ، ثم لا يلبثون أن يقرؤوا — بعد يومين — بياناً صادراً عن مكتب شيخ الأزهر حول الموضوع تحت عنوان (لا فتوى في زواج الشيوعي بالمسلمة) وفيه أن أحداً لم يتصل بلجنة الفتوى بالأزهر بشأن ما نشرته إحدى الصحف أول أمس عن بطلان زواج المسلمة بالشيوعي الذي ينكر وجود الله ، وبالتالي فإن اللجنة لم تصدر فتواها في ذلك •

وظاهر أن بيان المشيخة لم يتصدَّ لأصل الموضوع سلباً أو إيجاباً ، بل اكتفى بأن نفى نسبة الفتوى إلى اللجنة فقط ، ولم يعط رأياً في القضية المثارة • وهذا ما دفع بفضيلة الشيخ محمود عبد الوهاب فايد إلى مواجهة الشيخ الأكبر

حيث قدم إليه سؤالاً يستكشف رأيه صراحة في أصل البحث •• فإذا هو يدور في جوابه حول الموضوع دون أن يواجهه بالقول الفصل ، إذ كانت خلاصة ذلك الجواب قول الشيخ : (وواضح أن المسلم الذي يعامل بأحكام الإسلام ويحل له الزواج بالمسلمة هو الذي يؤمن بالله وحده ويؤمن برسله ويؤمن باليوم الآخر ، ولا ينكر شيئاً مما علم من الدين بالضرورة وإلا عُد مرتداً ، وعومل معاملة المرتدين فيحرم عليهم الزواج بالمسلمة ، ويبطل زواجه إن كان متزوجاً بها •••[1]) •

وواضح كذلك أن كل ما يشير إليه الجواب من صفات الإلحاد والارتداد منطبق على الشيوعي دون ريب •• ولكن السؤال الذي يظل قائماً هو : لماذا يتحاشى فضيلته ذكر الشيوعي صراحة ، ويؤثر لجوابه أن يكون عاماً يشمل كل من ينطبق عليه الوصف دون تخصيص ، مع أن المناسبة منصبة على الشيوعي وحده من بين سائر الملاحدة والمرتدين !••

وطبيعي أن لهذا التصميم صلته الوثقى بالحساسية السياسية التي كانت أيامئذٍ تؤثر في مثل هذا الموضوع أسلوب التلميح على البيان الصريح •

٥ ــ ولا غرابة أن يجرنا ذكر هذا الموقف في موضوع الشيوعية إلى ألوان من المواقف والفتاوى التي تورط بها مسؤولون في الأزهر ، فكانت شواهد جديدة على مدى تباعد حاضره عن ماضيه •

لقد أدرك عبد الناصر ومن وراءه من أعداء الإسلام في الشرق والغرب أن لا نجاح لخططهم في مصر والعالم الإسلامي مادام للإسلام دعاة يجلون حقائقه ويلهبون ضمائر المسلمين للانضواء تحت رايته •• وإذا كان الأزهر قد أخذ بالانحناء للعاصفة • فإن ثمة قوة جديدة للإسلام قد استعصت على الإغراء والإغواء ، فهي ماضية في طريقها السوي لا تخاف في دينها لومة لائم ، بل قد

---

(١) انظر كتاب (الحق) للشيخ محمود عبد الوهاب فايد ص ٢٠٤ ــ ٢٠٦ •

اخترقت بتصميمها كل الحواجز فشرقت وغربت حتى احتلت مبادئها قلوب الشعوب الإسلامية في سائر ديارها • وعليه فلا مندوحة من مواجهتها بالضربة القاضية في منطلقها الرئيسي مصر قبل أن تبلغ أشدها فتكون هي القاضية على أعداء الإسلام في كل مكان ••

ومن هنا انطلقت مؤامرات (التحالف الشيطاني) تقلب الأمور وترسم الخطوط وتحوك التهم • وبهذه المفتريات سيق الفوج الأول من حملة هذه الدعوة إلى السجون ، وملئت بهم أقبية التعذيب ، وأقيمت لهم المحاكمات الصورية لتصدر على قادتهم أحكام الموت •• ولكن المسؤولين عن التنفيذ وجدوا أنفسهم في أمسّ الحاجة إلى تأييد أزهري يكون بمثابة شاهد على صدق مدّعياتهم لدى الجماهير ، التي لا تزال مشدودة المشاعر إلى هذه المؤسسة الإسلامية العريقة•• وسرعان ماجاءت الفتوى باستباحة دماء الإخوان مدعومةً بقوله تعالى : (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا ، أو يصلبوا ، أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، أو ينفوا من الأرض ••• /٥/ ٣٣) ويتكرر مضمون الفتوى بإعدام الفوج الثاني من شهداء الإخوان على الرغم من أن كلاً من الفتويين صدرت في عهد أحد شيخين توليا رئاسة الأزهر ، إلا أن كلتيهما ذيلتا ونشرتا باسم (هيئة كبار العلماء) وإن كان بين هؤلاء من لم يعلم بالفتوى إلا بعد مطالعته إياها في الصحف !• وليقدس الله روح الدكتور محمد عبد الله دراز الذي سمي فيهم • ونشرت صورته معهم دون علمه ، فلم يكتم اعتراضه على ذلك التصرف ، بل أعلنه بكل ما يتاح لكلمة الحق في مثل ذلك الوقت من وسائل الإعلان •

٦ ــ ويضع الطغيان الناصري يده على مرافق البلاد ، ومنها المصارف التي عليها تقوم ركائز التحرك الاقتصادي ، وهو أحوج ما يكون إلى أموالها التي تمكنه من تحقيق خططه في اغتيال الخصوم وشراء العملاء •• ولا بد له في هذه الحال من الاستغراق في عمليات الربا ، وهو أمر لا يزال السواد الأعظم من

المسلمين يستنكره ويحتقر المتعاملين به •• فليلجأ إلى الاستفتاء • وما أسرع ما توافيه الفتاوى المؤيدة على لسان أزهري كبير راح يعلل إباحته بالتفريق بين ربا الفضل وربا النسيئة وربا الأفراد والدولة ، وكان هذا كافياً لإثارة بلبلة لم تخمد نارها حتى الساعة •• ولم يكن شيء منها في صالح الإسلام الذي اعتبر الربا قليله وكثيره من أكبر الكبائر •• وقدر لهذا الأزهري الكبير أن ينقل إلى احد المشافي لاجراء جراحة له انتهت بوفاته •• وقد سمعته وسمعه عشرات الآلاف من الناس يحاور وزيراً جزائرياً كان في طريقه إلى أديس أبابا لحضور اجتماع مجلس الوحدة الإفريقية ، فعاج إلى المستشفى لزيارة الشيخ وكان مما قاله فضيلته يومئذٍ : (أبلغ ابن بللا تحياتي وقل له • إلى متى يظل هذا الدين الإسلامي محبوساً في نطاق الكتب •• ألم يأن لكم أن تفرجوا عنه وتخرجوه إلى التطبيق ؟!••) وغلبه التعب فأمسك قليلاً ••

وما كان أسعدني وأنا استمع إلى هذه الكلمات يحملها الأثير من إذاعة القاهرة ذلك المساء •• إلا أني لم أكد أتمتم بالدعاء للشيخ حتى سمعته يستأنف حواره بقوله : (قل للزعيم ابن بللا إن أخاك جمال عبد الناصر قد عرف طريقه فهو ماضٍ في تنفيذ شريعة الله •• فعليك أن تسلك سبيله وتتعاونا معاً لتكونا القدوة الحسنة لزعماء المسلمين الآخرين ، وما أدري كيف أفسر كلماته هذه ؟•• ولعلها كانت آخر ماتفوه به قبل فراقه الدنيا !••• ومن يدري فقد تكون أمليت عليه من قِبَلِ ذلك (الغريب) الذي يقال انه هو الذي استدرج هذا العالم الكبير إلى المنزلق الخطير الذي لم يطق مزايلته حتى آخر عهده بالدنيا !•••

٧ ــ وشاء الله أن يتيح للشام ومصر ، من بين الأقطار العربية فرصة لتحقيق ما يتبجح به زعماء العرب من تطلع إلى الوحدة الشاملة لبلادهم ••• وقام المتسلطون على سورية بتسليم أزمتها إلى زملائهم المتسلطين على مصر •• فكان ذلك بالنسبة إلى الشاميين فرحة العمر ، إذ وجدوا في تلك الوحدة متنفسهم من الكابوس الذي كان يجثم على صدورهم آنذاك •• وفي غمرة البهجة كتب

الاستاذ احمد حسن الزيات ــ رئيس تحرير مجلة الأزهر ــ في عدد المحرم ١٣٨٣ هـ افتتاحيته التي يستقبل بها تلك المناسبة السعيدة تحت عنوان (أمة التوحيد تتوحد) فكان مما قاله هناك :

(إن الوحدة المحمدية كانت كلية عامة لأنها قامت على العقيدة ، ولكن العقيدة مهما تدم قد تضعف أو تحول ، وإن الوحدة الصلاحية كانت جزئية خاصة لأنها قامت على السلطان والسلطان يعتريه الوهن فيزول .. أما الوحدة الناصرية فباقية نامية لأنها تقوم على الاشتراكية في الرزق والحرية في الرأي والديموقراطية في الحكم .. وهذه المقومات الثلاثة ضمان دائم للوحدة ألا تستأثر فتستغل ، ولا تستبد فتطغى ، ولا تحكم فتتحكم . والأثرة والطماعية والطغيان والحسد كانت ولا تزال علة العلل في فساد الزمان وهلاك الأمم ..)

قد يقال : إن هذا كلام أديب احتواه الخرف ، وقد ساءه أن يسبقه زميله توفيق الحكيم إلى الاندماج في مواكب الهتافين فراح يستدرك مافاته من تمجيد للسفاحين بهذا الهراء المشين .. فتبعته على كاتبه لا يحمل منها الأزهر شيئاً .. والحق أنه رد مرفوض لأن الزيات لم يكتب ذلك اللغو في مجلته الخاصة ، كما سبق له من كتابات في تمجيد فاروق والفاروقيين ، بل نشره في مجلة هي لسان الأزهر ، وكل مقال أو بحث أو خاطرة تحملها إنما هي بمثابة الفتوى المحددة لرأي الأزهر نفسه ، وبخاصة إذا لم يعقب عليها باعتراض يبري ذمته من مسؤوليتها . كما حدث في موقفه من هذا التجديف ، إذ قابله بالصمت ، الذي لا تأويل له إلا بالموافقة أو الكبت ..

وجزى الله عن الإسلام والمسلمين أخانا الشيخ محمود عبد الوهاب فايد خير الجزاء إذ كان الأزهري الوحيد الذي بادر يومئذ للدفاع عن الحق بمقالة إضافية شفت القلوب وأرضت علام الغيوب . ولكن .. كان من الخير للأزهر لو نشرت في مجلته لتخفف بعض مسؤوليته عن ذلك الهجوم الأحمق على دين الله .

ولعمر الحق إن سكوت كبار الرسميين من الأزهريين عن قولة الحق في أمثال هذه المواقف هو الذي جرأ جمال عبد الناصر على اتهام المشايخ بالاستعداد لبيع الفتاوى بالديوك أو الفراخ أو الخراف •• ولم لا يرميهم بهذه التهم وهو يرى أنه لم يقترف قط مخالفة للشريعة الإسلامية إلا وجد بينهم من يهتف لها ، ويسود الصحف والكتب في تأييدها !•••

٨ ـــ وهكذا تتواصل المسيرة العوجاء في تاريخ الأزهر الحديث حتى جاء من يتوجها أخيراً بثالثة الأثافي •• وكانت الأثفية الثالثة هي الفتوى التي أصدرها شيخه الجديد بشأن الصلح الذي أبرمه مشيِّخه مع السفاح الكبير باقر بطون الحبالى في دير ياسين ، والمعلن على مسمع الدنيا في كل مناسبة أن القدس عاصمة إسرائيل إلى الأبد ، وأن الضفة والقطاع جزء لا يتجزأ من وطن صهيون ••

ولقد كان أقل ما ينتظر من رئاسة الأزهر أمام هـــذه الغَدْرَة الهائلة أن تلتزم الصمت مادامت غير قادرة على الاعتراض ، وإذا عجزت عن الصمت تحت ضغط الإكراه فلا أقل من أن تقـــدم تأييدها على استحياء ، وفي معزل عـــن الاستشهاد بالآيات الكريمة والأحاديث الشريفة •• « ولكنها ـــ ويا للأسف ـــ أبت إلا أن تَزِفَّ تأييدها في موكب من التبريكات وفي إطار من التقديسات إذ شبهت معاهدة السادات بيجن بالمعاهدة التي عقدها رسول الله مع مندوبي مكة يوم الحديبية !• وهي كذبة بلقاء يترفع عن قبولها تلميذ صغير أتيح له أن يقرأ تاريخ الحديبية وظروفها التي انتهت إلى كتابة العهد •• وقد كان يكفي المشايخ الذين أقدموا على هذه الفعلة أن يراجعوا قول رسول الله ﷺ لعمر يومئـــذٍ (أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ، ولن يضيعني)[٢] حتى يخجلوا من عبثهم ، إذ يعلمون أن تلك العهدة كانت بأمر من العلي الحكيم الذي لا يخفى عليه شيء في السموات والأرض ، وإن قطعه ﷺ بأن الله لن يضيعه قرار حاسم بأن وراء العهدة وعداً من الله بنصر مؤزَّر •• فأين وجه الشبه بين عهدة أملاها وحي الله على

(٢) سيرة ابن هشام ج٣ ص ٣١٧ ط الحلبي ١٣٧٥ هـ •

نبيه ، وهذه التي أملاها كارتر على صاحبكم في كامب ديفيد ؟•• بل أين وجه التلاقي بين هدنة فتحت النوافذ أمام الدعوة حتى كان عدد الذين دخلوا في دين الله خلال سنتين من توقيعها أضعاف من أسلموا خلال المرحلة المكية كلها ، وبين اتفاق أعطى مفسدي العالم حق الانطلاق الآمن لتدمير اقتصاد مصر وافريقية • وتحطيم البقية الباقية من مقومات الأخلاق •

٩ ــ وليت هؤلاء المفتين قد اكتفوا بذات الادعاء المضلل وسكتوا •• ولكنهم أبوا إلا التمادي في تعالمهم ، فراحوا يحتجون لصاحبهم بقول الله • (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ••) فيفسرون استجابة بيجن لدعوة التفاوض بأنها جنوح من اليهود إلى السلم •• وقد تناسوا أن جنوح العدو للسلم يقتضي رده المظالم وخضوعه لقانون العدالة ، على حين يرون إليه يهدم مخيمات اللاجئين المشردين على رؤوسهم صباح مساء ، ويعلن بكل وقاحة ملكيته الأبدية للأرض التي اغتصبها من وطن الإسلام !••

ولا مجال للقول بأنهم لم يفهموا من الآية أبعد مما ذهبوا إليه وهم الذين يحملون أرقى الشهادات الدراسية في معاني القرآن والحديث ، ولا يتصور أنهم لم يطلعوا على فهوم أقطاب المفسرين من السلف لمضمونها ، ولكنهم يعرفون ويحرفون فهم يؤثرون الأخذ بظاهر اللفظ تقرباً إلى ذوي السلطان ، وتغريراً بالعامة الذين يريد صاحبهم ترويضهم على الهتاف لكل عمل يأتيه ولو كان هذا العمل حرباً لله ولرسوله وللمؤمنين •• ولقد حققوا ــ ويا للأسف ــ كثيراً من النجاح في هذا المنزلق حتى أن الإذاعات العالمية لتنقل إلى الملايين من مستمعيها أخبار عمال القناة وموظفيها ، وهم يستقبلون قطع العدو الحربية بالتصفيق الحاد ، ويرددون مع راكبيها من البحارة والجنود : شالوم •• شالوم !••

فويل لهؤلاء المضللين مما كتبت أيديهم ، وويل لهم حين يساقون إلى ربهم حاملين أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ••

١٠ ــ على أن ذروة الكارثة في عقول القــوم إنما تتمثل في الغفلة التي تصرفهم عن التفكير في ملابسات القضية التي يفتون بها •• ومن الغفلة ما يقذف بأهله في سخط الله حتى ليستحقون أن يقول فيهم سبحانه :

(ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس • لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالانعام بل هــم أضل ، أولئك هم الغافلون ٧/١٧٩) •

وإلا ولولا الغفلة التي عطلت قلوبهم عن الفقــه ، وأعينهم عــن البصر ، وآذانهم عن السمع •• لولا هذه الغفلة كيف يتصــور نسيانهم ذلك القــرار التاريخي الذي صدر عن لجنــة الفتوى بالأزهر نفسه يوم ١٨ ج١ من عــام ١٣٧٥ هـ وبإجماع من ممثلي المذاهب الأربعة ، وفيه القول الفصل بأن (الصلح مع اسرائيل لا يجوز شرعاً لما فيه من إقرار الغاصب على الاستمرار في غصبه ، والاعتراف بحقية يده على ما اغتصبه ، وتمكين المعتدي من البقاء على عدوانه•• فلا يجوز للمسلمين أن يصالحوا هؤلاء اليهود الذين اغتصبوا أرض فلسطين واعتدوا فيها على أهلها وعلى أموالهم ، على أي وجه يمكن اليهود من البقــاء كدولة في أرض هذه البلاد الإسلامية المقدسة ••• بل يجب عليهم أن يتعاونوا جميعاً على اختلاف ألسنتهم وألوانهم وأجناسهم لرد هذه البلاد إلى أهلها وصيانة المسجد الأقصى مهبط الوحي ومصلى الأنبياء ••• ومن قصر في ذلك أو فرط فيه أو خذل المسلمين عنه ، أو دعا الى مامن شأنه تفريق الكلمة وتشتيت الشــمل والتمكين لدول الاستعمار والصهيونية من تنفيذ خططهم ضد العرب والإسلام ، وضد هذا القطر العربي الإسلامي ، فهو في حكم الإسلام مفارق جماعة المسلمين ومقترف أعظم الآثام •• وأما التعاون مع الدولة التي تشد أزر هذه الفئة الباغية وتمدها بالمال والعتاد وتمكن لها من البقاء في هذه الديار فهو غير جائز شرعاً[٣] •)

والمفكر الذي يطالع هذه الفتوى ومعه عقله ، وفي ذاكرته مسلسل الأحداث

---

(١) انظر مجلة الازهر ص ٦٨٢ ــ ٦٨٤ من المجلد ٢٧ وراجع نص الفتوى كاملة في هذا العدد •

التي تحيط بقضية فلسطين وبمعاهدة السادات بيجن ، لا بد أن يرى مدى انطباق أحكامها على هذه المعاهدة المخزية ، بل لا بد أن يرى من خلالها دقة الملامح التي تحدد شخصية الرجل الذي بادر إلى عقدها ، ففرق الكلمة وشتت الشمل وفارق الجماعة ومكن للفئة الباغية من البقاء كدولة في الأرض المقدسة ، ومع ذلك نجد بين مشايخ الأزهر ـ صاحب هذه الفتوى القاطعة المانعة ـ من يجرؤ على قلب الوقائع ، فيسمي كل شيء منها بضده ويطلق على صاحبها أغرب ألقاب الأبطال !..

وهل من تفسير لذلك سوى الغفلة التي ذهبت بألباب القوم حتى نسوا أنهم ، بمناقضتهم لقرار أسلافهم من شيوخ الأزهر ، يحرضون المسلمين في العالم على سحب ثقته من هذه المؤسسة العزيزة على كل مسلم !..

١١ ـ وعندما نعرض لذكر الثقة لا نجد مندوحة عن الإشارة إلى بعض العوامل التي ساعدت على إضعافها في جمهور المسلمين بإزاء الكثرة من هؤلاء الشيوخ . فمن البديهيات الأولى أن يكون رجل العلم الإسلامي ممثلاً للقيم التي يدرسها ويوضح أحكامها لطلبته والمستمعين إلى مواعظه وإرشاداته .. ولن تجد سبباً لإخفاق هذا الطراز من المدرسين أشد فاعلية من التباين بين سلوكه ودروسه .. ولقد اثبتت الوقائع المشهورة أن الكثرة من هؤلاء الشيوخ هم في غفلة مطبقة عن هذه الحقيقة لأن المسافة بين ما يقولون وما يعملون ، قد باتت شديدة الاتساع ، بل إنها لتزداد كل يوم انفراجاً . وسأكتفي من ذلك ببعض الشواهد غير المجهولة :

هبطتْ ذات يوم أم وابنتها في مطار مقديشو عاصمة الصومال ، ولم يكن هناك من يعرفهما ، فاستضافهما المدير إلى مكتبه ريثما يصل من تريدانه .. ولم يطل انتظارهما إلا قليلاً حتى وافاهما .. فإذا هو المندوب الأزهري الذي يستهوي قلوب الناس وأسماعهم في المسجد الكبير .. فشكر المدير على تلطفه وقدم إليه المرأتين على انهما زوجته وابنته . وشدّ ما أدهش المدير ذلك التقديم

لأن مظهر المرأتين كـان على النقيض من الفضائل الإسلامية التي يدعو إليهـا الشـيخ ..

حدثني بهذه القصة مندوب الجامعة الإسلامية في مقديشو أيامئذٍ ... ولما قصصتها على أحد الأصدقاء قال لو شئت لرأيت أغرب من ذلك في جوازات العديد من الزملاء الأزهريين المتعاقدين للتدريس في مختلف الأنحاء والأقطار، وليس هذا وذاك سوى نسخة مختصرة من مشاهد هؤلاء الفضلاء مع زوجاتهم وبناتهم في شوارع القاهرة .. قلت : ومن هنا جاء الهجوم الشرس على الحجاب الإسلامي ، إذ كان في سلوك الكثرة من الأزهريين بإزائه ما يدفع أشد النـاس تحرجاً إلى استبعاده من حياتهم .. كيف لا .. وهؤلاء أحق الناس بالتـزام شريعة الله ، فلو كان للحجاب أي حق في الاستمرار لما تخلوا عنه !. ولعل كثيرين من القراء قد جاءه نبأ الدكتورة بنت الشاطىء يوم تقدمت لإلقاء محاضرتها في جامعة الأزهر ، فأراد الشيخ محمد أبو العيون — وكيل كلية أصول الدين — أن يذكرها بأدب الإسلام ، فانتزع محزمه من وسـطه وبسطه ثم وضعه على رأسها .. فما كان منها إلا أن طرحته في غضب ثم أقبلت على حديثها حاسرة الوجه والرأس دون أن تجد محاولة الشيخ من زملائه أي اعتبار ..

ولا أحدثك عن اللحى وموقف القوم منها ، فهم معها أبداً في صراع ، كلما حاولت الإطلال من خلال وجوههم بادروها بالمعط فلا يسمحون لها بالظهور ، إلا إذا اضطرهم إلى ذلك تعاقد مع مؤسسة تشترط في مدرسيها المظهر الإسلامي حفاظاً على التزامه في أوساط الطلاب ، ولكن ما إن يحين موعـد عودتهم إلى بلدهم حتى يعودوا إلى اقتلاعها نهائيا .

ومن بدائه الأمور أن ألفة الصغير من الأخطاء تعتبر السبيل للكبير منهـا فالأكبر . وهكذا أدّى تساهل المسؤولين من الشيوخ في الصغائر إلى استصغار الكبائر .

وإلا فمن كان يتخيل أن تصل التقدمية في بعض شيوخ الأزهر الى أن يكون منهم من يفتي بالإفطار في رمضان ، ومن يدبج أحر المراثي في ستالين ، وأخيراً من ينشىء المقالات لـ (روز اليوسف) في معارضة تطبيق الشريعة الإسلامية !..

١٢ ــ ذلك هو الوضع الذي آل إليه هذا المعقل الإسلامي العريق ، بعد أن صمد في وجه الأعاصير القرون الطوال .. وإنه لوضع مفجع دفع أصحاب الأقلام المؤمنة مكرهين إلى التهجم على علمائه بأقذع الألفاظ .. اذ كادوا ــ وكدنا معهم ــ نيئس من كل أمل بإصلاحه ، لولا بقية من صالحي أشياخه ، صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً ، ولولا نخبة من افاضل طلبتهم مستهم أخيراً نفحة من اليقظة التي هبت على مصر من أوساط الجامعات العملية والعلمية الأخرى فهبوا للإسهام في نصرة الإسلام بكل ما يملكون من طاقات الشباب والإيمان .

فبهؤلاء وأولئك يتحرك الأمل الجديد ببعث للأزهر جديد ، يؤمن له العافية ويمكنه من استرداد مركزه الطبيعي من قيادة المسيرة الإسلامية . ولكن علينا أن نتذكر أن كل محاولة لتجديد الأزهر لا تستهدف تحريره أولاً من ربقة الحكام مكتوب عليها الإخفاق الذريع .

فمن هنا إذن فليبدأ المصلحون .. ومن هذا المنطلق فليعملوا حتى تتوافر للأزهر الشخصية المستقلة في كل شؤونه ، وبخاصة من الناحية المالية والإدارية ، كيلا يطمع قوي في حيفه ، ولا ييئس ضعيف من عدله .

ولن يستكمل الأزهر مع ذلك شروط استقلاله حتى يكون خالصاً للعالم الإسلامي كله ، لا ملكاً لبلدٍ بعينه . وهذا يقتضي أن يكون مجلسه الأعلى مؤلفاً من أكابر علماء الإسلام ، بشرط أن ينتخب كل منهم من قبل علماء قطره .. وبنفس الطريقة يتولى هؤلاء العلماء اختيار الشيخ الأكبر بالانتخاب

الحر ، دون تقييد لهويته أو لونه أو دولته •• وللشيخ الأكبر هذا أن يختار بدوره العلماء الصالحين للفتيا ، فيصدر قراره بتعيينهم •• وعند الحاجة يقرر عزلهم وتعيين غيرهم •

وسيكون لهذا المجلس الأعلى دستوره الذي يعيِّن حدود عمله ، وطريقة اجتماعه وانفضاضه ومدى صلاحياته •• وما إلى ذلك من شؤون هو أدرى بها وبحاجة التنظيم إليها •

ولا جرم أن مجلساً كهذا سيكون خليقا بتمثيل المعاني الإسلامية، وسيمتد أثره إلى كل مؤسسة تعليمية تعنى بنشر الدعوة الإسلامية والثقافة الإسلامية في مختلف أنحاء العالم •

وأخيراً سيكون من بركات هذا المجلس الحر المستقل ألا يظفر برئاسته إلا الحقيق بها علماً وإخلاصاً وتفانياً في خدمة الإسلام •

ويومئذٍ لن يكون في الأزهر الشيخ الذي يقدس حمار الأمير •• ولا الشيخ الذي يستقبل بالإكبار والإكرام قتلة المسلمين •• ولا الشيخ الذي يجعل من الحاكم ــ الذي يرفض الحكم بما أنزل الله ــ الرجل الذي لا يسأل عما يفعل •••

ولئن كان مثل هذا التصور ألصق بالأحلام منه بالوقائع ، فلنتذكر أن الاحلام الكبيرة هي الدافعة أبداً الى الحقائق الكبيرة •

والله الموفق والمستعان ، ولا حول ولا قوة إلا به ••

* * *

دروس من الفتنة

الغرور والغلو والعلم الناقص

هي الدوافع الخلفية لمأساة الحرم المطهر



قضت الحكمة الالهية ان تكون حياة الانسان على هــذه الارض سلسلة متصلة الحلقات من المعارك ، مــع الشيطان وذريته من جانب ، ومــع غرائزه وشهواته من جانب آخر ، ثم مع حاجاته المتجددة أبدا الى الضرب في أكنــاف الأرض • وهو في كل ذلك معرض لأصناف المحن والفتن التي تسلبه الطمأنينة ، فلا ينفك فريسة للقلق والروع حتى يجــد منفذا يقربه من السلامة ولو عــن طريق الوهم •

ونظرة واعية الى واقع البشر في هذه الايام تؤكد لنا هذه الحقيقة ، اذ ترينا البسيطة على امتدادها مسرحا لألوان الأهوال ، لا يكاد يسلم من لذعها كائن ولو عاذ بالقمم او غاص في الخضم •• وليس أسعد للانسان في مثل هذا الجو الرهيب من ان يعثر على منطقة أمان تهب له فرصة التخلص من قلقه ولو الى حين •

وعلى ضوء هذا الواقع المشهود ندرك قيمة الهبة العظمى التي خص الله بها هذه البقعة من الارض ، حين اقام فيها بيته العتيق ، وجعلها مثابة للنــاس وأمنــا •

ولقد شاء الله جلت حكمته ان يستأثر عرب الجزيرة بهذه النعمة منذ قيــام هذا البيت المطهر دون سائر أرجاء العالم ، فكان لهم كالواحة الخضراء في جديب الصحارى ، يأوون اليه كلمــا أحــاط بهم الرّوع ، وضــاق عليهم الرحب ، فيستروحون في ظله نفحات الأمن الذي عز توافره في غيره ، حتى ليلقى الرجل في كنفه قاتل أبيه أو أخيه أو ولده ، فلا يفكر في النيل منه ، توقيرا لبيت ربــه وذكرى أبويه وبانييه ابراهيم واسماعيل (ع) •• بل ان الجاني لَيحصِّنُ نفسه من عدوان غرمائه بمجرد اتخاذه قلادة من لحاء الحرم يطوق بها عنقه ، فلا تمتد اليه يد بما يكره مادام يحمل أثرا من ذلك الشعار ، شعار السلام •• ومن هنــا كان الخروج عن هذا المألوف شذوذا عن قيام الفطرة في أوساط أولئك الجاهلين،

حتى ليعتبرون مجرد الاقدام عليه ضربا من الفجور المجمع على إنكاره • وهكذا يكون العدوان على حرمة البيت العتيق ، في عرف أهل الجاهلية ، عدوانا على الحياة نفسها لا على الانسان وحده •

وقد حاول مشركو قريش ان يُسَوِّغوا إحجامهم عن قبول الدعوة الاسلامية بالخوف من انقلاب العرب عليهم ، ظنا منهم ان تقديس العرب لذلك البيت انما مرده الى تقديس قريش لآلهتهم المنصوبة عليه (وقالوا ان نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا) فجاء الرد الالهي على ذلك الزعم تذكيراً لهم بأن الفضل لله وحده في توفير كل هذا الخير لجيران بيته (أولم نُمَكِّن لهم حرماً آمناً يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا / ٢٨ ـ ٥٧) •

وما أجل وأروع تلك الصورة التي يتملاها العقل المؤمن في قوله تعالى لهؤلاء المجادلين بالباطل في سورة العنكبوت (أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويُتَخَطَّف الناس من حوله !•)

انه لمشهد التباين الهائل بين واقع الارض التي اجتاحتها أعاصير الفتنة حتى لا يفي برسمها الا صورة الناس ـ كل الناس ـ يُتَخَطَّفون خلالها ، الى جانب الواحة المحروسة بحدود الله ، وقد جعل لكل داخلٍ اليها الحق كل الحق في أن يكون آمنا •••

هذه النعمة الكبرى ، نعمة الأمن ، التي استأثر بها عرب الجاهلية وفقدتها سائر شعوب العالم من قبل ، قد أصبحت بعد فجر الاسلام حقا مشاعا لكل مؤمن من بني آدم تهوي افئدتهم الى البيت وتنطلق زحوفهم نحوه من كل حدب وصوب ، ليتعارفوا في ظله فيأتلفوا • وليذكروا اسم الله في أيام معدودات ومعلومات على ما رزقهم من أصناف الخيرات ، ثم يرجعوا الى ديارهم كيوم ولدتهم امهاتهم ، فرحين مبتهجين بما أكرمهم ربهم من زيارة بيته ، وبما وفقوا اليه من أداء الشعائر ، وبذل المَبَرّات ، والتَطَهُّر من الآثام ، فهم

كما وصفهم النبي أشعياء (مَفْدِيّو الرب يرجعون بترنم ، وفرح أبدي على رؤوسهم ، ابتهاج وفرح يدركانهم ويهرب الحزن والتنهد[1]) .

هذا الحرم المطهَّر الذي جعله الله مثابةً للناس ، يثوبون اليه بين الحين والآخر ، ليستمتعوا في ظله بدفء العافية والهدوء في معزل عن الشقاق والشحناء، اللذين يزحمان مسالك الارض ، وأتم نعمته عليه بأن ألزم وارديه ومجاوريه موجبات الأمن التي تجدد ما رثَّ من وشائج الأخوَّة الانسانية .

هذا الحرم الآمن ... أليس من غرائب المفارقات أن يعدو بعض الناس على حرمته ، فيعكروا صفوه ، ويخرِّبوا أمنه ، فيجنوا بذلك على أنفسهم أول ما يجنون ، وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا ؟.

أجل لقد وجد الشيطان خلال التاريخ غير واحد من جنود الباطل يرتضون أن يمتطيَهم للاساءة الى بيت الله ، الذي أقامه الله لاستقبال الوافدين اليه من عباده المتقين ، فيردهم الى ما فقدوه من حقيقتهم ، ويتجلى عليهم بالنفحات القدسيات التي تفيء عليهم بما سُلِبوه من هناءتهم ..

ولم يقتصر ذلك على ظلمات الجاهلية ، بل تجاوزها الى تاريخ الاسلام أيضا ...

لقد بدأ أول عدوان في الجاهلية على كرامة هذا البيت بيد عمرو بن لُحَيّ ، يوم رفع فوقه صنمه الذي استورده من بلاد الروم ، وما زال حتى أغرى الناس بالاستشفاع به الى الله ... فكان ذلك مبدأ الزيغ عن ملة ابراهيم، اذ ما لبث الطواغيت المتتابعون على طريقه ان ملؤوا شرفات البيت المطهَّر بهذه الأرجاس ، الى ان شاء الله ان ينكّسها فيكنسها بيد خاتم رسل الله محيي ملة ابراهيم محمد ﷺ ..

ثم تلا ذلك زحف أبرهة ، الذي ركبه الغرور فآلى ليهدمنَّ أول بيت وضعه

---

(١) كتاب أشعياء صح ٣٥

الله لعباده في مكة مباركا ، كي يصرف عنه العرب الى قُلَّيسِهِ التي أقامها هو لهم في دارة ملكه . فاذا هو وفيله وكتائبه المغرورة كعصف مأكول ..

وتشرق الارض بنور الاسلام ، ويسترد البيت مكانته الابراهيمية حنيفا خالصا لله وحده ، وكان من حقه ان يستمر على هذا الخط الرباني مادام للإسلام سلطان يحكم مجرى الاحداث ، وتهفو اليه قلوب أهل الحق .. الا أن الشيطان الذي أخزاه الله على أيدي القلة الاولى من تلاميذ النبوة ، لم يلبث ان وجد الثغرات في بناء الأجيال التالية ، فعشَّش وباض وفرخ ، ثم زين لمبِيرِ ثقيفٍ أن يسلط على بيت الله مجانيقه التي صدعت البَنِيَّة المكرمة ، وقد ألقى على لسانه حجَته الإبليسية الداحضة ، التي تقول بأن هدمه للبيت كان خدمة للاسلام ، كي يتمكن من إعادته إلى حجمه الذي عهده الناس أيام رسول الله والراشدين من بعده . وما أحسبه الا قد علم يقيناً انالصَّحابيَّ الجليل سليل الصحابة الأجلة ، عبد الله بن الزبير ، لم يتجاوز رغبة نبي الله ﷺ بتوسعة البيت حتى يشمل حِجرَ اسماعيل عليه السلام ولكنها الدنيا التي أعماه حبها فلم يفرق بين مرضاة الله وغضبه .. فكان ذلك من الطاغية أول خرق في حرمات البيت يشهده تاريخ الاسلام .

وما هي الا حقب قصيرة حتى تلا تلك الهجمة العاتية طغيان صنائع المجوسية ، من القرامطة الذين اقتحموا ساحة المسجد عام ٣١٧ هـ بقيادة شيطانهم الأكبر سليمان الجنابي ـ ابو طاهر ـ ففتكوا بالآلاف من عُمَّاره ، ما بين طائف وراكع وساجد ، وقتلوا الآلاف من ابناء مكة ، وسبوا الآلاف من نسائهم وذراريهم ، ثم عادوا بالحجر الأسود الذي انتزعوه من الركن الذي أنزله فيه رسول الله ، ليجعلوه في بناء مزوَّرٍ دعوا سفهاءهم للطواف به على طريقة أبرَهةَ من قبل(٢) .

وغير بعيد من ذلك العهد جاء العدوان الثالث عام ـ ٤١٤ ـ على يد

---

(٢) انظر (تاريخ الكعبة المعظمة) لحسين عبد الله باسلامه ص ١٥٣و١٥٦و١٥٧ ط ٢.

مصريّ عُتُلٍّ من ملاحدة اليهودي بن كِلِّس مؤله الحاكم المجنون •• فبينما الناس في غمرة من الخشوع لجلال الله حول بيته ، اذا هو يستل دبوسا من الحديد فيهوي به على الحجر الأسود •• وكانت مؤامرة أريد بها استكمال ما بدأه اللعين أبو طاهر من قبل ، ولكن الله سلم ، فأحيط بالمجرم ومن معه من الفرسان فقُتِلوا عن آخرهم(٣) •

واليوم •• على مقربة من خاتمة القرن الرابع عشر يروَّع عالم الاسلام بالفاجعة ، التي كادت تُعفّي على سابقاتها الفواجع •

لقد حدثت الفظائع الاولى في عهود المواصلات البطيئة ، فانحصر أثر كل منها في نطاق البيئة المتقاربة ، ثم لم تتسرب أنباؤها الى الابعاد الا بعد فوات المناسبة ، وعقيب برود الجراح ، حيث أفضت الى الجماهير عن طريق المسافرين والمؤرخين ليعيدوا الفكر في ظروفها ودوافعها ، ويستخلصوا من دروسها العبر التي لا تنسى •

أما قارعة اليوم فقد اقتحمت قلوب الناس وأسماعهم منذ انفجارها عن طريق البرق والعواكس الفضائية ، فكانت كالزلزال الضخم ما كاد ينطلق من مركزه حتى انتشرت زواحفه علىا متداد الساحة المتصلة به ، تلك الساحة التي تشمل أرجاء العالم الإسلامي كله دون استثناء ••• ويا لهول ما غمر ذلك العالم من ذهول وهو يتلقى أنباء الحدث العظيم !••

ولعمر الله ما كان شيء من ذلك الذهول الرهيب بعجيب •• وكيف •• ولِمَ ، والنازلة إنما تحل في أقدس أقداس هذا العالم •• في أول بيت وضع للناس ، في البقعة التي حرسها الله ، فجعلها مأمن الخائف ، وأنس الشريد ، وملاذ الطريد •• في القبلة التي تشد المسلمين بروابط الوحدة والأخوة صباح مساء •• في المثابة التي يفيئون إليها كلما ادلهمّت الأحداث ، وتعرضت وشائج الأرحام لبوادر الجفاف •

---

(٣) انظر (تاريخ الكعبة المعظمة) لحسين عبد الله باسلامه ص ١٥٣و١٥٦و١٥٧ ط ٢

وقد ضاعف من وقع النكبة في البيت العتيق ذكريات لم تبرد جذوتها بعد عن مصير أخيه المسجد الأقصى ، ومحاولات العدو التي لم تتوقف قط منذ اسبوع العار ، لازالة معالم الاسلام من حوله ومن تحته ، ولا سيما ان روائح محاريبه وقبابه المحترقة بنيران الغدر اليهودي ما تزال تملأ صدور المسلمين ، فتجدد شعورهم بهول المأساة التي لا تزداد على الايام إلا تضخما وتفجرا •• وشتان بين جريمة يقترفها بحق المسجد الاقصى أحفاد القرود من سلالات قريظة والنضير وقينقاع ، فلا يستغرب صدورها عن قَتَلَةِ الأنبياء وسدنة الفساد العالمي ، وأخرى تحمل كبرها طائفة تزعم انها وقفت نفسها للدعوة الى الله ، وللذياد عن ملة رسول الله ﷺ •• ومن هنا جاء حجم الجريمة مضاعفا اضعافا كثيرة ، إذْ كانت حتى الساعة بمثابة القمة بالنسبة الى سائر أشكال العدوان ، التي تعرض لها البيت الحرام في الجاهلية وبعد الاسلام •• فواأسفاه وواحسرتاه، ووا حزن أمتاه !••

* * *

وبعد •• فمن هم هؤلاء الأشقياء الذين بلغت بهم القِحة والتهور والاستهتار بكرامة كل المسلمين ، في مشارق الارض ومغاربها •• الى حد الاقدام على كل هذه الفجائع التي تعجز عن ممارستها أمة من الشياطين ؟•••

أسفهاء طمس الجهل بصائرهم ، فلم يفرقوا بين حلال وحرام ، ونور وظلام ؟•••

أم هم حملة علم ضل بهم الطريق ، فانزلقوا في هاوية (بلعام) الذي آتاه الله آياته ، فعجز عن الارتفاع بها الى الملأ الأعلى ، فأخلد الى الارض واتبع هواه !•

ألا إن فيهم لملامح من هؤلاء وأولئك ، إلا انهم سبقوا الفريقين في كبر جنايتهم على أنفسهم ، بعد جنايتهم على أمن المؤمنين .

اما انهم السفهاء الذين عميت قلوبهم ، وزيَّن لهم الشيطان أعمالَهم .. فذلك مالا يتطلب برهانا ولا دليلا ، لان السفه أبرز معالمهم .. بل إن مجرد تسللهم بالسلاح الى بيت الله وإغلاقهم أبوابه بوجوه الوافدين عليه من المصلين والقارئين والمعتمرين ، انما هو دليل على انهم لا يعدون ان يكونوا مجموعة من المجانين أو المنتحرين .. وكفى بهذا آية تؤكد براءة العلم من تصرفاتهم التي لا يقرها عقل ولا دين .

ان قادة هؤلاء السفهة قد مارسوا القراءة من قبل ، وحفظوا غير قليل من الكتاب والسنة ، وكتبوا بعض رسائل أودعوها خلاصة ما استقر في قلوبهم من الأفكار التي كشفت شذوذهم ، وانحرافهم عن سواء السبيل ، فاذا أبرز سماتهم العناد والغرور . الذي عشَّى على بصائرهم ، فأراهم كل فهم انتهى اليه كبار علماء العصر خطأ بل ضلالا لا يستحق بنظرهم سوى الرد والرفض ، تماما كما فعل قَتَلَةُ ذي النورين (رضي) الذين غسل المضللون ادمغتَهم ، من كل أثر للوعي الاسلامي السليم ، وشحنوا قلوبهم بالكراهية للخليفة المظلوم ، حتى باتوا كما وصفهم هو بقوله (أراهمني الباطل شيطانا) فقد نسوا كل سابقة ، لصاحب رسول الله ، وانقلب بنظرهم وبايحاء موجّهيهم مَحض شيطان ، والعياذ بالله .

أجل لقد مضى هؤلاء وأولئك من الدهماء وراء مضلليهم ، مسلوبي الارادة والتفكير ، أشبه بالضرير الذي أسلم قياده الى شيطان يتلعب به كما يشاء ، فأعادوا بذلك دور اسلافهم من اتباع الفتنة ، الذين بلغ بهم الضياع حد استباحة حرم المسلمين واهدار دمائهم ، فاذا وقع في أيديهم أحد من أهل الكتاب لم يمسوه بسوء ، بل اكتفوا باسماعه القرآن ثم أبلغوه مأمنه .. ذلك بانهم لم يفقهوا من الإسلام الا مادسَّه في أذهانهم طواغيتهم ، فهم من اكثر المسلمين ملازمة لكلام

الله وحديث رسوله ، الا انهم أبعد الناس عن نور العلم الحق ، الذي يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ..

أنا لا أريد التعرض لدواخلهم ، فأحكم على عقائدهم بالسداد أو الفساد ، فالمغيَّب لله وحده ، وليس لنا سوى المشاهد من الأعمـال ، وهو هنـا كاف لإدانتهم بالجريمة دون اي اعتبار لما وراءه من ألوان النوايا ..

وما أرى حاجة لمحاكمة أفكارهم بشأن المَهْدِيّ ، بعد ان أشبعها علماؤنا بحثا وتدقيقا ، فنحن مع أهل العلم في اثبات ظهوره ذات يوم على الوجه الذي حدده الخبر النبوي الصحيح ، وهو تحديد بالغ الوضوح بحيث لا يحتمل اي شبهة الا عند أدعياء المعرفة ممن لا ينظرون أبعد من انوفهم . وقد أثبت هؤلاء المغرورون انهم هم الأدعياء حقا ، وإلا فكيف يفسرون دخولهم بالسـلاح الى البيت العتيق ؟. وكيف يؤولون إغلاقهم ابوابه دون الناس ، وهم يقرؤون في كتابه الخالد : (ومن أظلم ممن منعَ مساجدَ اللهِ ان يُذكر فيه اسمه وسعى في خرابها !.) وبأي تعليل يسوّغون تجمعَهم على تلك الصورة القتالية ، بعـد ان فضحوا أنفسهم من خلال خطبهم المسجَّلة ، وهم يوزعون الأوامر على أعوانهم من حَمَلة السلاح ليتخذوا مواقعهم هنا وهناك وهنالك ، على المآذن ، وفوق السطوح ، وفي زوايا المسجد ، مما يقطع بأنهم قد خططوا للصدام منذ اللحظة الأولى ، على الرغم من إعلان رسول الله ﷺ يوم الفتح ان الله قد أباح له مكة ساعةً من نهار ، ولن تباح لغيره بعد ذلك إلى الابد . ويستحيل على مَعْنِيٍّ بخبر المَهديّ ، الى الحد الذي أوضحوه في رسائلهم ، ان يفوته الاطلاع على هذا الحديث المشهور(٤) وما يحمله من انذار خطير لكل من تسول له نفسـه العبث بأمن البيت ، بل بأمن مكة المكرمة كلها ... فكيف إذا ذكرنا وعيدَ العزيز الحكيم في شأن بيته الكريم (ومن يُرِدْ فيه بإلحادٍ بظلمٍ نُذقْه من عذابٍ

---

(٤) سيرة ابن هشام ج٢ ص ٤١٥ ط ٢ الحلبي . وقد ساق ابن كثير الحديث عن البخاري — البداية والنهاية ج٤ ص ٣٠٥ ط المعارف والنصر

أليم ٢٢ ــ ٢٥) وقد فهم أولو العلم من ذلك ان مجرد الهم بسوء في بيت الله كاف لاستيجاب العذاب الموعود ٠

ثم اني لا أدري لماذا تقفز الى ذهني ، وأنا أفكر في حركة هؤلاء المغرورين، صور أسلافهم من الخوارج الذين حبسوا بصائرهم في نطاق الاخطاء التي شاهدوها أو توهموها ، فلم يجدو سبيلاً للإصلاح الا في القضاء على القادة الثلاثة في عواصم الاسلام الثلاث ٠٠٠٠ وسرعان ماتتابعوا في هذا المنحدَر يفتعلون الأحداث ، ويحدثون الفتوق ، ويعطلون الطاقات الاسلامية عن مواصلة الجهاد لنشر دين الله واقامة شريعة الله ٠٠٠ وهم مصرون على غرورهم بأنهم وحدهم حماة الإسلام ، وكل من عداهم فأعداء لله ورسوله ٠٠٠٠٠

وما أكاد أفرغ من هذه المشاهد الموجعة حتى أجدني تلقاء صور متلاحقة من وقائع الرعب المعاصرة التي توشك ان تعم الدول كلها ، فتطغى أنباؤها على سائر الحوادث العالمية الأخرى ٠ ان ثمة جيلا من الشذاذ ، تباعدت مصادر هُوياتهم من أقصى الشرق الى أقاصي الغرب ، ولكنهم تلاقوا على أمر واحد ، وهو الكراهية لأوضاع المجتمعات التي يعايشونها ، ثم التعبير عن ذلك بالتجرد للعنف ، فهم اليوم مصدر بلاء غير محدود على شعوبهم ، التي سُلِبتْ نعمةَ الاطمئنان ، فهي تتخبط من تصرفاتهم في ظلمات من القتل والخطف والارهاب تستثير الشفقة من كل انسان له قلب ، أو القى السمع وهو شهيد ٠٠

ومن حق هذه المشاهد على تباعد أزمنتها ، وتباين أغراضها ، أن تتداعى في خيال المفكر ، لما يربط بينها من وحدة في الخلفيات غير المنظورة ٠ ذلك ان النقمة من الواقع كانت هي الشرارة التي فجرت في اعماق الجميع رغبة التغيير ، ثم اختلفت بهم السبل ، فسلك كل فريق منهم الاتجاه الاقرب الى طبيعته ونشأته ، مع بقاء الكل اسارى نظريتهم السوداء ، اذ لم يستطيعوا الارتفاع عن تصورهم المحدود ، الذي لا يؤمن بأن في الحياة وسيلة للاصلاح خارج نطاق العنف والكراهية ٠

انه الغلو والغرور ، الغلو في التشاؤم الذي يضخِّم بـه الشيطان حجم السيئات حتى تحجب عن عيني المتشائم طيفَ كل حسنة .

ثم الغرور الذي أفسد مقاييس أصحابه ، فضيَّق عليهم مجال الرؤية ، فلا يبصرون شيئا وراء منظورهم الكالح الكريه .

واذا كان لإرهابيي أوروبة وأمريكة واليابان والصين وما إليها بعض العذر في جنوحهم للجريمة ، بسبب فقدانهم أنوار الوحي ، وتخبط أممهم في أوحال الفجور والطغيانِ ، فأي عذر للمسلم في سلوك متاهات هؤلاء الكافرين ، وبين يديه الصراط الـذي لا يضل سالكه ، وأمامه الدليل الـذي لا يبرح يذكِّره بمسؤوليته نحو أولئك الجانحين ، وبرسالته التي هي الرحمة المهداة للعالمين .

بلى ... إنه الغلو والغرور ..

وقديماً أخرج الغلو أمما من عبادة الله الى عبادة الحجارة ، نحتوها تماثيل لصالحيهم لِتذكّرهم بفضائلهم كيلا يفارقوها ، ثم زيَّن لهم الشيطان اتخاذها آلهة من دون الله ... كما زيَّن للمخدوعين من المتأخرين اتخاذَ شيوخهم آلهةً، لا يعصون لهم أمرا ولا يخالفون لهم نهيا .

وقبل ذلك كان للغرور سلطانه على نزيل الملائكة فأخرجه من رحمة الله الى غضبه ، واخرج به قرونا بعد ذلك كثيراً من جنة الطاعة الى جحيم المعصية ، التي أحالت الحياة البشرية مسرحا للصراع لا نهاية له ، مادام هناك انسان وشيطان .

ولعمرُ الحق إن لفحة من هذا الغرور وذلك الغلو قد أصابت بلوثتها بعض ذوي الغيرة من أصحاب (القلوب الطيبة) فراحوا ــ عقيب الفتنة ــ يثيرونها شعواء على الجامعـات الاسلاميـة ، ودعـاة السلفيـة ، والملتزمين بالسنة النبويـة ، حتى سمحوا لأنفسهم بتحميلهم مسؤولية الانحراف ، الذي زيَّن لأصحابه ذلك العدوان الأثيم على حرم الله .... ولو هم رجعوا الى عقولهم ، عصبيتهم ، لردوا كل اتهام من ذلك النوع الذميم ، ولرددوا مع سلفهم قول ربهم العليم الحكيم ، (سبحانك ... هذا بهتان عظيم) .

وبعدُ فان في كارثة الحرم التي زلزلت ضمائر المسلمين في كل مكان ، لدروساً كبيرة جديرة بأن تثير في صدورنا العميق من التأملات ، والكثير الكثير من التطلعات ... ولعل في رؤوس هذه الدروس تعميقَ الوعي بحقائق الاسلام ، ومزيدا من توثيق الصلة بين المجتمع وهذه الحقائق ، حتى تزول كل فجوة بين الدين والواقع .... وسيكون من نتائج ذلك صيانةُ الطابع الاسلامي للمجتمع من كل منافس دخيل ، سواء في نطاق الأفكار أو التعليم أو الإعلام على اختلاف وسائله .

وشيء آخر هام هو ان نشجع الحوار حول كل مشكلة تواجه الفكر الاسلامي ، على أساس من الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، وبذلك نفسح المجال امام الشباب المتحمس للتنفيس عن مكنوناته ، والاستماع الى الفهم الآخر ، وبهذا وذاك ننقذه من العزلة الفكرية ، التي تعرّضه وتعرّض أمنه للكثير من المآسي ، التي خَبَرناها خلال التاريخ .

والله وحده المسؤول ان يجنبنا مزالق الغلو والغرور ، ويجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، إنه الهادي الى كل خير والقادر عليه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

المدينة المنورة ـــ المحرم ١٤٠٠



المحتوى

الصفحة